

الكتاب : تفسير الشعراوي

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر؛ فهذا هوذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة ، فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء في الابتلاء . ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم يقل : إنها مجرد رؤيا وليست حياً ولكنها حق ، وقد جاءه الأمر بأهون تكليف وهو الرؤيا ، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن ، ونرى عظمة النبوة في استقبال أوامر الحق . ويلهمه الله أن يشرك ابنه إسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالقضاء : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات : 102] .

لقد بلغ إسماعيل عمر السعي في مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر في المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلاً قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ولم ينشغل بالحق على أبيه . ولم يقاوم ، ولم يدخل في معركة ، بل قال : { يَا بَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ } [الصافات : 102] .

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً : { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : 103-107] .

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء الله ، وأسلم كل منهما للأمر؛ أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعلم الله صدقهما في استقبال أمر الله ، وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام : لقد استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكما هذا الامتثال ، ولذلك يجيء إليك وإلى ابنك اللطف ، وذلك برفع البلاء . وجاء الفداء بذبح عظيم القدر ، لأنه ذبح جاء بأمر الله . ولم يكتف الحق بذلك ولكن بشر إبراهيم بميلاد ابن آخر : { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات : 112] .

لقد رفع الله عن إبراهيم القدر وأعطاه الخير وهو ولد آخر . إذن فنحن البشر نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له . لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مجريه وهو ربه بمقام الرضا ، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء . فإذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا .

ونلاحظ أن الحق هنا يقول : { وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الله سبحانه وتعالى يعلم أن أي عبد لا يتحمل أن يضربه الحق؛ ففوة الحق لا متناهية ولذلك يكون المس بالضر ، وكذلك بالخير؛ فالإنسان في الدنيا لا ينال كل الخير ، إنما ينال مس الخير؛ فكل الخير مدخر له في الآخرة .

ونعلم أن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه ، أما كل الخير فهو في الآخرة .

ومهما ارتقى الإنسان في الابتكار والاختراع فلن يصل إلى كل الخير الذي يوجد في الآخرة ، ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهد من البشر ، أما الخير في الآخرة فهو على قدر المعطي الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى . إذن فكل خير الدنيا هو مجرد مس خير؛ لأن الخير الذي يناسب جمال كمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير ، وهو مدخر للآخرة . ولا كاشف لضر إلا الله؛ فالمرضى لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب ، لكن الطبيب يعالج الموهوبة له من الله ، والذي يشفي هو الله . { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء : 80] .

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الدواء ، وخلق الدواء ، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء ثم إلى الشفاء ، والله يوجد الأسباب لِيُسَّرَ وَيُفْرِحَ بها عباده ، فيجعل المواهب كأسباب ، وإلا فالأمر في الحقيقة بيده - سبحانه وتعالى - . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ : الْهُرْمُ » . ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاء معه ، لا به . ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتي على ميعاد من علاجه . إذن فالحق هو كاشف الضر ، وهو التقدير على أن يمنحك ويمسك بالخير . وقدرته لا حدود لها .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ . . . } .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

وقد رتب سبحانه وتعالى الكون والخلق بأسباب ومسببات . وكل شيء موجود هو واسطة بين شيء وشيء ، فالأرض واسطة لاستقبال النبات ، والإنسان واسطة بين أبيه وابنه ، ولنفهم جميعاً أن الحق ، فوق عباده ، إنه غالب بقدرته ، يدير الكون بحكمة وإحاطة علم ، وهو خبير بكل ما خفي وعليهم بكل ما ظهر .

وهو القائل : { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [الأنعام :

سبحانه وتعالى له مطلق القدرة على أن يرسل العذاب من السماء أو من بطن الأرض ، أو أن يجعل بين العباد العداً ليكونوا متناحرين ليدفع بعضهم بعضاً حتى لا تفسد الأرض { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ } .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين يملك بعض الخلق أسباباً أهم مالكو الأسباب فعلاً ، لا؛ إن الحق سبحانه أراد بذلك ترتيب الأعمال في الكون . ولذلك ساعة نرى واحداً يظلم في الكون فإننا نجد ظالماً آخر هو الذي يؤدب الظالم الأول . ولا يؤدب الحق الشرير على يد رجل طيب ، إنما يؤدبه عن طريق شرير مثله : { وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأنعام : 129] .

لأنه سبحانه وتعالى يُجِلُّ المظلوم من أهل التقوى أن يكون له دور في تأديب الظالم ، إنما ينتقم الله من الظالم بظالم أو أقوى منه . وهذا ما نراه على مدار التاريخ القريب والبعيد ، فحين يتمكن العبد الصالح من الذين أساءوا إليه يقول ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة حيث قال : « يا معشر قريش ما ترون أي فاعل بكم؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أما إذا أراد الله الانتقام من شرير فهو يرسل عليه شريراً مثله يدق عنقه ، أو يجده أنفه ، أو يذله حتى لا ينتشر ويستشري الفساد؛ فسبحانه القاهر فوق عباده ، وهو قهر بحكمة ويعلم وليس قهر استعلاء وقهر جبروت وسيطرة . وحتى نوضح ذلك قد يجري الله على أحد عباده قَدْرًا بأن ينكسر ذراع ولده فيسوق الرجل ولده إلى طبيب غير مجرب ليقيم جبيرة لذراع الابن ، وتلتمت العظام على ضوء هذه الجبيرة في غير مكانها ، فيذهب الرجل بانه إلى طبيب ماهر فيكسر يد الطفل مرة أخرى ليعيد وضع العظام في مكانها الصحيح .

إن هذا الكسر كان لحكمة وهي استواء العظام ووضعها الوضع السليم . ولا يغيب عبد من العباد الخالق أبداً ، ولكن الحق ينتصف للمغيظ . ونعلم أن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فإن كفر وعصى فليس له في الآخرة إلا العذاب ، إلا أن الله يجري عليه قَدْرَ المرض فلا يستطيع أن يتمرد عليه؛ لأنه سبحانه قاهر فوق عباده بدليل أنه متحكم في أشياء لا خيار للعباد فيها . وما دام الإنسان منا محكوماً بقوسين ولا رأي له في ميلاده أو موته فلماذا - إذن - التمرد بالعصيان على أوامر الله؟ ولنعلم أن الحق هو القاهر فوق عباده بقهر الحكمة وسبحانه يضع لكل أمر المجال الذي يناسبه وهو خبير بمواطن الداءات ، ويعالج عباده منها على وفق ما يراه . ويقول الحق من بعد ذلك : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً . . . } .

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ
أُنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ
(19)

لقد اختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع القوم المناوئين له . والاختلاف يتطلب حكماً وبينه . والشهود هم إحدى البيئات ، فما بالنا والشاهد هو الله؟! إنه الشاهد والحكم والمنفذ . وشهادة الله لا تحايل فيها ، وحكمه لا ظلم فيه ، وإرادته لا تظلم عبداً مثقال ذرة ، ولا شهادة – إذن – أكبر من شهادة الحق لرسوله بأنه رسول من الله . ولو شاء الحق لجعلكم كلكم مؤمنين ، لكنه أراد للإنسان الاختيار . وحنان الرسول صلى الله عليه وسلم على البشر هو الذي جعله ، يتمنى إيمانهم ، لكن الحق يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : { لَعَلَّكَ بِأَخَعٍ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4] .

أي أن الحق يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشفق على نفسه وألا يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم . ولو أراد الحق لجعلهم جميعاً مؤمنين بآية منه؛ فمهمة الرسول هي البلاغ فقط . ولو شاء الحق لقهر الخلق جميعاً على الإيمان به كما سخر الكون ليقدم الإنسان وليسبح الكون بحمد الله . لكنه سبحانه ترك للخلق الاختيار حتى يأتي إيمانهم مثبتاً صفة المحبوبة لله؛ لأن إيمان المختار هو الذي يثبت تلك المحبوبة . والرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو نذير وبشير بهذا القرآن المنزّل عليه بالوحي .

والندارة تأتي هنا لأن المجال مجال شهادة؛ لأن الشهادة إنما تكون على خلاف ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإيمان ، والمناوئون له يدعون إلى الكفر وإلى الشرك ، وشهادة الله أكبر من كل شهادة أخرى . لذلك يقرر الحق هنا بأن الرسول نذير بالقرآن . وهذا خطاب موجه لتبليغ المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولَمَنْ وصله بعد ذلك أي شيء من القرآن ، فكأنه قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ووصله البلاغ عنه . فقد قال – سبحانه – : { وَمَنْ بَلَغَ } أي لأُنذركم به وأُنذركم كل من بلغه القرآن من البشر جميعاً .

ويوجه الحق على لسان رسوله سؤالاً استنكارياً للمناوئين فيقول : { أُنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى } . إنه سؤال من سائل يثق أن من يسمع سؤاله لا بد أن ينفي وجود آلهة أخرى غير الله . إنه سؤال يستنبط الإقرار من سامعه . والمثال على هذا ما عرضه الحق على رسوله من أمر قد حدث في عام ميلاده فيقول : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } [الفيل : 1] . ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ما حدث في عام الفيل؛ لأنه عام ميلاده ، ولكن حين

يخبره الله بذلك فمعنى هذا أنه بلاغ عن الله ، والبلاغ عن الله يجعل الخبر القادم منه فوق الرؤية وأوثق وأكد منها .

وهنا يأتي السؤال الاستنكاري : { أَأَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آهَةً أُخْرَى } . وعندما أعجزهم هذا السؤال في بعض مراحل الدعوة قال بعضهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر : 3] .

وكأنهم أخيراً يعترفون أن المتقرب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : { قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يشهد بأي آلهة غير الله ، وألقى إليهم السؤال الاستنكاري لعلهم يديرون رءوسهم ليهتدوا إلى صحيح الإجابة التي يوجزها الحق في قوله للرسول : { قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } .

إن الكلام هنا موجه إلى فئة من المناوئين لرسول الله من عبدة الأوثان ، وهم بعض من الكافرين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبعض الآخر هم بعض من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين تغافلوا عن الكتب المنزلة إليهم ، وغابت عنهم الخمائر الإيمانية التي كانت ترد العاصي عن معصيته ، فانتشر الفساد في الكون . لذلك أرسل الحق رسوله صلى الله عليه وسلم لأن العاصي لم يجد من يرده ، واختفت من المجتمع في ذلك الوقت النفس اللوامة ، وسادت فيه النفس الأمارة بالسوء .

إن الحق سبحانه لم يترك أمر الرسول غائباً عن البشر ، فقد كان الرسول في كل أمة ينبيء ويخبر عن الرسول الذي يليه حتى يستعد الناس لاستقبال النذير والبشير ، ولذلك كانت كل الرسائل تتنبأ بالرسول القادمين حتى لا يظنوا أن مدعياً اقتحم عليهم قداسة دينهم ، ولأن الإسلام جاء ديناً عاماً ، فلم يأت الخبر فقط بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة ، ولكن جاءت أوصافه وسماته أيضاً واضحة وبيّنة فيها .

إن الذين قرأوا هذه الأوصاف لو أخرجوا أنفسهم عن سلطتهم الزمنية لآمنوا على الفور برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما فعل « عبد الله بن سلام » رضي الله عنه حين قال : لقد عرفته حين رأيتُه وعرفته كابني ، ومعرفتي لمحمد أشد ونسي هؤلاء أنهم هم الذين نُصروا برسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدروا؛ فقد كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج ، وقالوا للأوس والخزرج : قَرُبْ مَجِيءَ نَبِيِّكُمْ سَنُؤْمِنُ بِهِ وَنَتَّبِعُهُ وَنَقْتَلِكُمْ بِهِ قَتْلَ عَادَ وَإِرْمَ . وأسرع الأوس والخزرج للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين :

لعل هذا هو النبي الذي توعدتنا به يهود ، هيا نسبق إليه .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتحم العالم بهذا الدين ، بل عَرَفَ نَبَأَ مَقْدَمِهِ وَبَعَثَهُ

وصورته ونعته كلُّ من له صلة بكتاب من كتب السماء . إنهم يعلمون أنه الرسول الخاتم الذي ختمت به أخبار السماء إلى الأرض .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ . . . }

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20)

إذن فرسول الله معلوم مقدماً من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، ولكن بعضاً منهم فضل السلطة الزمنية على الإيمان برسول الله فخسروا أنفسهم؛ لأن الخسارة - كما نعرف - هي ضياع لرأس المال أو نقصانه . وهم خسروا أنفسهم لأن تلك النفوس كان يجب أن تحرص على مصلحة الأرواح التي جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإصلاحها . إنهم بذلك قد منعوا الخير عن أنفسهم بتفضيل سلطان الدنيا الزائل على الإيمان بالله ، وفي ذلك خيبة كبرى .

الله يعلمنا أن الإيمان إنما هو كسب للنفس ، فإياك أيها المؤمن أن تظن أن قولك : « لا إله إلا الله » هو سند لعرش الله . لا ، إنما سند لك أنت؛ لأنه لا إله إلا هو خَلَقَ الكونَ والخالقَ بصفات الكمال والقدرة والعلم والحكمة ، واعتراف الخلق بألوهية الله وحده لا تريد من كمال الله ولكنها تفيد العباد الذين آمنوا فيحسنون استقبال الأمر بعمارة الكون ، لتسير حركة الحياة في ضوء منهج الله فينسجموا مع الكون كله المسيح لله .

وحين يقول الحق : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 20] .

فهو يخبر أهل مكة أن الصيحة الإيمانية التي صاح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في آذانهم لم تكن صيحة مفاجئة للكون ، ولكنها صيحة بُشِّرَ بها على لسان كل رسول ، وإذا كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسول والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل ، فهم بجوارهم لأهل كتاب في المدينة يعلمون هذه الحقيقة التي جاء بها رسلهم مؤكدين للعهد الذي أخذه الله عليهم؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق واستعمرهم في الأرض أرادهم موهوبين من قدرته سبحانه قُدْرَةً ، ومن غناه سبحانه غِنًى ، ومن علمه الكامل علماً ، ومن حكمته المطلقة حكمةً ، ومن رحمته الكاملة رحمةً ، ومن قاهرية الله قهراً؛ لأن الكون لا يمكن أن يستقيم إلا إن وُجدت فيه هذه المتكاملات وإن كانت متناقضة؛ لأن لكل صفة مجالها الذي تعمل فيه .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد الإنسان منا حين يرحم ولده دائماً يفسد الولد وإن لم يقس عليه مرة فأبوته ناقصة ، إذن ، فلا يمكن أن يكون المهيمن على الخلق رحيماً فقط ، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر . ولا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطبع خلقه على خلق واحد ، ولكنه سبحانه يريد أن يجعلهم يفعلون للمواقف المختلفة؛ فالموقف الذي يتطلب رحمة ، يكونون فيه رحماء ، والموقف الذي يتطلب قسوة وشدة يكونون

فيه قساة ، ولذلك يقول الحق في المؤمنين : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا }

[الفتح : 29] .

إن الحق يحدثنا عن خلق المؤمنين . إنه سبحانه لم يطبعهم على الشدة؛ لأن المواقف قد تتطلب
رحمة ، ولكن الشدة مطلوبة لمواجهة أهل الباطل . ولم يطبعهم الحق على اللين ، لكن اللين
مطلوب فيما بينهم؛ لأن كلاً منهم يرجو رحمة الله وفضله؛ ففي الموقف الذي يتطلب رحمة؛ هم
رحماء . وفي المواقف الذي يتطلب شدة هم أشداء ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن
المؤمنين : { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة : 54] .

ولم يجعل الحق المؤمن ذليلاً على إطلاقه ، ولا عزيزاً على إطلاقه ، ولكنه جعله ذليلاً على أخيه
المؤمن ، لين الجانب رحب الأخلاق . وجعله عزيزاً على الكافرين المتأبين على الله .
إذن ، فسبحانه يريد من خَلَقَهُ أن يكونوا على خُلُقِ الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول الرسول
صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمار بن ياسر رضي الله عنه : « حُسْنُ الْخَلْقِ خُلُقُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ »
وروي : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ »

إن لله سبحانه وتعالى قدرة حكيمة ، فخذوا أيها المؤمنون قدرته واستعملوها بحكمة ، والله علم
فحاولوا أن تكونوا عالمين ، والله رحمة فحاولوا أن تكونوا رحماء ، والله جبار فإذا تطلب الموقف
منكم أن تكونوا جبارين فافعلوا ، لأن سياسة الأرض وسياسة المجتمع قد لا تصلح إلا بهذا .
وما دام الحق قد أراد من الخلق أن يعمرُوا هذا الكون فلا بد أن يضمن لهم منهجاً سليماً يرتكز
على « افعل » و لا « تفعل » ، فإن نحن أخذنا منهج الله فنحن نأخذ ما يمكن أن نسميه
بالعرف الحاضر : « قانون الصيانة » فلنفعل ما قال الله افعلوا ، ولنترك ما قال الله في شأنه لا
تفعلوا حتى تؤدي الآلة الإنسانية مهمتها كما يريد الله لها أن تكون .

إن الفساد إنما ينشأ من أنك أيها الإنسان تنقل الأعمال من نطاق « افعل » إلى نطاق « لا
تفعل » ، والأعمال التي يجعلها الله في نطاق « لا تفعل » تجعلها أنت في نطاق « افعل » . فإن
طلب الله أن نقيم الصلاة ب « افعل » فكيف نجعلها في نطاق « لا تفعل » بعدم الصلاة؟ ،
وإن طلب الله منا ألا نشرب الخمر فكيف نشربها إذن؟ .

إن الخلل الإيماني الذي يحدث في الكون إنما ينشأ من نقل متعلقات « افعل » إلى « لا تفعل » ،
ومن نقل متعلقات « لا تفعل » إلى « فعل » ، أما ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » فقد
ترك الله لاختيارك إباحة أن تفعله أو لا تفعله ، لأن الكون لا يفسد بشيء منها .
وإذا نظرت إلى منهج الله في « افعل » و « لا تفعل » فأنت تجد أن الحق سبحانه لم يقض على

حريتك ولم يقض على اختيارك ، وإنما ضبطك ضبطاً محكماً فيما ينشأ فيه فساد الكون ، أما الذي لا ينشأ منه فساد فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه .

وزود الحق كل البشر بهذا المنهج من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وأخذ سبحانه على نفسه الوعد بعدم تعذيب أمة لم يبعث لها رسولاً ، ولذلك توالى الموكب الرسالي . لماذا؟ لأن الغفلة تتمكن من الإنسان؛ فقد يتناسى الإنسان مرة الشيء الذي يحد حركته ويتكرر التناسي إلى أن يصير نسياناً ، فيشاء الحق أن يرسل رسولاً لكل فترة لينبه إلى قانون صيانة الإنسان ، إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن الله أمة محمد أن تكون هي المبلغة بمنهج الله إلى أن تقوم الساعة . ولذلك أخذ سبحانه من النبيين ميثاقاً للبلاغ عن رسالة النبي الخاتم : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [آل عمران : 81] .

إذن فقد أخذ الله العهد على كل نبي أن يبلغ قومه أن يؤمنوا برسالة الرسول الذي توافق دعوته دعوتهم ، وأخذ الحق الإقرار من كل نبي على ذلك ، وشهد الأنبياء على أنفسهم وشهد الله عليهم ، وبلغوا ذلك إلى أقوامهم . إذن فنصرة النبي الخاتم موجودة في كل رسالة سابقة على الإسلام ، وكان على كل رسول أن يعطي إيضاحاً بذلك العهد لقومه ، وأن يأخذ عليهم العهد بنصرة الرسول القادم إليهم ، ويبلغهم أن من تمام الإيمان أن يؤيدوا ذلك الرسول إن هم عاصروه .

ويخصص الحق هنا أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوراة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } أي أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بالبطانة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعته لشكله وصورته ، فإذا كان كفار قريش على فترة من الرسل فليسألوا أهل الكتاب . وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبياً قادماً سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قتل عاد وإرم . إذن فالصيحة الإيمانية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة للكون ، وإن كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه : { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة : 89] .

لقد انتابت الآفة التي تنكر هذا البلاغ عن الله بعضاً من أهل الكتاب ، فقد أخذوا ، وهم المبلغون عن الله ، السلطة الزمنية ورأوا فيها الخط والجاه والنعيم ، فمنهم القضاة وإليهم يلجأ الناس لمعرفة الحكم في الدماء ، وكذلك يأخذون الصدقات .

وألفوا حياة السيادة والنعيم . وها هي ذي دعوة جديدة جاءت لتسلب منهم هذه السيادة ، وبالرغم من أنهم كانوا المبشرين بها من قبل ، إلا أن الدعوة عندما جاءت تزلزلت بها سلطتهم الزمنية ، ولذلك بدأوا العداء .

إذن فالآفة هي أخذ سلطة زمنية من باطن سلطة الله ثم يدعي أنها سلطة الله . وعندما ننظر إلى التاريخ الدياني في العالم نجد أن السلطة الزمنية في الأديان التي سبقت الإسلام هي التي أرهقت الكون؛ لأن الحق سبحانه حينما خلق الكون طمر فيه أسراراً تعمل في خدمة الإنسان وإن لم يدر بها الإنسان . وطموحات الإنسان العلمية هي التي تجعله يهتدي إلى هذه الأسرار ويكتشف القوانين التي تعمل بها؛ مثال ذلك قانون الجاذبية وقانون السالب والموجب ، كل هذه قوانين موجودة في الكون ، تماماً كما خلق الله الأرض كروية وكما جعل الشمس هي مصدر الحرارة والدفء والنور والإشراق .

ويأخذ العلماء من تلك المقدمات ليصلوا إلى اكتشاف قوانين هذه الأجرام وقوانين هذا الكون . وحين يصل الذكي إلى اكتشاف قانون ما فإنه يقول : لقد اكتشفت كذا ، وهذا تعبير فطري دقيق ، ولا يقول أبداً : لقد ابتكرت كذا؛ لأنه يعلم أن ما اكتشفه كان موجوداً في الكون ولكن لا يعرفه . وعدم معرفة الإنسان بقانون موجود في الكون لا يمنع الفائدة من الوصول إلى الإنسان ، وإن كانت المعرفة بالقانون تزيد من إمكان الاستفادة منه .

فالإنسان يتمتع بوجود الشمس قبل معرفة ما بها من طاقة ، ولكن عندما تخصص العلماء في دراسة الشمس عرفوا أن الإنسان يمكن أن يستفيد بهذه الطاقة أكثر من فائدته التقليدية بها ، ولذلك صارت هناك بعض المدن تنير شوارعها بالطاقة الشمسية ، وصارت هناك بعض المباني تدفئ حجراتها بالطاقة الشمسية وتسخّن المياه أيضاً بهذه الطاقة . ولم يمنع هذا الاكتشاف أن يستفيد الأمي أو البدوي في الصحراء من نور الشمس . وكذلك الكهرباء ، والأدوات الكهربائية والمنزلية التي يمكن للجاهل الاستفادة منها ، مثل استفادة الخبير بها ، صحيح أن الأمي لا يعرف كيف تدور المصانع التي تنتج أجهزة التليفزيون ولكنه يستفيد برؤية التليفزيون . والتليفزيون ليس إلا ترجمة مادية لمجموعة من القوانين العلمية اكتشفها الإنسان ووضعها موضع التطبيق لصناعة هذه الآلة التي يستفيد بها الإنسان .

ولكل سر ميلاد تماماً كميلاد الإنسان . وإذا جاء ميعاد ميلاد السر ولم يكن هناك من يبحث عنه ، فسبحانه يكشفه لأي بشر بالمصادفة ، وكثيراً ما نسمع أن عالماً كان يبحث في مجال ولكنه اكتشف سراً غير الذي كان يبحث عنه . ولذلك يقول الحق في آية الكرسي : { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } [البقرة : 255] .

فأنت أيها الإنسان لا تحيط علماً بأسرار الكون إلا إذا أذن الله ، وهناك عشرات الآلاف من الأمثلة على ذلك بداية من قاعدة أرشميدس التي تسير عليها البواخر والغواصات ، إلى قانون

الجاذبية الأرضية الذي اكتشفه نيوتن عندما وقعت تفاحة أمامه بالمصادفة ، إلى اكتشاف
البنسلين ، إلى غير ذلك من أسرار هذا الكون .

وإذا كانت هناك علوم لها مقدمات ، فهناك أيضاً علوم ليس لها مقدمات؛ إن الحق سبحانه
وتعالى يقول : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا } [الجن : 26-27] .
فسبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر غيبه لأحد إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ،
ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبَلِّغَ ما
أوحى به إليه وحين يريد الحق أمراً محكماً لا اختيار لأحد فيه فإنه ينزل به رسولاً إلى الخلق
ليهديهم ب « افعل » و « لا تفعل » . وهذه مسألة غير متروكة للبحث فيها ، ولكنها تأتي
بإذن من الله حتى تتعارض أهواؤنا؛ فسبحانه علم أن الأهواء بين البشر قد تتعارض ولا تتساند
فيرسل الرسل من عنده سبحانه بالمنهج ليستقيم أمر البشر .

إن النشاطات الذهنية التي يصل بها البشر إلى أسرار فيها رفاهية الحياة ، هي أسرار بنت التجربة
والمعمل ، والمعمل لا يجامل ، فلا توجد كيمياء روسية وأخرى أمريكية ، إنما كل قوانين المادة
تستنبط في المعمل . . ولذلك نرى الدول تتسابق كلٌّ يحاول أن يسرق ما عند الآخر بواسطة
الجواسيس . أما في مجال الحركة الاجتماعية فالدول تقيم سدوداً بينها وبين المبادئ؛ فالغرب لا
يسمح بدخول نظريات اجتماعية من الشرق ، والشرق لا يسمح بذلك أيضاً . ويختلف هذا
الأمر في البحث العلمي؛ فقوانين البحث العلمي عن أسرار الكون يحاول كل طرف امتلاكها .
وإن لم يستطع حاول أن ينقلها عن غيره .

ويعلمنا الحق أن نبحث في كل آيات الكون ولا نعرض عنها ، فيقول لنا : { وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .
فسبحانه يلفتنا إلى أن كل آية وكل ظاهرة من الظواهر تتطلب منا أن ننظر فيها بحكمة وإمعان؛
لأننا قد نستنبط منها أشياء تريخنا . ومثال ذلك قوة البخار ، اكتشفها رجل وطورها آخر حتى
صارت تلك القوة البخارية في خدمة البشرية كلها وكذلك الذي اخترع العجلة أفاد البشرية في
نقل عشرات الأوزان عليها واختصار زمن الرحلات ، كل ذلك إنما جاء من تأمل آيات الله في
الكون بإمعان وتدبر . لقد جعل الحق البحث في آيات الكون مشاعاً للمؤمنين والكفار ، وهو
حق لمن يبحث في أسرارهِ . وهذه هي قضية العلم . أما قضية الدين فأمرها مختلف؛ لأن الخبر في
قضية الدين يأتي من الله بواسطة رسول . أما البحث في الكون وأسراره العلمية فالحق يقول فيه :
{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَائِبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
مِنَ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ {

[فاطر : 27-28] .

إن الحق يلفتك أيها الإنسان إلى أنه أنزل من السماء ماء فأنبت وأخرج به من الأرض النباتات التي تحمل ثماراً مختلفة الألوان ومختلفة الطعم . وجعل الجبال مختلفة الأشكال والألوان ، وبعضها ضعيف وبعضها قوي . ويختلف لون الجبل عن الآخر بما فيه من مواد مطمورة . وهذه الجبال كلها من أصل واحد ولكن فروعها متباينة لخدمة الإنسان .

لقد خلق الحق سبحانه الأنعام مختلفة الألوان والأشكال والأحجام ، وكذلك الناس مختلفون في اللون والشكل . والعلماء هم الذين يتدبرون ذلك فيخشون الله الصانع العليم . إذن فأمر الدين محسوم من الحق . والرسول مبلغون عن الله ، وكذلك أهل العلم بالدين ، وأهل العلم بالدين مبلغون عن الله لا متكلمون بلسان الله؛ لأن بعض البشر قد يخلطون أهواءهم مع كلمات الله ويقولون : إن هذا هو كلام الله ، وهذا خطأ فاحش وذنب كبير .

إن ما حدث في القرون الوسطى - على سبيل المثال - كان خلطاً بين البحث العلمي وما ينزل الحق من منهج؛ فعندما جاء عالم مثل « جاليليو » ليبحث في طبيعة الكواكب أرادوا أن يحرقوه ، وعندما أراد عالم آخر أن يتكلم في طبيعة الأرض حبسوا حرته . وعندما حكمت الكنيسة العالم الغربي بهذا الأسلوب تأخر العالم كله وعاش في عصور من الظلام ، وعندما اتصل هؤلاء القوم بالمسلمين تحرروا من خزعبلات تلك القرون الوسطى وتعلموا حرية البحث العلمي من العرب وارتقت أوروبا بذلك الأسلوب العلمي الذي طرحه الإسلام وأثبتته علماء المسلمين .

إن السبب في تأخر أوروبا وجهلها هم أهل الكهنوت والدين ، بل إن نفور الأوروبيين من الدين كان بسبب معرفتهم أن رجال الدين عندهم يمتنون الحياة والتقدم الحضاري - حماية لنفوذهم وسلطنتهم الزمنية والروحية - وأراد بعض من أهل أوروبا أن يأخذوا كل الأديان بجزيرة رجال الكهنوت عندهم . ونسي الذين حملوا على الدين - كل الدين - أن رجال الكهنوت افتأتوا وادعو ذلك على النصرانية ، ونسبوه إليها؛ فالمسيح لم يقل لهم ذلك ، ولكنهم كرجال كهنوت أفسدوا الحياة بالسلطة الزمنية التي كانت لهم وكانت النتيجة أن أخذ البعض من فساد سلطة الكنيسة حجة على فساد الدين .

وهؤلاء نقول : إن الدين لا يتدخل في أي أمر من أمور الحياة العلمية ولا يفسدها أبداً ، بل نجد أن الحق قد أمرنا بالبحث في آياته وأن نزيد من البحث . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نبحث عن شئون الدنيا على ضوء التجربة . وأراد الله أن يفصل بين أمور العلم

التجريبي وأمور الدين ، وأراد أن يحمي دينه من تدخل أي فئة تدعي أنها تملك كلام الله فتخلط بين أهوائها والبلاغ عن الله سبحانه .

مثال ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر تلقيح النخيل . ونعرف أن تلقيح النخيل يتم حين نأخذ طلع الذكورة ونلقح به الأنوثة من النخيل فيخرج التمر ناضجاً ، وإن لم يحدث ذلك فالنخيل تنتج ثماراً غير ناضجة . والسفر في إنتاج النخيل لثمار غير ناضجة أن التلقيح قد تم بواسطة الريح التي تنقل القليل من حبوب اللقاح ، ولكن التلقيح اليدوي للنخيل هو الذي يزيد من جودة الثمار ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مرة للصحابه ما يمكن أن يفهم منه ألا يقوموا بتلقيح النخيل وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة بل أثمر شيئاً أي ثماراً غير مكتملة النضج ، واستند الرسول في ذلك إلى قول الحق : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] .

وهذا قول صحيح صادق حكيم نجد آثاره في السحاب الذي يتحول إلى مطر نتيجة اتصال الموجب بالسالب ، ونجده في معظم النباتات من قمح وفاكهة وذرة وغير ذلك . فطلع الذكر ينتقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنوثة في النباتات القريبة فتلقحها وتنقل الرياح كذلك اللقاح الخفيف . واللقاح عندما يكون ثقيل الوزن يحتاج في بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنوثة ، ومثال ذلك النخيل . ولذلك عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلة إنتاج النخيل في العام الذي لم يلقح فيه بعض الصحابة نخيلهم . . قال صلى الله عليه وسلم لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

وبهذا حسم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر ولم يعد لرجال الدين أن يتدخلوا في أي أمر لا تستقيم به الحياة إلا بناء على التجربة العملية . ولذلك يقال عن الإسلام : إنه دين العلم؛ لأنه أتاح لرجال العلم أن ينطلقوا في تأمل آيات الله في هذا الكون ، بل دعاهم وأمرهم أن يستنبطوا أسرار هذا الكون . أما في أمور السلوك البشري وحركة المجتمع فقد أنزل الحق من المنهج ما يكفي لعدم استعلاء أحد على أحد ، وأن نضبط السلوك الإنساني بتعاليم المنهج الإيماني . لقد جاء المنهج الإيماني في كل الرسالات ، وكانت الرسالة الخاتمة هي رسالة محمد ابن عبدالله ، وكانت البشارة به موجودة في التوراة والإنجيل . ويقول الحق : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فهل عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه المعرفة؟ لا؛ ذلك أن بعضاً منهم خافوا أن تؤخذ منهم سلطتهم الزمنية ، وأكبر مثال على ذلك هو عبدالله بن أبي الذي كان رأس النفاق في الإسلام والذي كان يستعد لتولي مُلك المدينة قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان هناك من أهل الكتاب من عمل بهذه النبوءة ، مثال ذلك : عبدالله بن سلام رضي الله عنه .

ولم يظلم القرآن أحداً ، بل قال عن بعض أهل الكتاب : { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } [المائدة : 83] .

إذن لم يظلم الحق الذين آمنوا من أهل الكتاب عندما وجدوا أن منهج الإسلام مطابق لما جاء إليهم . لكن بعض أهل الكتاب كفر وعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً على السلطة الزمنية التي كانت لهم .

وعندما ننظر إلى التاريخ نجد أن السلطة الزمنية كانت في وقت من الأوقات لرجال الدين مثلما حدث في أوروبا ، ولكن حدث استغلال من جانب رجال الدين للناس ، وأفسد رجال الكهنوت في الأرض ، فتمرد عليهم البشر وخرجوا عن طاعتهم ليقتنوا لأنفسهم القوانين . ولأنهم كانوا يحكمون بالأهواء لا بالشرع فقد كان الحكم يتذبذب عند رجال الكهنوت في الأمر الواحد حسب شخصية من يرتكب هذا الأمر ، فمن يدفع لهم ينال العفو ، ومن لم يدفع ينال العقاب! لقد أخذوا متاع الدنيا القليل ولم ينفذوا ما أمرهم به الله فخرج الناس على سلطانهم . ومن هنا لم يعترف بعض من البشر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاءت البشارة به وعرفوه بالإيضاح والنعمة ولكنهم أنكروه لأنه يسلبهم ما حصلوا عليه من الانتفاع بالمال والسلطة فخسروا أنفسهم وظلوا على الكفر؛ لقد قال فيهم الحق : { الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } . لقد خسروا أنفسهم؛ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . وخسارة النفس تفوق خسارة المال؛ لأن خسارة المال مردودة ويمكن أن تتدارك فيكسب الإنسان بعد خسارة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير . ونعلم أن الصفة الإيمانية لا تعزل عمل الدنيا عن حساب الآخرة . والمؤمن الحق هو من يربط الدنيا بالآخرة . لكن بعضاً من أهل الكتاب أحبوا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنين فأخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة . ويقول الحق من بعد ذلك : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى . . . } .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك : نسوا حظاً مما ذكروا به ، وكتبوا بعضاً من الكتب المنزلة إليهم ، وحرفوا الآيات المنزلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوا إلى الله . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عنهم : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ } [البقرة : 79] .

إن الحق يتوعدهم بالعذاب لأنهم باعوا الدين لقاء ثمن قليل في الدنيا ، وادعوا على الله الكذب فنسبوا إليه ما لم ينزله ، ولذلك فالويل كل الويل لهم؛ لأنهم انحطوا إلى أخس دركات الظلم

وكذبوا الكذب المتعمد في كلية ملزمة وهي الإيمان بالله وبالكتب المنزل والرسول .
والافتراء هو الكذب المتعمد بغرض نسبة شيء إلى الله لم يقله ، وهم قد فعلوا ذلك ، ولهذا لا
يفلح الظالمون سواء ظلموا الناس بأخذ أموالهم أو الإساءة إليهم ، أو ظلموا أنفسهم بالشرك
بالله وهو أعظم الظلم { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } .
ويقول الحق من بعد ذلك : { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ . . . }

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22)

الحق سبحانه يذكرنا بيوم الحشر ، يوم يسأل الله الذين أشركوا وكذبوا وافتروا الكذب على الله :
أين الذين عبدتموهم وأشركتموهم معي؟ إن الله لن يترك الناس سدى ، بل كل عمل يفعله
الإنسان في الدنيا محصى عليه وسيسأل عنه يوم القيامة . سيسأل الله المشركين عن الذين
عبدوهم من دون الله كذباً : أين هؤلاء الآلهة التي أشركها الكافرون في العبادة مع الله؟ ولماذا لا
يتقدمون لإنقاذ عبيدهم من العذاب الذي يصلبه الله لهم؟! ويقرع سبحانه المشركين ، ويحشرهم
مع ما عبدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وفي ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة .
ويقول الحق بعد ذلك : { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ . . . }

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23)

ونعرف أن الفتنة هي الاختبار . وللفتنة وسائل متعددة؛ فأنت تختبر الشيء لتعرف الرديء من
الجيد ، والحقيقي من المزيف . ونحن نختبر الذهب وفتنه على النار وكذلك الفضة . وهكذا نرى
أن الفتنة في ذاتها غير مذمومة ، لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التي نحصل عليها من الفتنة؛
فالامتحانات التي نضعها لأبنائنا هي فتنة ، ومن ينجح في هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن .
إذن فالنتيجة هي التي يفرح بها الإنسان أو التي يحزن من أجلها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنة
أمراً مطلوباً فيمن له اختيار . وأحياناً تطلق الفتنة على الشيء الذي يستولي على الإنسان باطل

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التي أشركوا بها ويسألم عن هذه الآلهة فيقولون : { وَاللَّهِ رَبَّنَا
مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } . وهم في ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم ، وفي باطن الأمر يعرفون الحقيقة
الكاملة وهي أن المَلِكُ كله الله ، ففي اليوم الآخر لا شركاء لله؛ ذلك أنه لا اختيار للإنسان في
اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار في الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر .
وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذي يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطرار في
اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله في الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً

إيمان الاضطراب في الدنيا لأرغمنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .
لقد قهر الحق سبحانه كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليذهب إلى الله بالحبّة .
والمشركون بالله يفاجئهم الحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويجاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : { مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } . وهم قد كذبوا بالله في الحياة فعلاً ويريدون الكذب على الله في اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليهم بخفايا الصدور وما كان من السلوك في الحياة الدنيا ، ويوضح لهم في الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .
وحين يسألهم الحق : { أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ } ؟ ففي هذا القول استفهام من الله ، والاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار من المستول . وفي حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه؛ ليعلم التلميذ ما يجهل . ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الاستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وبما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أيسألهم سبحانه ليعلم؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار . والإقرار هنا فيه تكبيت أيضاً؛ لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : { أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ } ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء .

وبذلك يوبخهم ويبكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له .
لقد أشركوا بالله في الدنيا مجرد التخلص من موجبات الإيمان . وها هم أولاء في المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم في الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون :
{ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك في موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول في حق مثل هؤلاء : { وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْدُنُ لَهُمْ فَيْعَنْدِرُونَ } [المرسلات : 34-
. [36] .

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأي قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعداراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذي ينتظرهم ، وهم يقعون في الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيهم ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب في اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق في باهم لحظة أن قدموا ما قدموا من

اختراعات ، ولذلك يقول الحق : { والذين كفروا أَعْمَانُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [النور : 39] .
وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله في الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد في الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذي يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما أن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوي شيئاً يوم القيامة .
والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : { وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب .

إن المشركين يكذبون ، ويقول الحق سبحانه عنهم : { يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [المجادلة : 18] .
وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون في الدنيا ، لكن الله يصفهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلّسوا على البشر بالحلف الكاذب في الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذي لا يمكن أن يدلّس عليه أحد .
وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هي فتنة كبرى : { ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام : 23] .
ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك : { انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ . . . }
{

انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها . وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم . ونعرف أن كل الأفعال تتجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماضٍ أو حاضر أو مستقبل .

والمثال على ذلك قوله الحق : { أتى أمرُ الله فلا تستعجلوهُ سبحانه وتعالى عما يُشركون } [

النحل : 1] .

وليس لقائل أن يقول : كيف يقول الحق إن أمره قد أتى وذلك فعل ماضٍ ، ثم ينهى العباد عن استعجاله ، والإنسان لا يتعجل إلا شيئاً لم يحدث ، ليس لقائل أن يقول ذلك ؛ لأن المتكلم هو القوة الأعلى ولا شيء يعوق الحق أن يفعل ما يريد . أما نحن العباد فلا نجبرؤ أن نقول على فعل سوف نفعله غداً إننا فعلناه ، ذلك أن غداً قد لا يأتي أبداً ، أو قد يأتي الغد ولا نستطيع أن

نفعل شيئاً مما وعدنا به ، أو قد تتغير بنا الأسباب . وعلى فرض أن كل الظروف قد صارت
ميسرة لأي قوة للعبد منا أن يفعل شيئاً دون أن يشاء الله؟ . ونحن - المؤمنون - نعرف ذلك
وعلينا أن نقول كما عملنا الله : { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ } [الكهف : 23-24] .

وهكذا يضمن الإنسان منا أنه قد خرج من دائرة الكذب . وحينما يقول الله لرسول : « انظر »
ويكون ذلك على أمر لم يأت زمان النظر فيه؛ فرسول الله يصدق ربه وكأنه قد رأى هذا الأمر .
إن الحق يصف هؤلاء الناس بأنهم : { كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ } أي أن كذبهم الذي سوف يحدث
يوم القيامة هو أمر واقع بالفعل . وقد يكذب الإنسان لصالحه في الدنيا . لكن الكذب أمام الله
يكون على حساب الإنسان لا له .

ويتابع الحق : { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ومعنى هذا أنهم يبحثون في اليوم الآخر عن
الشركاء ولكنهم لا يقدرهم على تحديد هؤلاء الشركاء لأنهم قالوا أمام الله : { وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ } وغياب الشركاء عنهم أمام الله هو ما يوضحه وبيّنه قول الله : { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُفْتَرُونَ } ف « ضل » هنا معناها « غاب » .

ألم يقولوا من قبل : { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ
[السجدة : 10] .

أهم كمنكرين للبعث يتساءل باندهاش : إذا غابوا في الأرض واختلطوا بعناصرها يمكن أن
يبعثهم ربهم من جديد؟ . فهم لا يصدقون أن الذي أنشأهم أول مرة بقادر على أن يعيدهم مرة
أخرى . ونعرف أن كلمة « ضل » لها معانٍ متعددة .

لكن معناها هنا « غاب » ، وحين يسألهم الله : أين شركاؤكم؟ ، ينكرون كذباً أنهم أشركوا ، لقد
ضل عنهم - أي غاب عنهم - هؤلاء الشركاء . والإنسان يعبد الإله الذي ينفعه يوم الحشر ،
وعندما يغيب الآلهة عن يوم الحشر فهذا ما يبرز ضلال تلك الآلهة وغيابها وقت الحاجة إليها ،
ولا يبقى إلا وجه الله الذي يحاسب من أشركوا به .

و « ضل » يقابلها « اهتدى » ، و « ضل » أي لم يذهب إلى السبيل الموصلة للغاية ، و «
اهتدى » أي ذهب إلى السبيل الموصلة إلى الغاية . ومن لا يعرف السبيل الموصلة إلى الغاية ،
يكون قد ضل أيضاً ، ولكن هناك من يضل وهو يعلم السبيل الموصلة إلى الغاية وهذا هو الكفر
. وعندما يتكلم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً؛ لأن الطريق إلى الهداية
كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلال القمة . وقد يكون الإنسان مؤمناً لكن مقومات
الإيمان ضعيفة في نفسه فيعصي ربه .

ويقول الحق عن مثل هذا الإنسان : { وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا } [

الأحزاب : 36] .

إنه ضلال دون ضلال وكفر دون كفر القمة . لكن ماذا عن الذي يضل لأنه لا يعرف طريق الهدى؟ إن ذلك هو ما يظهر لنا من قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فحين قال الحق لموسى وهارون عليهما السلام : { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء : 16-17] .

أصدر الحق الأمر إلى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ليرسل معهما بني إسرائيل ، فماذا عن موقف فرعون؟ . ماذا قال فرعون؟ : { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [الشعراء : 18-19] .

هنا يريد فرعون أن يمتن على موسى عليه السلام ، ويذكره بأنه رباه في قصره إلى أن كبر ومع ذلك لم يرع موسى وقتل رجلاً من قوم فرعون ، وكان ذلك في نظر فرعون لوناً من الجحود بنعمته ، وها هوذا يعتدي مرة أخرى على ألوهية فرعون بدعوته للإيمان بالآله الحق الذي لا يتخيله الفرعون ، ويلتقط موسى الخطأ الجوهرى في سلوكه في ذلك الوقت . إن الخطأ لم يكن الكفر بفرعون ، ولكن الخطأ كان هو القتل فيقول : { قَالَ فَعَلْتَهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } [الشعراء : 20] .

وهكذا نعرف أن موسى لحظة قتل رجلا من عدوه لم يكن عنده طريق الهدى ، بل كان ضلاله حاصلًا من عدم معرفته أن هناك طريقاً آخر إلى الهدى . وهاهوذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم : { وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى } [الضحى : 7] . أي لم يكن عندك يا رسول الله طريق واضح إلى الهدى قبل الرسالة ، فليس معنى الضلال هنا الانحراف ، ولكن معناه أنه قبل نزول الوحي لم يكن يعرف أي طريق يسلك .

وقد يكون الضلال نسياناً ، وما دام الإنسان قد نسي الحقيقة فهو ضال ، والمثال قول الحق : { أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى } [البقرة : 282] .

هنا يقرر الحق أن شهادة المرأة تحتاج إلى ضمان وذلك بتأكيدا بشهادة امرأة أخرى؛ لأن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضع أنفها في كل تفاصيل ما تراه ، بل هي تسمع سمعاً سطحياً ، ولذلك لا تكتمل الصورة عندها ، وعندما تجتمع مع شهادة المرأة شهادة امرأة أخرى ، فكل منهما تذكر الأخرى بتفاصيل قد تكون في منطقة النسيان؛ لأن نفسية المرأة وطبيعة تكوينها مبنية على الصيانة والتحرز من أن توجد في مجتمع فيه شقاق .

وعندما يصف الحق هؤلاء المشركين في يوم القيامة فهو يقول : { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ } أي غاب عنهم ما كانوا يكذبون ويدعون أنهم شركاء لله ، والمشركون هم المؤاخدون والחסبون على اتخاذ الشركاء ، فقد يكون بعضهم قد اتخذ شريكاً لله لا ذنب له في تلك المسألة ، كاتخاذ

بعضهم عيسى عليه السلام شريكاً لله . وعيسى عليه السلام منزه عن أن يشرك بالله أو يشرك نفسه في الألوهية . والحق قد قال : { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْلِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكِ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [المائدة : 116] .
بل إن الأصنام نفسها التي اتخذها المشركون أرباباً تقول : عبدونا ونحن أعبد الله من القائمين بالأسحار .

إذن فالخطأ يكون ممن أشركوا بالله لا من الأحجار العابدة لله المسبحة له لأنها مسخرة وميسرة لما خلقت له . لقد تخيل أحد الشعراء حواراً دار بين غار ثور وغار حراء ، يقول غار ثور :

كم حسدنا حراء حين ثوى الرو ... ح أميناً يغزوك بالأنوار

وعندما أذن الحق بالهجرة اختبأ النبي بغار ثور ، فقالت بقية الأحجار :

فحراء وثور صارا سواءً ... بهما أشفع لدولة الأحجار

عبدونا ونحن أعبدُ الله ... من القائمين بالأسحار

تخذوا صمتنا علينا دليلاً ... فغدونا لهم وقود النار

قد تجنّوا جهلاً كما قد تجنّ ... وه على ابن مريم والحواري

للمغالي جزاؤه والمغالي ... فيه تُنجيه رحمة الغفاري

إذن ، فهذا هي ذي الحجارة تقول : إنها بريئة من الشرك بالله وهي أعبد الله من القائمين بالأسحار ،

وصمت الحجارة الظاهر اتخذها البعض دليلاً على أن الحجارة رضيت بأن يعبدوها ، لكن

الحجارة تصير هي أحجار جهنم المعدة لمن كفر بالله ، وكان التجني من العباد على الأحجار مثل

التجني على عيسى ابن مريم . والذين غالوا في عبادة الأحجار أو البشر لهم عقاب ، أما

الأحجار والبشر الذين لا ذنب لهم في ذلك فهم طامعون في مغفرة الله ورحمته .

إذن فالضلال هنا يكون ضلال الذين اتخذوا شريكاً لله . ولكن الشريك المتخذ لا يقال له :

ضل إلا على معنى أنه غاب عنهم في يوم كان أملمهم أن يكون معهم ليحميهم من عذاب الله .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ . . . }

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)

إن من هؤلاء من يستمع إلى القرآن لا بهدف التفهم والهداية ، ولكن بهدف تلمس أي سبيل

للطعن في القرآن ، فكان قلوبهم مغلقة عن القدرة على الفهم وحسن الاستنباط وصولاً إلى

الهداية ، وهم يجادلون بهدف تأكيد كفرهم لا بنية صافية لاستبانة آفاق آيات الحق والوصول إلى

الطريق القويم .

ونعلم أن السورة كلها جاءت لتواجه قضية الأصنام والوثنية والشرك بالله ، ونعلم أن المعجزة التي جاءت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي القرآن ، وهو معجزة كلامية ، تختلف عن المعجزات المرئية التي شاهدها المعاصرون لموسى عليه السلام : كشق البحر أو رؤية العصا وهي تصير حية تلقف كل ما ألقاه السحرة ، أو معجزة عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص ، فهذه كلها معجزات مرئية ومحددة بوقت ، أما معجزة رسول الله فهي معجزة مسموعة ودائمة . إن السمع هو أول أدوات الإدراك للنفس البشرية . إنه أول آلة إدراك تنبه الإنسان ، إنه آلة الإدراك الوحيدة التي تُستصحب وقت النوم وتؤدي مهمتها؛ لأن تصميمها يضم إمكانات مواصلة مهمتها وقت النوم . ونعلم أن الحق حينما أراد أن يقيم أهل الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين ضرب على آذانهم حتى يكون نومهم سباتاً عميقاً ، فهم في كهف في جبل ، والجبل في صحارى تهب عليها الرياح والزوايع والأعاصير ، فلو أن آذانهم على طبيعتها لما استراحوا في النوم الذي أراده الله لهم ، ولذلك ضرب الله على آذانهم وقال سبحانه : { فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا } [الكهف : 11] .

ومعجزة رسول الله - إذن - جاءت سمعية وأيضاً يمكن قراءتها . وحين يتلقى الإنسان بلاغاً فهو يتلقاه بسمعه ، ويستطيع من بعد ذلك أن يقرأ هذا البلاغ ويتفقه فيه ، ولا أحد يعرف القراءة إلا إذا سمع أصوات الحروف أولاً ثم رآها من بعد ذلك ، لقد تميزت معجزته صلى الله عليه وسلم بسيد الأدلة في وسائل الإدراك الإنساني ، وهو السمع ، والحق يقول : { وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } .

إن هناك farkاً بين « يسمع » و « يستمع » ، فالذي يسمع هو الذي يسمع عرضاً ، أما الذي « يستمع » فهو الذي يسمع عمداً . والسامع دون عمد ليس له خياراً ألا يسمع ، إلا إذا سد أذنيه . أما الذي يستمع فهو الذي يقصد السمع . وهم كانوا يستمعون للقرآن لا بغرض اكتشاف آفاق الهداية ولكن بغرض الإصرار على الكفر وذلك بقصد تصيد المطاعن على القرآن .

ويقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ } و « الأكنة » جمع « كنان » وهي الغطاء أو الغلاف . ويتابع الحق : { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } أي جعلنا في آذانهم صمماً ، كأنهم باختيارهم الكفر قد منعهم الله أن يفهموا القرآن ، ونعلم أن جميع المعاصرين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعوا لرسول الله ومنهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر .

ونعرف أن لكل فعل مستقبلاً . ويمكن للمستقبل أن يؤمن وبذلك يكون الفعل قد أتى ثمرته ، وقد يكون المستقبل مصراً على موقفه السابق فلا يؤمن ، وهنا يكون الفعل لم يؤت ثمرته ، والفاعل واحد ، لكن القابل مختلف . وكان بعض الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان

{ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد : 16] .
إنهم ككفار يستمعون للقرآن ، ثم ينصرفون ليقولوا في استهزاء للمؤمنين الذين علموا وآمنوا :
أي كلام هذا الذي يقوله محمد؟ هؤلاء المستهزون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر ،
وانصرفوا عن الهداية إلى الضلال . والمتكلم بكلام الله هو رسول الله مبلغاً عن الله ، والسامع
مختلف؛ فهناك سامع مؤمن يتأثر بما يسمع ، وهناك سامع كافر لا تستطيع أذنه أن تنقل الوعي
والإدراك بما سمع . لكن القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء ، أما الذين لا يؤمنون به فآذاهم تصم
عن الفهم وأعماقهم بلا بصيرة فلذلك لا يفهمون عن الله ، وتجذ نفس المؤمن تستشرف لأن
تعلم ماذا في القرآن . أما الذي يريد أن يكون جباراً في الأرض فهو لا يريد أن يلزم نفسه بالمنهج

وحتى نعرف الفارق بين هذين اللونين من البشر ، نجد المؤمن ينظر إلى الكون ويتأمله فيدرك أن
له صناعاً حكيماً ، أما الكافر فبصيرته في عماء عن رؤية ذلك . وحين يستمع المؤمن إلى بلاغ
من خالق الكون فهو يرهف السمع ، أما الكافر فهو ينصرف عن ذلك .
وكان صنائيد قريش أمثال أبي جهل وأبي سفيان ، والنضر بن الحارث ، والوليد ابن المغيرة ،
وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحرب بن أمية ، كل هؤلاء من صنائيد قريش يجتمعون
ويسأل الواحد منهم النضر قائلاً : يا نضر ما حكاية الكلام الذي يقوله محمد؟
وكان النضر راوية للقصص التي يجمعها من أنحاء البلاد ، فهو قد سافر إلى بلاد فارس والروم
وجاب الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، فقال : والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنه أساطير
الأولين .

ويتجادل النضر وأبو سفيان وأبو جهل مع رسول الله ، وهذا الجدال دليل عدم فهم لما جاء من
آيات القرآن . ولم يجعل الله الوقف على آذانهم فهراً عنهم ، بل بسبب كفرهم أولاً ، فطبع الله
على قلوبهم بكفرهم ، واستقر مرض الكفر في قلوبهم وفضلوه على الإيمان فزادهم الله مرضاً ،
وقال فيهم الحق سبحانه : { وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا آلٌ آسَاطِيرُ الْأُولِينَ } [الأنعام : 25] .
والأساطير هي جمع أسطورة ، والأسطورة شيء يسطر ليتحدث به من العجائب والأحداث
الوهمية .

وكان الحق سبحانه وتعالى يكشفهم أمام أنفسهم وهو يحاولون أن يجدوا ثغرة في القرآن فلا يجدون
وقال الله عنهم قولاً فصلاً : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ } [
الزخرف : 31] .

فهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم فهم أمة بلاغة ، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم . كما أنهم أرادوا أن يظلوا في السيادة والجبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوي بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

لقد جاءت حوادث قسرية بإرادة الله لتكون سبباً للإيمان ، مثلما حدث مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما علم أن أخته قد أسلمت فذهب إليها وضربها حتى أسال منها الدم . وإسالة الدم حركت فيه عاطفة الأخوة فأزالت صلف العناد ، فأراد أن يقرأ الصحيفة التي بما بعض من آيات القرآن ، وتلقى الأمر من أخته بأن يتطهر فتطهر وجلس يستمع ، وبزوال صلفه وعناده وبتطهره صار ذهنه مستعداً لفهم ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربا ومحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة . ويقول الحق من بعد ذلك : { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ . . . } {

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26)

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد أن يهتدي ، ويمعن في طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جريمتين : جريمة كفره ، وجريمة نهي غيره عن الإيمان .

لقد كانت قريش على ثقة من أن الذي يسمع القرآن يهتدي به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجاً يحول بين السامع للقرآن وتدبره . { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ } [فصلت : 26] .

إنهم واثقون من أن القرآن يقهرهم بالحجة ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران . وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً في الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة في البلاغة العربية . ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، ولم يؤثر ذلك على مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيماني من محمد عليه الصلاة والسلام؛ ذلك أن الحق ينصره على الرغم من كل هذا؛ فهو سبحانه وتعالى القائل : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ هُمُ الْمُنصُورُونَ * وَإِنَّا جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الصافات : 171-173] .

وحين يقول الحق سبحانه : { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [الأنعام : 26] .

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء . وذلك ما جعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وما داموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خسروا ، أما غيرهم فلم ينأى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فأواه الله .

إن هؤلاء الجاحدين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوته وصدوا الناس عنها ونهوه عن اتباعها؛ لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو وجبروت واستخدام الضعفاء وتسخيرهم في خدمتهم وبسط سلطاتهم عليهم . هذا - أولاً - هو الذي دفعهم إلى منع غيرهم ونهيه عن اتباع الإسلام ، ثم هم - ثانياً - ينأون ويتعدون عن اتباع الرسول ، - إذن - فمن مصلحتهم - أولاً - أن ينهوا غيرهم قبل أن ينأوا هم؛ لأنه لو آمن الناس برسول الله وبقوا هم وحدهم على الكفر أيسفيدون من هذه العملية؟ لا يستفيدون - إذن - فحرصهم - أولاً - كان على ألا يؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأداء القرآني معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ } فالبداية كانت نهي الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك ابتعادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حظهم أن يظلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

وهكذا نرى أن الأداء القرآني جاء معبراً دائماً عن الحالة النفسية أصدق تعبير ، فقول الحق : { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ } قول منطقي يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله الحق : { وَيَنْأُونَ عَنْهُ } فهذا تصوير لما فعلوه في أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الخاتمة . فهم بذلك ارتكبوا ذنبين : الأول : إضلال الغير ، والثاني : ضلال نفوسهم . وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه : { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ } [النحل : 25] .

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الإسراء : 15] .

ذلك لأن الوزرَيْن : وزرهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من فعلهم . ويتابع الحق : { وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } ونرى أن الذي يقف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويبطلها ويعارضها ويجارها إنما يقصد من ذلك خير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا؟

لأن الله غالب على أمره : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الصافات : 171-173] .

والحق سبحانه وتعالى لا يهزم جنده أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصددهم عن سبيل الله فهم في الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم . وسيظل أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية في صعود . وسيرون أرض الكفر تنتقص من حولهم يوماً بعد يوم . ولذلك يقول الحق في آية أخرى : { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [الرعد : 41] .

أي أن أرض الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معقب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن في آخر ترتيبه النزولي هذه القضية شرحاً وافياً . ويعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه : { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } [الكافرون : 2-5] .

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين : فريق يرى أنه على حق ، وفريق ثانٍ أنه على باطل ، وقد يكون قطع العلاقات أمراً موقوتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن نعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لا بد أن يكون مؤيداً في شأن العقيدة ولا مدهنة في هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين : { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } .

[الكافرون : 1-5] .

فالؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبد الكافرون ، واستحالة أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن في ترتيبه النزولي لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى في قوله تعالى : { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } وكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل في دين الله . نقول : نعم إنه لا يتعارض؛ لأن الحق لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ، بدليل أنه قال جل وعلا : { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } [النصر : 1-3] .

إذن فالمسألة لن تجمد عند ذلك؛ فمعسكر الإيمان سيتوسع ، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناس في دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد ذلك : { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } [المسد : 1-5] .

إذن فأبو هب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل في دين الله أبداً .
ويجيء قول الحق : { وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا } [النصر : 2] .
هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي
جهل إلى الإسلام . ومجيء سورة المسد من بعد سورة النصر في الترتيب المصحفي كما أراد الله ،
يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبي هب وزوجه .
وتأتي من بعدها سورة الإخلاص : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص : 1-4] .
إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن فمن كفر وأشرك
بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون .
ومن بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا . . . } .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)

عندما ننظر إلى قول الحق : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ } ، هنا لا نجد جواباً ، مثل ما تجده
في قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته . إن في كلٍّ من هاتين الجملتين
جواباً ، لكن في هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآني ، فهناك أحداث
لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع في المعنى
مذاهبه التي يراها .

وفي حياتنا نجد مجرماً في بلد من البلاد يستشري فسادُه وإجرامه في سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة
واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فنرى هذا
القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطي حتى لا يضع
القيود في يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلاً : آه لو رأيتم لحظة قبضت
الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدي كل معاني الذلة التي يتخيلها السامع ، إذن فحذف
الجواب دائماً ترتيباً لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع في تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن
المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة
والمهانة في إطار ما رأى هو ، ويجب بذلك تخيل وتصوّر السامعين .

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطي على هذا المجرم . . فهذا القول يعمم
ما يرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور . وهكذا
أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق « لو » بلا جواب حين قال : { وَلَوْ
تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنعام
: 27] .

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن عالي البيان ، فصيح الأسلوب ، معجزة الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم؟
إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة : { أَدْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَوسُ الشَّيَاطِينِ } [الصافات : 65-62] .

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج هذه الشجرة من النار ، أليس في ذلك شذوذ؟ ثم تتماذى الصورة . . صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق : { طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كَيْلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ } [الصافات : 65-66] .

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . وَيَسْخَرُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ لِأَفْوَاهِهِمْ : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم ، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول ، وتساءلوا بطنطنة : ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم ملكة اللغة العربية هو الذي يجعلكم لا تفهمون ما في هذا القول من بلاغة .

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامي « الكاريكاتير » في العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان ، وستفوز أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الفوز هنا ليس في الجمال ، ولكن الفوز هما في مهارة تصوير القبح . وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصوير شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التي يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك هنا قوله الحق : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ } والذي يحدث لهؤلاء الوقوف على النار لا يأتي خبره هنا ، بل يكتفي الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم في مثل هذا الموقف؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار . والجنة - كما نعلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عينيك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمفردك ، ولا يكتفي الحق بذلك بل يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أن في الجنة ما لا يخطر على قلب بشر ، أي أن في الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس في الأشياء . والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

أو قول القائل :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدحٍ فما أرضى لكم كلمي
وهم قالوا : { ياليتنا نُردُّ } فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن أيضاً وعداً
بعد التكذيب بآيات الله ، فهل هم قادرون على ذلك؟
لا؛ لأن القرآن الكريم قد قال في الآية التالية : { بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا
لَعَادُوا . . . } .

بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28)

إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد في طلبهم المستحيل؛ لأنهم سيفعلون مثلما فعلوا
من قبل ، كفراً ونكراناً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول من فرط الخوف مما أعده الله لهم .
بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يفعلونه في الدنيا من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة « يوم
الفاضحة »؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه في عنقه ، ويقال له : { اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم
عليك حسيباً } [الإسراء : 14] .

فإذا كنا في الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا؟ ويرى الإنسان
مكره يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكأن
الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أن تحاسب نفسك . ويفاجأ الإنسان أن
جوارحه تنطق لتشهد عليه : الأيدي تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكي إلى
أين ذهب بما صاحبها ، فهذه الجوارح التي كانت تنفعل لمراد صاحبها في الدنيا ، يختلف موقفها
في الآخرة ولا تنفذ في اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسان المراد . { لَمَنِ
الملك اليوم لله الواحد القهار } [غافر : 16] .

مثال ذلك - والله المثل الأعلى - نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم الجنود ، فإن
أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها ، وبعد انتهاء المعركة يسألهم القائد الأعلى ، فيقولون سلسلة
الأوامر الخاطئة التي أصدرها قائدهم المباشر .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤتمرة بقدرتك عليها دائما ، إن سيطرتك عليها أمر
منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء في الدنيا . ويأتي يوم القيامة لتنتهي سيطرتك على
الأبعاض . وأنت ترى في الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة
الواهب الأعلى؛ فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة على جارحة أو أكثر من
جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هي أمر موهوب من الله
. وقول الحق سبحانه عن الكافرين : { بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ } يفصح تديسهم في
الحياة الدنيا ، ثم يجيب الله على تمنيتهم السابق المليء بالدلة والمسكنة ، التمني بالعودة إلى الدنيا

، فيقول سبحانه : { وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ } .
فهم كاذبون في الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه : { وقالوا
إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا . . . } .

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ (29)

إنهم لم يأخذوا في أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكون منظم مرتب محكم التكوين ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظام أو الأحكام والترتيب موجود في علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ونعلم أن هناك صفات يشترك في كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدهم؛ فالملحد إن سرق من زميله ، ألا يعاقب؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه ، وفي كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جزاء بإحسان . والإيمان لا يمنع أن يصطرح الناس على شيء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلجنهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب .

إننا نجد أن تجريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطري وضروري للإنسان؛ فهم يجرمون أفعال السوء بعد أن تعضهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوي جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمي كرامة الإنسان . ويوم القيامة يقفون في صغار وفي اضطراب ليروا ما فعلوا : { بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْكُمُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ } [الأنعام : 28] .

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيفعلون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول في اليوم الآخر إلا أنهم مقهورون . وكانوا من قبل يقولون : { وقالوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ } [الأنعام : 29] .

ففي دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يجيأ في الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوي . والقوي إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه ، ولذلك نجد القاضي المؤمن يقول دائماً : لئن عميت على قضاء الأرض ، فلا تعموا على قضاء السماء .

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض « الحياة الدنيا » وهي في حقيقتها دنيا ، وما داموا قد حكموا وعرفوا أنها « دنيا » فلا بد أن يقابلها حياة عليا . إن كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جند من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين؟

ويقول الحق سبحانه : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوْا . . . } .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ (30)

هم - إذن - قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقفوا على الله؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف من قبل الجواب عندما أوقفهم على النار؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى . إنه ارتقاء في الهول .

وهكذا نرى التبكيت لهم في قول الحق : { أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ } إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار : { أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ } ؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : « بلى » لأن الأمر لا يحتاج - إذن - إلى مكابرة . و « بلى » حرف يجعل النفي إثباتاً .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفي حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب . ويصدر حكم الحق : { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } وهكذا يدوقون العذاب الذي كانوا به يكذبون . وذوق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا . . . } .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا
وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31)

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال ، فهذا يعني الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال . إذن فقد خسر الذين كذبوا بقاء الله؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر . وكل إنسان منا يريد أن يثمر عمله ويحاول أن يعطي قليلاً ليأخذ كثيراً . وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقطع مقدار كيلتين من أرادب القمح التي في مخزنه ليبيدها في الأرض بعد أن تُحرث . وهذا يعني النقص القليل في مخزن هذا الفلاح ، ولكنه نقص لزيادة قادمة؛ فعندما وضع البذور في الأرض المحروثة نجد الحق سبحانه وتعالى ينبت لها أضغافاً مضاعفة . والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل من أجل أن يأخذ الآجل الكبير .

وهذه أصول حركة العاقل الذي يزن خطواته ، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته ، فعليه أن يبذل الجهد . أما إن كانت الحركة لا تأتي له إلا بالقليل فلن يتحرك . ولأن العاقل لا يجب

الخسارة نجده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذي سيأتي إليه . أما الذين كفروا بقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم ، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظنونة ، وحياة متيقنة؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

إننا لا نعرف كم ستحيا فيها؛ فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال ، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره في الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود . إنه فان وذهب وميت ، ولكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه ، أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدره المسبب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله . { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [الأنعام : 31] .

ونعلم أن « حتى » هي جسر بين أمرين؛ فالأمر الذي نريد أن نصل إليه هو غاية ، كقول إنسان ما : « سرت حتى وصلت المنزل » ، والمنزل هنا هو غاية السير .
والذين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الحسران ، فمجيء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصول إلى أول الحسران؛ لأن خسراهم لا ينتهي من فور مجيء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم . فهم يفاجأون بوقوع ما كانوا يكذبون به . ويعلمون جيداً أن ما صنعوه في الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

وهنا تبدأ الحسرة التي لا يقدر على كتمانها ، ولذلك يقولون : { يا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } . . أي على تفريطنا وإسرافنا في أمرنا وذلك في أثناء وجودنا في الدنيا . وبذلك نعرف أن عدم التفريط في الدنيا والأخذ بالأسباب فيها أمر غير مذموم ، ولكن التفريط في أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المذموم؛ لأنه إضاعة للوقت وإفساد في الأرض .

إنني أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع في الدنيا أمر مذموم في حد ذاته ، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هي موضوع الدين؛ لأن الدنيا هي موضوع الدين أيضاً ، والجزاء في الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة في الدنيا؛ فمن يحسن السلوك في الدنيا ينال ثواب الآخرة ومن يسيء ينال عقاب الآخرة . ولذلك لا يصح على الإطلاق أن نقارن الدين بالدنيا .
إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون : « دين ودنيا » فالدين ليس مقابلاً للدنيا . بل الدنيا هي موضوع الدين . أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد في زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما في الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات .

نقول : إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذي يبني الحضارات ويُناب المصلح في الدنيا يوم الجزاء ، ولنا أن نعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً؛ يشمل الدنيا

موضوعاً ، والآخرة جزاءً . والذين يفتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة : { يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم } . والأوزار المعنوية في الدنيا - وهي الذنوب - ستتجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفضيحة علنية؛ فمن سرق غنمه يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره ، ومن سرق بقرة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على كتفه وهي تخور ، وكذلك من سرق طناً من حديد عمارة سيُبعث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره ، وكذلك يفصح الله يوم القيامة .

وهذا يكون موقف أهل النار؛ لذلك يقول : { أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } ونعلم أنهم لا يحملون أوزاراً فقط بل يحملون من أوزار الذين اتخذهم قدوة له ، فهذا وزر الإضلال ويعرفون - جميعاً أن حمل الوزر يتجسد في الإحساس بعينه؛ فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم ، ونعلم أن نتيجة كل عمل هي الهدف منه ، فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله ، ومن أساء فسيجد عمله السيء . إننا نرى الأمثلة العملية لذلك في حياتنا اليومية؛ فهذان شقيقان يعملان بالزراعة ، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلاً : الأول منهما يقوم مع طلوع الفجر ليعتني بأرضه ويحراثها ويحمل إليها السباخ ويعتني بمواقيت الري ويسعى إلى يوم الحصاد بجهد واهتمام . والآخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون ، ولا يقوم من النوم إلا في منتصف النهار ، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد .

ثم يأتي يوم الحصاد فينال الأول ناتج تعبته من محصول وفير ، وينال الآخر محصولاً قليلاً بالإضافة إلى الحسرة التي يتجرعها بسبب إهماله وكسله . إذن فالعاقل هو من يدرس ما تعطيه حركته في الحياة . ويختار نوعية الحركة في الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة ، واطمئنان النفس في الدنيا والآخرة .

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يجب نفسه ، ومن قام في بكرة الفجر إلى عمله يجب نفسه أيضاً ، ولكن هناك فارقاً بين حب أحقق عقباه الندم ، وحب أعمق لمعنى الحياة وعقباه الجزاء الوافر .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنا : { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ . . . } .

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)

هكذا تكون الحياة بالنسبة لمن يقف عند وصفها على أساس أنها « الحياة الدنيا » إنها لا تزيد على كونها هواً ولعباً . واللعب - كما نعلم - هو مزاوله حدث ونقضه في آن واحد ، والمثال على ذلك الطفل على شاطئ البحر قد يقيم بيتاً من الرمال ثم يهدمه ، إنه لم يقم ببناء بيت من الرمال إلا ليهدمه . واللعب عملية يُقصد بها قتل وقت في عمل قد يُنقض ، فالبناء والنقض في

هذه الحالة لعب ولا يشغل اللعب الإنسان عن الواجب . أما اللهو فهو قتل الوقت في عمل قد ينقض ويشغل الإنسان عن الواجب أيضاً .

والطفل الصغير - على سبيل المثال - يتلقى من والديه بعض اللعب ليقتضي وقته معها وقد يجربها ويهدمها وقد يعيد بناءها . ولعب الطفل هو هو في الوقت نفسه؛ لأن الطفل غير مكلف بواجب . وما أن يدخل إلى المدرسة وتصير له بعض من المسؤوليات نجد الأسرة تعلمه أن يفرق بين وقت أداء مسؤولياته ووقت اللعب؛ لأنه إن لعب في وقت أداء المسؤوليات صار لعبه لهواً؛ لأنه شغله عن أداء مسؤولية مطلوبة منه .

وكذلك الحياة الدنيا مجردة من منهج الله الذي خلقها وخلق الإنسان فيها هي هو ولعب ، إما إن أخذ الإنسان الحياة بمواصفات من خلقها فهي حياة منتجة للخير في الدنيا وفي الآخرة . والذي خلق الحياة الدنيا جعلها بالنسبة لنا مزرعة للآخرة . والمؤمن - إذن - له حياتان : حياة صلاح في الدنيا ، وحياة نعيم في الآخرة؛ لأنه يعيش الحياة الدنيا على مراد من خلقه .

ومن العجيب أن من خلقنا لم يكلفنا إلا بعد أن يصل الإنسان منا إلى البلوغ ، أي أن يكون الإنسان صالحاً لإنجاب إنسان مثله إن تزوج . ويأتي التكليف متناسباً مع النضج وعند تمام العقل . وسمح الحق لنا أن نلعب في سنوات ما قبل النضج ، ولكن لا بد أن يكون مثل هذا اللعب تحت إشراف من الكبار حتى يمكن للعب أن يتحول إلى ذرّبة تفيدها في مجالات الحياة ، ويجعلنا نعرف كيف وصلنا في العصر الحديث إلى درجة من التقدم في صناعة اللعب التي يتعلم منها الطفل ، ويمكن أن يقوم بتفكيكها وإعادة تركيبها ، وحتى الكبار نجدهم في زماننا يتعلمون قيادة السيارات في حجرات مغلقة وأمامهم شاشة تليفزيون ، وكأنهم في طريق حقيقي وفي شارع مزدحم بالسيارات ، ومن يتقن هذا التدريب العملي يخرج إلى قيادة السيارة . وهكذا نجد أن التدريب مفيد للإنسان ، يعلم الصغار اللعب الذي ينفعهم عندما يكبرون ، وكذلك يفيد التدريب الكبار أيضاً .

وعندما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعلم أبناءنا ركوب الخيل والسباحة والرماية ، كانت الخيل - في زمن الرسالة - هي إحدى الأسلحة المهمة لركبها الداعون إلى الله المجاهدون في سبيله .

وحين طلب منا أن نعلم الأبناء السباحة فهذا بناء للجسم والقوة يفيد الشاب ويعلمه مواجهة الصعاب ، وحين طلب منا أن نعلم الأبناء الرماية فذلك لأن تحديد الهدف مادياً أو معنوياً ومعرفة الوصول إليه أمر مطلوب من كل شاب . وكل هذه ألعاب ولكنها ليست لهواً ، إنما ألعاب ممتعة ويمكن أن تستمر مع الإنسان بعد أن يكلف . قال عليه الصلاة والسلام : « علموا أبناءكم السباحة والرماية » . فماذا عن ألعاب عصرنا وزماننا؟

إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أخذت اهتمام الرجال والنساء والكبار والصغار ، وهي لعبة لا تعلم أحداً شيئاً ، لأنها لعبة لذات اللعب ، وهي لعبة تعتدي على وقت معظم الناس ، وأخذت تلك اللعبة كل قوانين الأمور الجادة . فهي تبدأ في زمان محدد ، ويذهب المشاهدون إليها قبل الموعد بساعتين ، وتجند لها الدولة من قوات الأمن أعداداً كافية للمحافظة على النظام مع أنها من اللهو ولا فائدة منها للمشاهد . وقد تمتع وتحول وتُعطل البعض عن عمله والبعض الآخر عن صلاته . يحدث كل ذلك بينما نجد أن بعضاً من مبادئ الجد بلا قانون . وأقول ذلك حتى يُفِيح الناس ويعرفوا أن هذه اللعبة لن تفيدهم في شيء ما . وأقول هذا الرأي وأطلب من كل رب أسرة أن يُحْكَم السيطرة على أهله ، وينصحهم بحدوء ووعي حتى ينتبه كل فرد في الأسرة إلى مسئولياته ولنعرف أنها لون من اللهو ، ونأخذ الكثير من وقت العمل وواجبات ومسئوليات الحياة ، حتى لا نشكو ونتعب من قلة الإنتاج . إن على الدولة أن تلتفت إلى مثل هذه المسائل ، ولتأخذ كل أمر بقدره ، فلا يصح أن ننقل الجد إلى قوانين اللعب ، ولكن ليكن للجد قانونه ، وللعب وقته وألا ننقل اللعب إلى دائرة اللهو؛ لأن معنى اللهو هو أن ننصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه . وإن نظرنا إلى الحياة مجردة من منهب الله فهي لعب وهو .

ونلتفت هنا إلى دقة الحق حين جاء باللعب أولاً ثم اللهو من بعد ذلك ، ثم يقول : { وَلَلدَّارُ الآخرة } وفي هذا لفت واضح إلى أن الإنسان حين ينعزل عن منهب الحق في الحياة تفاجئه الأحداث بالانتقال المفاجيء إلى جد واضح؛ لذلك فلنأخذ الحياة في ضوء منهب الله؛ لأنه سبحانه حين أبلغنا أنه خلق الإنسان من طين ، وصوره ونفخ فيه من روحه فقد أعطاه الحق بذلك حياة أولى ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي وكل إنسان إلى الغاية منها وهي الحياة الثانية وهي الدار الآخرة فإنها الحياة الكاملة الباقية ، ونسمع قول الحق سبحانه وتعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24]

إن الحق سبحانه وتعالى يقدم لنا حياة عالية دائمة تخلف الحياة التي تنتهي .

والذي يتوقف عن أخذ منهب الله في حياته يكتفي بمثل ما يأخذ الحيوان من الحياة وهي النفخ في الروح ، لكن الذي يأخذ بمنهب الله يأخذ الحياة العالية . حياة الخير والجمال والإصلاح والإحسان . ونعلم أن الجمال في الحياة هو الجمال الذي لا يورث قبحاً . والخير الحقيقي هو الذي يعمم خير الله على العباد ، فلا يأخذ الإنسان الخير لنفسه ويترك شروره للآخرين؛ لذلك أقول : لا تأخذ أيها المسلم الخير لنفسك على حساب الشر للآخرين؛ لأنك لا تحب أن يحقق الآخرون الخير على حسابك ، والذي يجب أن ينطلق بشروره في الناس فليستقبل الشر من غيره

. ومن يجب أن يأخذ الخير من الناس فليعطهم من خيره حتى يبقى الوجود جميلاً . إذن فالحياة بدون منهج الله تكون قبيحة؛ لأن القوي يعيث فيها فساداً بقوته وينزوي الضعيف إلى الإحساس بالذلة والضياع .

لكن الحق سبحانه أراد الحياة للمؤمنين في ضوء منهجه ، وعندما يطبقون تكاليفه ب « افعل » و « لا تفعل » فهم يصونون الحياة من الفساد حسب أوامر الخالق الأعلى للحياة ، فهو سبحانه الذي أوجدنا ووضع لنا قوانين صيانة الحياة . وحين منع مؤمنا واحداً من الشر ، فهو قد منع وحرم على كل إنسان مؤمن من أن يصنع شراً لأخيه ، وبذلك حمى الإنسان من الشر . وإنما خص الله المؤمنين بالنداء والدعاء؛ لأنهم أهل الاستجابة والطاعة؛ أما ما عداهم من أهل الكفر والشرك فقد تابوا على الله وعصوه ولم يؤمنوا به . وحين يأمر الله المؤمن بالخير ، فهو يأمر المؤمنين جميعاً بأن يصنعوا الخير لهم ولغيرهم . وبذلك يكسبون حياة مطمئنة؛ لذلك يقول سبحانه : { استجبوا لله ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } .

فالذين لا يستجيبون لله ولا لرسوله حين يدعوهم لما يحييهم يظنون في الحياة الدنيا غارقين في اللهو واللعب ، إنهم كالموتى . وحتى نعرف أن الحق سبحانه أراد لنا - نحن المؤمنين - الحياة العالية؛ إنه - سبحانه - قد سمى المنهج الذي يرسم لنا الأوامر والنواهي بالروح : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا } . وسمى الحق سبحانه وتعالى بهذا الملك الذي نزل بالوحي : { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } [الشعراء : 193] .

إذن فالحياة التي تعطي الإنسان الحس والحركة هي الحياة الأولى التي يلعب ويلهو من خلالها ، وليست هي الحياة المرادة لله؛ لأن الحياة المرادة لله هي الحياة الإيمانية ولذلك سماها الحق سبحانه الحيوان أي الحياة الكاملة وسمى المنهج روحاً . { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنعام : 32] .

إن مجرد التعقل يعطي الإنسان الخير ، والتعقل هو محاولة فهم نوااميس الكون من الأسباب والمسببات ، ونحن نرى نور الشمس يعمّ النهار ويشيع الضوء والدفء ، وغياب الشمس وظهور القمر يحقق صفاء السكون ويهدي الناس في ظلمات البر والبحر ، وجريان الماء يروي الإنسان والزرع ، وحركة الرياح تحرك السحب وتقود السفن وتساعد في حركة الملاحة في الجو والبحر وتلقح النبات ، وكل ذلك أسباب أرادها الله حتى يتحقق التوازن في الكون .

والإنسان يأخذ حظه من الحياة بالأسباب التي عمل فيها ولا يأخذ الإنسان من أسباب غيره . صحيح أن هناك أناساً يعيشون بلا أسباب ويأخذون تعب غيرهم ، ولكن عليهم أن يحذروا الله ، فإياك أيها المسلم أن تبني لحمك ولحم أولادك من استغلالك لغيرك؛ ذلك أن أغيار الحياة ستمر عليك وقد تصير قوتك إلى ضعف ، وتأمين الإنسان لضعفه إنما يكون بإخراج الزكاة للضعيف ،

ومساعدته ومعاونته في كل ما يحتاج إليه ، ونجد غير المؤمنين وقد أخذوا فكرة التأمين من الزكاة ، فأتت تدفع للفقير زكاتك لتؤمن نفسك كمؤمن ، وهم أخذوا هذه الفكرة ليحولوها إلى تأمين على الحياة ، ولذلك تدخلوا في قدر الله .

لكن الحق أراد بالزكاة أن يطمئن المجتمع كله لا أن يطمئن من يؤمن على نفسه فقط . ونعلم أن الذي يخيف الإنسان ويجعله يكس المال ويجمعه ويكنزه هو الخوف من الضعف ، لكن لو أعطى الغني بعضاً من المال للفقير لأشاع الاطمئنان في نفسه ونفوس الضعفاء .

والذي يجعل الناس تلهث في الحياة للادخار لأبنائها هو عدم اقتناعهم بالتكافل الاجتماعي الذي شرعه الإسلام . وهم يرون اليتيم وهو يضيع في المجتمع ، لكن لو آمن الناس في المجتمع بالتكافل الاجتماعي لوجد كل يتيم أبوة المجتمع كله له .

والإنسان الذي يلهث وراء الكسب من أجل أن يؤمن مستقبل أولاده قد يحول أولاده إلى يتامى لأنه مشغول عن تربيته ، ولذلك يقول أمير الشعراء شوقي رحمة الله عليه :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليلاً

إن اليتيم هو الذي تلقى له ... أمماً تخلت أو أباً مشغولاً

إن على المجتمع أن يأخذ قضية الخير من قول الحق سبحانه : { استجيبوا لله وللرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } . فكما أحيا الحق الأجسام بالروح التي نفخها في القلب الطيني فصار لها حس وحركة ، فهو قد أنزل المنهج أيضاً روحاً من عنده لترتقي به روح الحس والحركة ، حتى لا يصير الإنسان كالأنعام أو أضل سبيلاً : { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنعام : 32] .

والدار الآخرة خير؛ لأن الدنيا مهما طالَّت فهي منتهية ، لكن الحياة الآخرة خلود أبداً ، ونعيمنا في الدنيا نأخذها بالأسباب ، ولكن نعيم الآخرة نأخذها على قدر سعة ورحابة قدرة الله . وآفة الدنيا حتى بالنسبة لأهل النعيم والقوة والثراء هي الخوف من الفقر أو الموت ، لكن في الآخرة لا يفوت أهل الجنة النعيم ولا يفوتون النعيم .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ . . . } .

قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33)

لقد شرح الحق حال الكفار وموقفهم في الآخرة حين يقفون على النار ، ويقفون أمام الله ، ومن بعد ذلك يوجه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تقع عليه مشقة البلاغ من الله لهؤلاء الكفار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حزيناً لأن قومه لا يذوقون حلاوة الإيمان ، وهو الرسول الذي قال عنه الحق سبحانه وتعالى : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يكون كل الناس مؤمنين ، ويتألم لمقاومة بعض الناس دعوة الإيمان ، إنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على الكافر ليؤمن على الرغم من أن مهمة الرسول هي البلاغ فقط ، ولو شاء الحق أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لأنزل عليهم آية تجعلهم جميعاً مؤمنين : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4] .

لكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد خضوع أعناق ، وإنما يريد خضوع قلوب . إنه - سبحانه - يريد أن يأتي الناس طواعية واختياراً ليشبثوا الحب للخالق؛ لذلك يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : { قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } وساعة نسمع : « قد » فلنعرف أن ما يأتي بعدها هو أمر محقق ، ويأتي ذلك إذا دخلت على الفعل الماضي فهي في هذه الحالة تأتي لتسبق أمراً تحقق ، ومرة تأتي للتقليل أو للتكثير إذا دخلت على الفعل المضارع الذي يدل على الحال أو الاستقبال ، فإذا كان العامل والمعمول بينهما ارتباط سبب . فهذا للتكثير ، وإذا كان ظاهر الأمر غير مرتبط ارتباطاً واضحاً . فهذا للتقليل . والمثال على الارتباط الذي يدل على التكثير هو قول القائل : قد ينجح المُجدِّ؛ لأن المُجدِّ والنجاح مرتبطان ارتباط سببية ، ولكن قد يكون هناك حادث مفاجئ لأحد المجدين فلا يستطيع النجاح ، كأن يمرض يوم الامتحان ، ولكن احتمال الصحة أكثر من احتمال المرض فكانت للتكثير .

والمثال على مجيء « قد » للتقليل هو قول القائل : قد ينجح الكسول ، أي أن الكسول قد ينجح بالمصادفة وبدون أسباب منطقية ، كأن يقرأ عدداً من الدروس ليلة الامتحان فيأتي فيها الامتحان فينجح ، إذن ق « قد » إذا دخلت على الماضي تكون للتحقيق ، وإن دخلت على المضارع فهي للتكثير إن كانت منطقية الأسباب ، وهي للتقليل إن كانت غير منطقية الأسباب . ولكن كلنا يعلم أن علم الله هو علم أزلي ، ولا قوة ولا أمر يخرجان عن معلوم الله . إذن ف « قد » هنا للتحقيق وهي داخلة على الفعل المضارع ، فالحق أراد أن يبلغنا أنه علم أولاً بما حدث وجاء ب « قد » لنستحضر صورة الفعل :

{ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } .

والحزن هو خروج النفس من سياق انبساطها؛ فالإنسان يكون في غاية الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يؤدي مهمته ، فإن حدث شيء يخل بعمل أحد الأجهزة فذلك يورث الحزن . أو يكون الحزن انفعالاً لحجيء وحصول أمر غير مطلوب للنفس .

لقد كان مطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ عنه ، لكن البعض قاوم الإيمان ، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قول الشعر ، وها هوذا الحق يسلي رسوله فيقول : { قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } أي إنك يا محمد لا بد لك أن

تعلم أن أقوالهم هذه ليست متعلقة بك؛ لأنك - بإجماع الآراء عندهم - أنت الصادق الأمين . وهم إنما يكذبون بآياتي التي أرسلتها معك إليهم؛ لأن ماضيكم معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شيء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنسان لا يغش نفسه فيما يخصه . فكأن الله يريد أن يتحمل عن رسوله؛ لأن من يوجه إهانة للرسول إنما يوجهها للمرسل له وهو الله جلت قدرته .

ولذلك يقول الحق : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظالمين بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } وسبحانه يبين لنا أن رسوله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أشد ما يكون الحرص على أن تستجيب أمته لداعي الحق ، حتى يتأكد لدى المؤمنين قول الحق سبحانه وتعالى في رسوله : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب إلا يفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل أمر الدين اختيارياً حتى يعلم من يجيء له طواعية ويقدر ألا يجيء ، ومن لا يجيء وهو قادر أن يجيء .

إن الحق سبحانه وتعالى له سنن كونية في الكون يجربها على كل الخلق . وقد يتساءل قائل : وما الذي يجعل الحق سبحانه وتعالى يترك للكفر به مجالاً في دنياه؟ ولماذا يجعل الحق سبحانه وتعالى للشرك مجالاً في دنياه ألا يحكمها بهندسة حكيمة؟ ونقول : لو لم يوجد للشرك مضار تُفزع الناس لما عرفوا للحق حلاوة . إذن فوجود الشر ، ووجود الكفر ، وآثار الكفر في الناس جبروتاً وقهراً واستندلاً ينادي في الناس أنه لا بد من الإيمان ، وأنه لا بد من وجود الخير . فلو لم يكن للشرك مكان في الكون فما الذي يلفت الناس إلى الخير؟ ولذلك تجد أن هبات الإيمان عند المؤمنين لا تأخذ فتوتها إلا حين تجد قوماً من خصوم الإيمان يهيجون المؤمنين ويؤذونهم ويستفزونهم .

أما إذا صارت الدنيا إلى رتابة فرما فتر أمر الإسلام في نفوس المسلمين . ولذلك نجد المؤمنين بالله في غيرة دائمة؛ لأن هناك من يكفر بالله . فيقول لرسوله : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } وكأنه سبحانه يبلغنا أنه أراد كونه ليكون فيه المؤمن والكافر .

لذلك إن تساءلت - أيها المسلم - كيف يكون في الأرض كافرون؟ فلك أن تعلم أنهم من خلق الله أرادهم الحق أن يختاروا الكفر فلم يختاروا الكفر قهراً عنه - سبحانه - وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزن لأن هناك أناساً لم يؤمنوا ، فيسليه الحق سبحانه وتعالى ، بأنه يعلم أنه يحزنه الذي يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله . ألم يقولوا إنه ساحر؟ ألم يقولوا إنه مجنون؟ ألم يقولوا إنه كاذب؟ ألم يقولوا إنه كاهن؟ ألم يقولوا إنه شاعر؟ وسبحانه وتعالى يعلم ما قالوا ويعلم أن هذه الأقوال تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريد الحق سبحانه أن يرفع

ويدفع هذا الحزن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبلغه أنهم لا يكذبونك يا رسول الله؛
فأنت تعرف منزلتك عندهم وهي منزلة الصادق الأمين ، ولا يجروا أحد على تكذيبك ولكنهم
يجحدون بآيات الله . وهل هناك تسلية أكثر من ذلك . لا يمكن أن توجد تسلية أكثر من ذلك

ونعلم أن ما قاله أهل الشرك عن رسول الله هو قول مردود ، فهم أمة البلاغة والفصاحة والبيان
، فكيف يقولون إن القرآن شعر وهم أصحاب الدراية بالأساليب مرسلها ، ومسجوعها ،
ونظمها ، ونثرها؟

أمن المعقول أن يلتبس عليهم أسلوب القرآن بالشعر؟ ومن المؤكد أن هذا غير ممكن . ولقد قالوا
عن النبي صلى الله عليه وسلم : إنه ساحر ، فكيف سحر الذين آمنوا به ولم يسحر الباقين؟ ولو
كان ساحراً لسحرهم أيضاً ، وبقاؤهم على الكفر ينقض هذا . وقالوا كاذب ، فهم بقولهم هذا
يكذبون أنفسهم لأنهم يعرفون عنه أنه الصادق الأمين ، وها هوذا الحوار بين الأخنس بن شريق
وأبي جهل .

قال الأخنس : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال أبو جهل : ماذا سمعت! وهنا
نسمع قول الغيرة والحسد والبغض ، نسمع عن تلك الأمور البعيدة عن موضوع الرسالة النورانية
الحمدية فيقول أبو جهل : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا
فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبى يأتيه
الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذا! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق . فقام الأخنس وتركه
إذن هي مسألة غيرة غاضبة على مناصب وسلطة زمنية ، ولذلك يرد الله عليهم قائلاً : { أَمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }

[الزخرف : 32] .

وها هو ذا الحق يسلي رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له : { قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي
يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام : 33] .
إنهم ظالمون ، لأن الظلم نقل حق إلى غير مستحقه . وأبشع أنواع الظلم هو الشرك؛ لأن الحق
سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للعبادة ، والظلم الأخف وطأة هو أن ينقل الإنسان حقاً
مكتسباً أو موهوباً إلى غير صاحبه وهذا ظلم موجود بين الناس . وقد نقل المشركون حق الذات
الإلهية إلى غير مستحقها من أوثان وأصنام ، أما المؤمنون فهم الذين اعترفوا بحق الذات الإلهية في
العبادة .

وهناك نوع آخر من الظلم أريد أن أتحدث عنه ، وهو أن يظلم الإنسان اسمه ، كأن يكون والده

قد سماه « مهدياً » ولكنه يملأ الدنيا فساداً بإيذاء نفسه وإيذاء الآخرين . نقول لمثل هذا الإنسان : إن الواجب يقتضي منك أن تحترم أمل والدك فيك ، فلا تظلم اسمك « مهدياً » ولتكن هناك عدالة بين الاسم والمسمى وذلك بأن يكون سلوكك متوافقاً مع الاسم الذي سماك به أبوك .

أما إن كان أبوه قد سماه « مهدياً » ولم يلحقه أي شيء من تعاليم الهدى والدين ، ثم خرج الشاب إلى الدنيا ليملاًها بالشقاء لنفسه ولغيره ثم اهتدى من بعد ذلك فهذا شاب استطاع أن يتعلم الهداية فصار اسمه على مسماه .

وقد كنا في الثلاثينيات من هذا القرن نسمع التحذيرات ونحن نزور القاهرة : « إياكم أن تطأوا بأقدامكم شارع عماد الدين لأن كل الموبقات في هذا الشارع » . وتعجبت أن يكون اسم الشارع « عماد الدين » ويكون مكاناً للموبقات فقلت في ذلك : وأقبح الظلم بعد الشرك منزلة ... أن يظلم اسماً مسمىً ضده جُبلاً فشارع كعماد الدين تسميةً ... لكنه لعناد الدين قد جُعلا

وفي الحياة كثير من حالات الأسماء يظلمها أصحابها . ولكن أكبر وأقبح درجات الظلم هو الشرك بالله { ولكن الظالمين بآياتِ الله يَجْحَدُونَ } والجحد هو إباء اللسان وترفعه وعدم رضا بأن ينطق بكلمة الحق ، فلو أن المشركين خلوا إلى أنفسهم واستعرضوا مسائل محمد ومسائل الرسالة لوجدوا أن قلوبهم مقتنعة بأنه صادق وأنه رسول وأن المنهج إنما جاء للهداية . لكن ألسنتهم غير قادرة على الاعتراف بذلك .

ولذلك يأمر المنهج الإيماني أن على الواحد منا إن أراد أن يناقش قضية أهي حق أم باطل فلا يصح أن نناقشها في حشد من الناس ، ولكن فلنناقشها أولاً في نفوسنا لتبين الحق فيها من الضلال ، ولذلك يقول الحق سبحانه : { قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنى وفردى ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ } [سبأ : 46] .

كأن الحق يهدينا إلى كيفية التمييز ، فإما أن نناقش أنفسنا ، وإما أن يتناقش اثنان حتى يمكن أن يقتنع أحدهما برأي الآخر دون أن يشهد ثالث هزيمته فيكابر ويجادل .

وقد نصح الحق بذلك هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به - والعياذ بالله - مساً من الجنون؛ فالجنون هو أن تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبر أو نظر في آثارها وتكون خالية من حكمة فاعلها . أما العاقل فهو الذي يرتب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهي به عقله وحكمته إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خلقية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أي سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال؟ لا . ولذلك يقول الحق : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا

عَبْرَ مَثْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ { [القلم : 1-4] .

إن الخلق العظيم يتنافى مع الجنون ، وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنهم رمّوه بالسفه والجنون . فكلما جاء رسول لقومه بمنهج حق ليطمس معالم الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة . ونعرف أن السماء لا تتدخل بالنبوات والمعجزات إلا حين يطم الفساد وتنطمس النفس المؤمنة . فالمؤمن فيه خميرة الخير فيندفع إلى فعل الخير . وإن حدثته نفسه بفعل معصية وفعلها ، فإن نفسه اللوامة تؤنبه على ذلك ، لكن إن انطمست نفسه ولم تعد تلوم ، صارت نفسه الأمانة بالسوء هي المسيطرة وإن لم يجد من يقول له في المجتمع : لا تفعل ذلك . . فالجتمع كله يكون قد فسد . { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ { .

إذن السماء لا تتدخل برسالة أو معجزة أو منهج إلا حين يطم الفساد . وما دام قد طم الفساد فهناك من يستفيد من هذا الفساد . وحين يأتي الرسول من أجل أن يمنع الفساد فهذا الرسول يمنع عن المفسدين استغلال الناس ويحول بينهم وبين الاستفادة من الفساد . ولذلك كان لكل رسول مقاومة من المفسدين وكانوا يقولون : { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ { [هود : 27] .

وأتباع كل رسول هم المظلومون الذين يحتاجون إلى منقذ . أما الجبايرة فهم يخاصمون الرسول ويقاومونه ، ويستقبله هؤلاء الجبايرة بإيذاء يتناسب مع مهمته . فإن كانت مهمته لقبيلة فالإيذاء يأتيه من هذه القبيلة . وإن كانت مهمته أوسع من ذلك فإنه يلقي من صنوف العذاب ألواناً . وما دام محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس كافة فعليه أن يجد المتاعب الكثيرة ويتحملها . وقد أعدّه الله وهباً لذلك ، وقد أخذ الرسل السابقون من الإيذاء على قدر دعوتهم . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو للناس كافة ، ولا رسالة من بعده ، لذلك يتجمع ضد هذا الرسول وهذه الرسالة أقوام كثيرون . ولذلك يقول له الحق سبحانه : { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ . . . {

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَا هُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (34)

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة خاصة ، ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة؟ إن عليك أن تتحمل هذا؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد اختارك لهذه المهمة وهو العليم أنك أهل لها . والحق كفيل بنصر رسلك فلا يتأتى أن يترك الشر أو الباطل ليغلب الرسل ، وما دام سبحانه وتعالى قد بعث الرسول فلا بد أن ينصره . فهو القائل : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ { [الصافات : 171-173] .

وما دامت قد سبقت كلمة الله للرسول فلا مبدل لكلمات الله ، ولا أحد بقادر على أن يعدل في المبادئ التي وضعها الله بقوله سبحانه وتعالى : { وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام : 34] .

وقد قص الحق سبحانه على رسوله قصص المرسلين ، ولم يكتف بالقول لرسوله أن الرسل السابقين عليه قد كذبتهم أقوامهم ، ولكن أورد الحق لرسوله ما حدث لكل رسول ممن جاء ذكرهم بالقرآن الكريم وماذا حدث للرسول - أي رسول - من ثبات أمام الأعداء ، ثم بين أن كلمة الحق قد انتصرت دائماً . وقد روى الحق بعضاً من قصص الرسل فقال : { مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر : 78] .
ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ . . . } {

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35)

إنك يا محمد رسول من عند الله ، ومعك منهج هو معجزتك الدالة على صدق ما جئت به ، فإن كبر عليك إعراضهم وعظم عليك أن يتولوا ويعرضوا عنك فإن استطعت أن تصنع لنفسك نفقاً في الأرض لتأتيهم بآية أو أن تبني سلماً لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية فافعل ، ولكنك لن تستطيع ذلك لأن ذلك فوق حدود قدرتك وسيلقى المشركون والمنافقون العذاب لأنك جئت يا رسول الله تبتد من صولجان سلطتهم الزمنية وتقيم العدل الإيماني . ولذلك حاولوا السخرية منك وإيذاءك .

وقد طلب الكافرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل إلى الأرض ليفجر لهم منها ينبوعاً ، وطلبوا إليه أن يصعد إلى السماء وأن يجعلها تسقط عليهم كسفاً وقطعاً لتهلكهم . وهذه أشياء لم تكن في مكنة واستطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقول له الحق سبحانه وتعالى ما يقفل عليه أبواب الحزن ويقضي على أسباب الأسى والأسف عنده بسبب إعراضهم ، وأن يعرف أن السخرية والمقاومة هي مسألة طبيعية بالنسبة لكل رسول من الرسل ، وأنت يا رسول الله أولى بهذا لأن مهمتك أضخم من كل الرسل . ونلاحظ أن الحق سبحانه يحذف هنا جواب « إن » فهو يقول : { فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ } [الأنعام : 35] .

ولم يقل الحق : فافعل ذلك ، كأن المسألة هي تهدئة للرسول؛ لأن الجواب في مثل هذه الحالة معلوم؛ فالرسول لا يجبر أحداً على الإيمان . وإعراض هؤلاء القوم أمر مقصود لواجب الوجود حتى يختبرهم ولو أراد قهرهم لفعل ، فلا أحد يتأبى على الله ، فالكون كله مطيع لله ، الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والهواء ، والماء ، والجبال ، والأرض ، وكل ما في الكون مطيع لله بما في ذلك

الحيوان المسخر لخدمة الإنسان . ولكنه - سبحانه - أعطى الاختيار للإنسان ليأتي إلى الله محباً

ونعلم أن الحق قد ترك بعضاً من المسخرات غير مذلة ليثبت للإنسان إنه لم يذل الأشياء بحيلته ، ولكنه - جل شأنه - هو الذي خلقها وذلها له؛ لذلك نرى الجمل الضخم يحره طفل صغير ، ونرى أي رجل مهما تكن قوته يأخذ الحذر والاحتياط من ثعبان صغير . { أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 71-72] .

ولو لم يذلها الله فلن يستطيع أحد أن يقترب منها . وأضرب هذا المثل دائماً ، عندما قال قائل : لماذا خلق الله الذباب ، فقال رجل من أهل الإشراق : ليذل به الجبارة؛ فسلطانهم لا يمتد إلى هذه الحشرات . لقد أعطى الحق الإنسان عزة السيادة ، وعلمه أيضاً أن يتواضع للخالق . و يبلغ الحق سبحانه وتعالى رسوله : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [الأنعام : 35] .

أي أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين . وقد يقول قائل : كيف يخاطب الله رسوله فيقول له : { فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } ؟ ونقول : إن الحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول؛ فالرسول معصوم من الجهل ، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول عن أن يكون في مثل هذا الصنف من الجاهلين . ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . . . } .

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

و « يستجيب » معناها أنهم يطيعون أمر الأمر ونهي النهي . وهناك فارق بين « الاستجابة » و « الإجابة »؛ ف « الاستجابة » هي : أن يجيبك من طلبت منه إلى ما طلبت ويحققه لك ، و « الإجابة » هي : أن يجيبك من سألت ولو بالرفض لما تقول ، وقد يكون الجواب ضد المطلوب ما سألت . ويقول الحق : { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ } أي أن الذين يستجيبون لنداء الحق هم الذين يسمعون بأذانهم وقلوبهم مصدقة؛ لأن هناك فارقاً بين سماع ظاهره سماع وباطنه انصراف ، وبين سماع ظاهره طاعة وباطنه محبة لهذه الطاعة . ونعلم أن استقبال المسموع شيء ، وانفعال الإنسان بالمسموع شيء آخر .

وعندما يتحد حسن الاستماع مع انفعال الحب لتنفيذ ما سمعه الإنسان فهذا ما يطلبه الإيمان . والمؤمنون هم الذين يسمعون لكلمات الله بانفعال الحب ، وهم يختلفون عن هؤلاء الذين يسمعون الكلام من أذن ويخرجونه من الأذن الأخرى ، ويتكون الكلمات بلا تطبيق ، ولا يبقى في النفس الواعية من آثار الكلام شيء .

وهكذا نرى أن الله قد صنع وخلق في الإنسان من الحواس ما تهدبه وترشده إلى الإيمان أو إلى الكفر؛ فالأذن عند المؤمن تسمع ، والقلب يصدق ، والعقل يحص ويؤمن . أما الكافر فأذنه تسمع وقلبه يعارض ، وعقله يبحث في أسباب الكفر رغبة فيه وسعيًا إليه ، ولذلك لا تؤدي حواسه مهامها بانسجام ، وكأن الذين يسمعون ولا يستجيبون هم من الموتى . فالأمر - إذن ليس مقصوراً على السمع بل المطلوب أن يكون هناك سماع انفعال بالمسموع وانصياع له ، ولا تظن أن الله يعجز عن أن يجعل الذي لا يسمع سماع طاعة يهتدي ويستقيم ، فلا شيء ولا كائن يتأبى على الله؛ لأنه سبحانه يحيي الموتى .

وما دام هو سبحانه يحيي الموتى فهو لا يتطلب إيماناً جبرياً . إنما يطلب إيمان الاختيار والاقتناع ، وهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وسبحانه يطلب قلوباً لا قوالب . إذن فالذين يستجيبون لداعي الإيمان هم الأحياء حقاً ، أما الذين لا يستجيبون فهم في حكم الأموات ، وهم من بعد موتهم وانتهاء حياتهم سيبعثهم الله ليسألهم عن أفعالهم في الحياة الدنيا . وعندما يرجعون إلى الله سوف يجدون الحساب . ونعلم أن المرجع أخيراً ودائماً إلى الله . ومن يرجع إلى الله وعمله طيب يتعجل الجزاء الطيب ويتشوق ويتشوف إليه ، أما من يرجعه الله قهراً فهو يخشى الجزاء الأليم .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ . . . } .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(37)

إن الله سبحانه يوضح مواصلتهم للجدل ، وطلبهم لآية ما . والآية هي الأمر العجيب الذي يعثه الله على يد نبي ليثبت صدقه في تبليغه عن الله . وكأنهم لا يريدون أن يعترفوا أن القرآن آيات بينات على الرغم من اعترافهم بعظمة القرآن ، فقد قالوا : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

ولكنهم لم يعترفوا بالقرآن كآية معجزة؛ لأنهم عرفوا أن الرسل السابقين قد نزل كل منهم بآية معجزة منفصلة عن المنهج الذي جاء به ، فموسى عليه السلام معجزته العصا ، ويده التي أخرجها من جيبه فكانت بيضاء من غير سوء ، وشق البحر ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام كانت معجزته التكلم في المهد بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وجاء الإنجيل مكماً بالروحانيات تلك الماديات التي ملأت نفس اليهود . وبعد أن قالوا عن رسول الله إنه يفترى الكذب تحداهم الحق أن يأتوا بمثل القرآن ثم نزل بهم إلى أن يأتوا بعشر سور من مثله ثم إلى أن يأتوا بسورة واحدة من أقصر سوره . إذن ، فالافتراء وارد عليكم أيضا ، فكما أن محمداً افترى فيمكن أن تفتروا أنتم كذلك فيما نبغتم وتفوقتم فيه من أساليب البلاغة .

إن القرآن قد تحداهم وما دام قد تحداهم فإنه معجزة؛ لأن الأصل في المعجزة التحدي ، ويتحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فلا يستطيعون ، إنه يتحداهم في أمر اللغة ، وهم سادة اللغة وهم النابغون فيها .

جاء القرآن ليتحداهم في مجال نبوغهم ، ولكنّ بعضاً من العرب طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كونية يرونها . وأعماهم الحمق عن معرفة أن المعرفة الحسية موقوتة التأثير ، من يراها يقول إنها معجزة ، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب . ونحن - المسلمين - لا نصدق المعجزات الحسية إلا أن القرآن أوردتها؛ ولأن القرآن قد جاء للناس كافة؛ لذلك لم يكن من المعقول أن يكون المنهج الخاتم منفصلاً عن معجزة النبي الذي جاء به .

جاء القرآن - إذن - معجزة لرسول الله وهو آية معنوية دائمة أبداً بما فيه من أحكام ونظم ، وآيات كونية وقضايا علمية ، وإذا كان الخلق يختلفون في اللغات فما تضمنه القرآن من معجزات لن تنقضي عجائبه إلى يوم القيامة . وكل يوم نستنبط من آيات الله معجزات جديدة تُخرس كل مكذب ، لأنها معجزات كونية ، ومن العجيب أن بعض الذين يستنبطونها ليسوا من المسلمين ، ولا هم من المؤمنين بالقرآن .

ولكنّ بعضاً من المشركين لم يكتف بالقرآن على أنه آية ومعجزة دالة على صدق الرسول ، وطالبوا بمعجزة حسية . فهل كان ذلك الطلب للآية حقيقياً يرجون من ورائه معرفة الحق والإيمان له أو كان مجرد سبب يخنفون وراءه حتى لا يؤمنوا؟ إن كان طلب الآية هو أمراً نابغاً من قلوبهم فإننا نأخذ بأيديهم ونرشدهم ونهديهم ونقول لهم : إن الرسل التي جاءت بمعجزات غير كتاب المنهج كانوا رسلاً إلى أمم مخصوصة وفي زمان محدود ، فجاءت معهم آيات كونية تُرى مرة واحدة وتنتهي ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لعموم الزمان ، ولعموم المكان ، ولذلك لا تصلح أن تكون آيته ومعجزته حسية؛ حتى لا تنحصر في الزمان والمكان المحددين ، وشاء الحق أن تكون معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المنهج الدائم .

وكنز القرآن أظهر وكشف من من الآيات الكونية ما تحقق من علم ورآه البشر ، وما سيظل يكتشفه البشر إلى أن تقوم الساعة . ولذلك قال الحق : { سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت : 53] .

أي أن البشر سيريهم الله وسيكتشف لهم من آياته حتى يظهر ويستبين لهم وجه الحق ، وإن كنتم تقترحون آية مجرد التمحك والتلكؤ في إعلان الإيمان ، فلتعلموا أن أقواماً غيركم اقترحت الآيات وأنزل الحق هذه الآيات ومع ذلك كفروا : { وَمَا مَنَعْنَا أَنْ نُزِيلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولَىٰ } [الإسراء : 59] .

متلما طلب قوم صالح الناقة ، فجاءهم بالناقة ، فكذبوا بتلك الآية وعقروا الناقة : { فَدَمَدَمَ

عَلَيْهِمْ رَحْمَةٌ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا { . إذن فمسألة طلب الآيات قد سبقت في أمم سابقة ، وسبحانه قادر على إنزال الآيات ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون . وسيقولون مثلما قال الذين تكلم فيهم الحق سبحانه : { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ } [الإسراء : 59] .

ولقد أنزل الحق سبحانه القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه آيات كثيرة عظمت وجلت عن أن تحصى وتحصى ، ولو أنهم اقترحوا آية وحققها الله لهم ولم يؤمنوا لكان حقاً على الله أن يبيدهم جميعاً . ولقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعداً بالآيات يهلكهم وهو صلى الله عليه وسلم فيهم : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } . إذن فعدم استجابة الله لإنزال آية لهم هو نوع من الحرص عليهم ، ذلك أن منهم من سيؤمن ، ومنهم من سيكون من نسله مؤمنون يحملون المنهج ويقومون به إلى أن تقوم الساعة لأهم أتباع وحملة الرسالة الخاتمة .

وبعد ذلك يأتي الحق بالبيان الارتقائي : { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ . . . }

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

إنه سبحانه يوضح لنا : أنا أعطي الآيات التي أعلم أن الفطرة السليمة تستقبلها كآية وتؤمن بها . وأنزلت لكم القرآن لتؤمنوا بالرسول الذي يحمله منهجا يصلح حياتكم . وقد جعلتكم سادة للكون؛ تخدمكم كل الكائنات ، لأنكم بنو آدم . وكان الأجدد بكم أن تنتهبوا إلى أن الحيوان في خدمتكم ، والنبات في خدمة الحيوان وخدمة الإنسان ، وكل كائنات الوجود تصب جهدها المسخر لخدمتكم . فإذا كنت قد جئت للأجناس كلها وجعلتها دونكم وأعطيتها ما يصلحها وقيمتها ووضع لها نظاماً ، وأعطيتها من الغرائز ما يكفي لصلاح أمرها حتى تؤدي مهمتها معكم على صورة تريحكم فإذا كان هذا هو شأننا وعملنا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم؟ إنني أنزلت المنهج الذي يصلح حياة من استخلفته سيداً في الأرض . { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } [الأنعام : 38] .

وكل الدواب دون الإنسان أعطاها الإله الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة . وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل ، ولكن الإنسان يستخدم عقله مرة استخداماً سليماً صحيحاً فيصل إلى الإيمان ، ويستخدمه مرة استخداماً سيئاً فيضل عن الإيمان . وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات؛ فقايل تعلم من الغراب كيف يوارى سواة أخيه . ومصمم الطائرات تعلم صناعة الطيران من دراسة الطيور . إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن

له خالقاً جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت . والمثال ما قالته نملة لبقية النمل : { حتى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ مَلَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ } [النمل : 18] .
إن النمل أمة لها حرس ، قالت حارسة منهم هذا القول تحذيراً لبقية النمل .
والله سبحانه يقول : { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التي خلقها الله في الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم . وأعلمنا الله أنه علم سيدنا سليمان لغات كل الأقوام وكل الأمم المخلوقة لله ، ولذلك عندما سمع سيدنا سليمان ما قالته النملة : تبسم { ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا } .
وهكذا علمنا أن الله قد أعطى إذن سليمان عليه السلام ما جعلها تمتلك حاسية التقاط الذبذبة الصادرة من صوت النملة وتفهم ما تعطيه وتؤديه تلك الذبذبة ، لذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها؛ لأن الله علمه منطلق تلك الكائنات . ولو علمنا الله منطلق هذه الكائنات لفقهننا تسبيحهم لله ، ونحن لا نفقه تسبيحهم لأننا لم نتعلم لغتهم . ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - قد يسافر إنسان عربي إلى بلاد تتحدث الإنجليزية وهو يجهل تلك اللغة ، فلا يفهم مما يقال شيئاً .

إذن لو علمك الله منطلق الطير ، ومنطلق الجماد ، ومنطلق النبات؛ لعلمت لغاتهم .
ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ } [الأنبياء : 79] .
إن الجماد - الجبال - تسبح مع داود . وكذلك الطير؛ فيها هوذا الهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وحز في نفسه أنه رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله : { وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } [النمل : 24] .
إذن فالهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وعرف أن السجود إنما يكون لله سبحانه وتعالى : { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [النمل : 25] .
إذن كل الكائنات هي أمم أمثالنا . وقد يقول قائل : ولكن هناك كائنات ليست في السماء ولا في الأرض ، مثل الأسماك التي في البحار؟ ونقول : إن الماء ثلاثة أرباع الأرض والسماك يسبح في جزء من الماء الذي هو جزء من الأرض . فهو يسبح في جزء من الأرض ، فسبحانه الذي خلق الدواب في الأرض ، وخلق الطيور ، وخلق الأدمى من هذه الأمم وهداها إلى مصلحتها ومصدر حياتها : { الَّذِي خَلَقَ فِسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى } .

ونرى العلماء يحاولون الآن اكتشاف لغة الأسماك ، واكتشاف كل أسرار مملكة النحل ونظامها ، وكيف تصير أعشاش النمل مخازن في الصيف لقوت الشتاء . ودرسوا سلوك النمل مع حبة

القمح ، وكيف تخلع النملة خلايا الإنبات من بذرة القمح ، لأن خلايا الإنبات إن دخلت مع حبة القمح إلى مخزن غذاء النمل قد تنبت وتدمر جحر النمل . وهكذا نرى صدق الحق الأعلى . { الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 2-3] .

وقرون الاستشعار في النملة تثير العلماء؛ لأن النملة الواحدة ترى على سبيل المثال قطعة السكر ، فلا تقربها ولكنها تذهب لاستدعاء جيش من النمل قادر على تحريك قطعة السكر ، ووجد العلماء أن وزن الشيء الذي يتغذى به النمل إن زاد على قدرة نملة ، فهي تستدعي أعداداً من النمل ليؤدوا المهمة .

وتساءل العلماء : من أين للنمل إذن هذه القدرة على تحديد الكتلة والحجم والوزن؟ إن تحديد العدد الذي يحمل حجماً محدداً يثير الغرابة والعجب ، فكيف يمكن أن نتصور أن النمل يفرق بين شيئين يتحد حجمهما ويختلف وزنهما ككتلة من حديد وأخرى تماثلها في الحجم من الأسفنج؟ إن النمل يستدعي لكتلة الحديد أضعاف ما يستدعيه حمل كتلة الأسفنج مع اتحادهما في الحجم؛ إنها من قدرة الحق الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى .

ثم إنك تلتفت إلى الحيوان فتجد الذكر والأنثى ، وتجد أن الجمال كله في ذكور الحيوان ، بينما لا يكون الأمر كذلك في إناث الحيوان ، والكثرة الغالبة هي من الإناث والقلة من الذكور ، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا في موسم معين ، وإلى أن يأتي موسم التلقيح تنصرف الأنثى إلى إعداد العش وتهينته لما عساه أن يوجد من نتاج ، وهذه العملية لحكمة عالية ربما تكون لبقاء نوع الحيوان حتى يعين الإنسان في إعمار الأرض .

وفي عالم الطير نجد الطيور تبني العش بفن جميل لاستقبال الفرخ الذي خرج من البيض وتفرش له العش بأنعم الأشياء ، إنها تفعل ذلك بإتقان جيد وبصورة ربما يعجز البشر أن يعمل مثلها . ثم نجد في دنيا الحيوان والطير أن الكائن ما إن يبلغ القدرة على الاعتماد على نفسه فلا تعرف الأم ابنها من ابن غيرها . إذن فكل المخلوقات أمم أمثالنا أرزاقاً وآجالاً ، وأعمالاً ، فصدق الله إذ يقول : { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } .

وقد يكون المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، ولكننا نقول : إنه القرآن ، وكل شيء موجود ومذكور أو مطمور في القرآن الكريم . وذكر القرآن أن هذه الأمم تعرف التوحيد ، وأنهم يسبحون لله . والعمل المعاصر يكتشف في كل دقيقة حقائق هذا الكون المنظم . ونجد العقل يهدينا إلى أن نوجد أشياء لصالح حياتنا ، ولكن عندما نتبع الهوى فإننا نفسد هذا الكون . إن الله - سبحانه - جعل للخادم من دواب الأرض نطاقاً للعمل والرزق والأجل بحكم الغريزة ، وكذلك جعل للطير ، ولكل الكائنات :

ويقول الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته الكريمة : { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ

يُحْشَرُونَ } [الأنعام : 38] .

إذن كل شيء يحشر يوم القيامة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

أي أن الحق سبحانه يقتص من الشاة ذات القرون التي نطحت الشاة التي بلا قرون ويعوضها عن الألم الذي أصابها . وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإنس والجن حقه يصير إلى تراب . أما الذين يسمعون ولا يستجيبون فهم المكذبون بالآيات ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : { والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا . . . } .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشِئِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

والصمم آفة تصيب الأذن فلا تسمع . والبكم آفة تصيب اللسان فلا ينطق . والبكم مرتبط بالصمم؛ لأن الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع؛ لأن اللغة بنت المحاكاة؛ فالإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع .

إن البشر ينشأون في بيئات مختلفة اللغة ولا يتكلمون إلا باللغة التي نشأوا في بيئتها؛ لأن اللغة ليست دماً ولا جنساً . بل اللغة سماع . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ولا يقرأ الإنسان إلا إذا سمع وعرف ارتباط ما يسمع بما يرى؛ لذلك نعرف أن السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، ولهذا كان الصمم قبل البكم .

ولكن هل الإدراك مرتبط بالصمم والبكم فقط؟ لا ، إن الإنسان يسمع أولاً ، ثم يرى ، ثم يتذوق ، ثم يشم ، ثم يلمس ، ثم تأتي له المعلومات العقلية . والمثال على ذلك أن كل إنسان يعرف أن النار محرقة ، وهو لم يعرف هذا إلا لأنه وجدها قد لمست كائناً وأحرقته . ومثال آخر : يتفق الناس على أن صوت العندليب جميل ، وهذا الاتفاق جاء من سماع الناس لصوت العندليب . إذن فالمعلومات العقلية تأتي نتيجة للمعلومات الحسية .

{ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ } إنهم بلا قدرة أيضاً على إِبْصَارِ الهداية من أي ناحية؛ صم لا يسمعون لكلمة الحق ، وبكم لا ينطقون ، وفي ظلمات لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان . وكل ذلك مردود إلى المشيئة : { مَنْ يَشِئِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } لكن هل اقتحمت المشيئة على الناس وقهرتهم؟ لا؛ لأن الحق قال : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } [غافر : 28] .

وقال سبحانه أيضاً : { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } إذن ، فبتقديمهم الظلم ، والفسق ، والكفر ، وقد فعلوا ذلك اختياراً فصار المرض واستقر في قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، وهو

سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك به ، فمن أشرك مع الله شيئاً فهو له . ويأتي من بعد ذلك أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ . . . } .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40)

و « أَرَأَيْتُمْ » مكونة من استفهام وفعل ، ومن ضمير وهو لفظ التاء المفتوح للمخاطب كقولك : « أَرَأَيْتَ فلاناً » وكأنك تقول له : « إن كنت قد رأيته فأخبرني عنه » ، وعندما تقول للمخاطب ذلك فأنت تستفهم منه عن شيء رآه وأبصره وبعد ذلك تأتي بكاف الخطاب ، فكأنك تقول له : أخبرني عنك ، فيكون المعنى أخبروني عن أنفسكم ، وهكذا تكون : « أَرَأَيْتُمْ » معناها : أخبروني عن حالكم إخبار من يرى . فالأمر إذن لرسول الله ليسأل المشركين أن يجربوه ماذا يفعلون عندما يصيبهم الضرر أو أي شيء فوق الأسباب ، هل هم يدعون اللات والعزى؟

لا ، إنهم لا يستطيعون وقت الخطر الداهم أن يكذبوا على أنفسهم ، إنما ينادون الله الذي لا يعلنون الإيمان به . ولو كانوا صادقين مع كفرهم لما نادوا الله ، بل كان يجب أن ينادوا آلهتهم؛ لكنهم في لحظة الخطر يقولون : « يارب » كأنهم يعرفون أنه لا منقذ لهم إلا هو سبحانه . وهكذا ينكشف أمامهم كذب كفرهم وشركهم بالله . ولا أحد يغش نفسه ، حتى الدجال الذي يدعي ممارسته شفاء الناس ، إن أصابه مرض نجده يلجأ إلى طبيب متخصص متعلم . فلا أحد يغش نفسه ، وساعة يمس الخطر ذات الإنسان نجد الحقيقة تنبع من الإنسان نفسه . ويسألهم النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يدعونه لحظة الخطر؟ إنهم يدعون الله . وكأنهم لا يتقون في آلهتهم . { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا } [يونس : 12] . لكن ماذا يحدث عندما يعود للقلب غلظته؟ { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى صُرِّ مَسَّهُ } [يونس : 12] .

لماذا إذن يطلب من الله النجدة وقت الخطر ، ولا يتبع التكليف؟ يأتي الأمر إلى الرسول ليسألهم من تدعون لحظة الخطر؟ ويأتي الجواب أيضاً من الحق سبحانه وتعالى : { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ . . . } .

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41)

إنكم – أيها المشركون – لا تدعون إلا الله أن يكشف عنكم الضر ، فإن رأى أن من الحكمة أن يجيب دعاءكم أجابه . وإن رأى أن من الحكمة ألا يجيب فهو لا يجيب . وهم يدعون الله وينسون

أهنتهم ومن أشركوهم بالعبادة مع الله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ . . . } {

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42)

لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقوامهم ، فأخذهم الله بالشدائد والأحداث التي تضر إما في النفس ، وإما في المال ، بالمرض ، بالفقر ، لعلهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى .

إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أي بالشدائد أو بالضراء ، أي بالشيء الذي يضر ويؤذي ، إنما يريد من الإنسان أن يختبر نفسه ، فإن كان مؤمناً بغير الله فليذهب إلى من آمن به ، ولن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله : وعندما يتضرع إلى الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التضرع ويقول سبحانه : { فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا . . . } {

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43)

إنه - سبحانه - يحثهم ويحضهم على أن يتضرعوا ويتذللوا إلى الله ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولكن قلوبهم القاسية تمنعهم حتى في لحظة المس بالضر أن يلجأوا إلى الله خوفاً من اتباع التكليف . إن قسوة القلب تكون بالصورة التي لا ينفذ إليها الهدى وكما قال الحق : { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [المطففين : 14] .

أي صارت قلوبهم مغلقة ومغطاة بعد أن طبع الله وختم عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، فلا يؤمنون .

ويتابع الحق القول الكريم : { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ . . . } {

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ فَاِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)

إنهم عندما نسوا ما جاءهم من تذكير الحق لهم بالمنهج والتوحيد من خلال الرسل إنه - سبحانه - يصيبهم بالعذاب الذي يفاجئهم به فيقعون في حيرة تأخذ عليهم ألبابهم وتشتت قلوبهم وتقطع رجاءهم .

والرسل إنما تأتي لتذكر؛ لأن الإيمان موجود بالفطرة . ولكن الغفلة هي التي تخفي الإيمان . والإنسان يحيا في كون مليء بالنعم ولا دخل لأحد بها ، ولا بد لأحد فيها ، ولم يدعها أحد لنفسه ، كان يجب على هذا الإنسان أن يعيش دائماً في رحاب الحمد لله ، مولى هذه النعمة .

والتذكير من الحق لعباده يكون بالنعم أو الرسل الذين يأتون بالرسالات المتوالية . وهب أن إنساناً قد غفل عن نعمة الله في الطعام ، ثم جاءت لحظة الجوع ، فجلس يشتهي الطعام فمنحه الله ذلك الطعام فكيف ينسى لحظة الشبع من وهب له هذا الطعام .

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ } إما أن يكون هو الإخبار بواسطة الرسل الذين يذكرون الناس بأن المنعم هو الله ، وأن الله أنزل المنهج ليصلح الكون به ، وإما أن يكون بواسطة النعم التي تمر على الإنسان في كل لحظة من اللحظات؛ لأنها تنبه الإنسان إلى أن هناك من أعطاها . مثال ذلك ساعة يستر الإنسان عورته وجسده بلباس جميل ، ألا يتساءل عن الذي وهب الصانع تلك الموهبة التي صمم بها الزي . إذن كيف يأخذ الإنسان النعمة ولا يتذكر المنعم؟ إن الله سبحانه لا يجرمهم من النعم ساعة أن تركوا شكرها ، بل يفتح عليهم أبواب كل شيء ، أي يعطيهم من النعم أكثر وأكثر ، فيترفون ويعيشون في ألوان من حياة العز والصحة والسعة والجاه والسيطرة والمكانة . ثم ما الذي يحدث؟ { أَخَذْنَاَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } .

وقلنا من قبل هذا المثل الريفي : لا يقع أحد من فوق الحصير . ولكن الحق يعلي الكافر المشرك في بعض الأحيان ثم يأخذه بغتة فيقع ليكون الألم عظيماً . فإن رأيت إنساناً أسرف على نفسه ووسع الحق عليه في نظام الحياة . إياك أن تفتن وتقول : آه إن الكافر الظالم يركب أفخر السيارات ويعيش في أبعى القصور ، لا تقل ذلك لأنك سترى نهاية هذا الظالم البشعة . وانظر إلى دقة التعبير في قول الحق تبارك وتعالى : { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } لقد فتح عليهم . . أي سلط عليهم ، لا فتح لهم ، ويقول الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن الكريم : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا } .

وهكذا نعرف أن الفتح لك غير الفتح عليك؛ لأن الفتح على أحد يعني الاستدراج إلى إذلال قسري سوف يحدث له . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [الأنعام : 44] . إن القبض يأتي لحظة الفرح .

وكثيراً ما نرى مثل هذه الأحداث في الحياة ، نلنفت إلى كارثة تحدث للعريس أو العروس في يوم الزفاف . ويصدق قول الشاعر :

مشت الحادثات في غرف الحمراء ... مشي النعي في دار عرس

وهذا يشرح القول الكريم : { حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً } [الأنعام : 44] . وعندما ندقق في كلمة : { بِمَا أُوتُوا } فإننا نجد أن ما حصلوا عليه من نعمة إنما جاءهم كتمهيد إلهي ييسر هذه المسائل ، ثم يأخذهم الحق بغتة ، أي أن الحادث الضار يأتي بدون مقدمات؛ لأن مجيء المقدمات قد يجعل الإنسان يتيقظ ويحتمل أو يتوقع ذلك . ونعرف أن الحق يقول في موقع

آخر من القرآن الكريم : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ } [الأنعام : 47] .
 أي أن العذاب قد يأتي مرة بغتة ، وقد يأتي مرة أخرى جهراً . والعذاب يأتي بغتة عقاباً ، ويأتي
 جهرة حتى لا يقولن أحد : لولا أنّ مجيء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلك الأمر . ويأتيهم
 العذاب وهم مبلسون أي يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم .
 ويتابع الحق ما يحدث هؤلاء : { فَقَطِّعْ دَائِرِ الْقَوْمِ . . . } .

فَقَطِّعْ دَائِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)

وما دام هؤلاء القوم قد نسوا ما ذكروا به ، وفتح الله عليهم أبواب كل شيء ثم فرحوا بما أوتوا
 وأخذهم الحق بغتة ، كل ذلك يلفتنا إلى أنه يجب علينا أن نحمد الله لأن يربي الخلق بالنعمة
 والنعمة ويطهر الكون من المفسدين ، وقطع دابر المفسدين مصيبة هؤلاء المفسدين ، ونعمة من
 نعم الله على المؤمنين . وقد يتساءل البعض : كيف يأتي القرآن بالنعم وكأنها نعم؟
 ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : { يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار
 السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
 شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 33-36] .
 إنّها نعم يتحدث عنها الحق كإرسال الشواظ من نار ونحاس ، وهي نقم بالنسبة للكافرين وعليهم
 ، وهي نعم للمؤمنين . ونعلم أن التهويل في أمر العذاب يجعل الناس ترتدع ، وهذا الوعيد نعمة
 من الله . وحين يتجلى الحق بنعمه على خلقه ويقطع دابر الظالمين ، يقول المؤمنون الحمد لله : {
 فَقَطِّعْ دَائِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام : 45] .
 ويعود الحق إلى استنطاقهم بالإخبار عن المرئيات : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ . . . } .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ
 نَصَّرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)

هنا يأمر الحق نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنطقهم : ماذا يفعلون إن سلب الله السمع وغطى
 قلوبهم بما يجعلها لا تدرك شيئاً ، وسلب منهم نعمة البصر ، هل هناك إله آخر يستطيع أن يرد
 لهم ما سلبه الحق سبحانه منهم؟ لقد أخذوا نعمة الله واستعملوها لمخادّة الله وعداوته ، أخذوا
 السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، وأخذوا الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله .
 ومنحو القلوب ولكنهم أغلقوها في وجه قضايا الخير . فماذا يفعلون إن أخذ الله منهم هذه
 النعم؟ هل هناك إله آخر يلجأون إليه ليستردوا ما أخذه الله منهم؟
 وترى في الحياة أن الحق قد حرم بعضاً من خلقه من نعم آدمها على خلق آخرين . إن في ذلك

وسيلة إيضاح في الكون . وإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين سلب إنساناً نعمة ، أنه يكره هذا الإنسان ، إنه سبحانه أراد أن يذكر الناس بأن هناك منعماً أعلى يجب أن يؤمنوا به . فإن أخذ الحق هذه النعم من أي كافر فماذا سيفعل؟ إنه لن يستطيع شيئاً مع فعل الله .
وها هوذا النبي يوضح لهم بالبراهين الواضحة ، ولكنهم مع ذلك يُعرضون عن التدبر والتفكير والإيمان { ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ }

والمؤمن حين يرى إنساناً من أصحاب العاهات فهو يشكر الله على نعمه ، إن الحق - سبحانه - بواسع رحمته يعطي صاحب العاهة تفوقاً في مجال آخر . ولنذكر قول الشاعر :

عميت جبيناً والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم موثلاً

وغاض ضياء العين للقلب رافداً ... لعلم إذا ما ضيع الناس حصلاً

إننا قد نرى أعمى يقود ببصيرته المبصرين إلى الهداية . ونرى أصم كبيتوفن - على سبيل المثال - قد فتن الناس بموسيقاه وهو أصم . وهكذا نجد من أصيب بعاهة فإن الله يعوضه بجود وفضل منه في نواح ومجالات أخرى من حياته . ولا يوجد إله آخر يمكن أن يعوض كافراً ابتلاه الله؛ لأن الله هو الواحد الأحد . { انظر كيف نُصَرِّفُ الآيات ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } ، أي انظر يا محمد وتعجب كيف نبين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب ما بين حجج عقلية وتوجيه إلى آيات كونية وترغيب وتنبيه وتذكير ومع ذلك فإن هؤلاء الكافرين لا يتفكرون ولا يتدبرون ، بل إنهم يعرضون ويتولون عن الحق بعد بيانه وظهوره .

ويقول الحق من بعد ذلك : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ . . . }

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (47)

ونلاحظ أن « تاء الضمير » في هذه الآية قد فتحت ، بينما الآية السابقة لها جاءت فيها « تاء الضمير » مضمومة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظر كيف نُصَرِّفُ الآيات ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } [الأنعام : 46] .

ونلاحظ أيضاً أن الآية التي نحن بصددنا الآن تأتي فيها كاف الخطاب : « أرايتكم » بينما الآية السابقة لها لا تحمل كاف الخطاب « أرايتم » ونعرف أن كل لفظة من هذه الألفاظ قد جاءت لتؤدي معنى لا يؤدي غيرها ، وإن تشابهت الأساليب ، فقوله (أرايتكم) يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ويشمل أيضاً كاف الخطاب والجمع بين علامتي الخطاب (التاء) و (الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد . إنه تنبيه إلى أن هلاكهم سيكون هلاك استئصال وإبادة ، ومرة يقول الحق : « أرايتم » أي أخبروني أنتم وأعلموني إعلاماً يؤكد لي صدق القضية ، ويأتي الاستفهام هنا من مادة « أرى » و « رأى » .

إن السبب في ذلك أنك حين تستفهم عن شيء إما أن يكون المستفهم منه قد حضر حدوث الشيء ، وإما أن يكون المستفهم منه لم يحضر حدوث الشيء . فإن كان قد حضر حدوث الشيء فإنك تقول له : أرايت ما حدث لفلان و فلان؟ فيقول لك : نعم رأيت كذا وكذا وكذا . وإن كان المستفهم منه لم يعلم بالأمر ولم يره فهو يجيب بالنفي ، وهذا ما يحدث بين البشر ، لكن حين يكون الاستفهام من الله ، ويكون الحادث المستفهم عنه قد حدث من قبل وجود المستفهم منه ، فالإيمان يقتضي أن يجيب المستفهم منه عن هذا الحادث ب « نعم » .
ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } [الفيل : 1] .

وهذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عنا حدث لأصحاب الفيل في عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الحدث موضع رؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله ورسوله باستفهام عن حادث لم يره؟ ونقول : إن الحق بهذا الاستفهام يوضح لرسوله : اسمع مني ، وسماعك مني فوق رؤية عينيك للحدث ، فإذا ما قلت لك : « ألم تر » فمعناها : اعلم علماً يقينياً ، وهذا العلم اليقيني يجب أن تثق في صدقه كأنك رأيت رؤية العين وفوق ذلك أيضاً فإن عينك قد تخدعك أو تكذب عليك ، ولكن حين يجربك ربك لا يخدعك ولا يكذب عليك أبداً .
إذن فالحق يريد أن يخرج هذه الأساليب مخرج اليقين .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - فحين يحاول إنسان قد أحسنت إليه كثيراً أن يجحد إحسانك ، فأنت لا تقول له : أنا أحسنت إليك ، ولكنك تقول له : أرايت ما فعلته معك يوم كذا ، ويوم كذا؟ وهنا يبدو كلامك كاستفهام منك ، لأنك واثق أنه حين يدير رأسه في الجواب فلم يجد إلا ما يؤيد منطقك من وقوفك إلى جانبه ، وإحسانك إليه ، ولن يجد إلا أن يقول لك : نعم رأيت أنك وقفت بجاني في كل المواقف التي تذكرها . وفي مثل هذا القول إلزام لا من موقع المتكلم ، ولكن من واقع المخاطب .

وبعد أن تكلم الحق عن تعنت الكافرين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم اكتفائهم بالآيات التي أنزلها الله مؤيدة لصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم تماد بهم في اقتراح آيات من عندهم ، وقد اقترحوها في شيء من الصفاقة والسماجة ، فقالوا : { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا } [الإسراء : 90-93] .

وكلها أسئلة مليئة بالتعنت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي اختار القرآن معجزةً ومنهجاً لرسوله صلى الله عليه وسلم . ويعلم سبحانه صدق رسوله في البلاغ عنه ، لكل ذلك يبين الحق لرسوله أن يبلغ هؤلاء الكافرين أنه سبحانه وتعالى لن يعود عليه أي نفع أو ضرر نتيجة إيمانهم به سبحانه ، لكن النفع بالإيمان يكون للعباد ويعود خيره إليهم؛ لأنه سبحانه وتعالى له صفات الكمال كلها قبل أن يخلق الخلق . إنها له أزلا وأبداً .

فصفات الكمال – علماً وقدرة؛ وحكمة؛ وإرادة – خلق الخلق جميعاً . فإياكم أيها الناس أن تفهموا أن إيمانكم بالله يزيد من صفات الجلال أو الجمال ، وإنما الإيمان عائد إليكم أنتم ، فإذا كان منكم متكبرون ومتعنتون ، فالحق سبحانه لا يترك من تكبر وتعنت ليقف أمام منهجه الذي يحكم حركة الحياة في الأرض ، ولكنه سبحانه يأخذ أهل التكبر والتعنت أخذ عزيز مقتدر . واستقروا أيها الناس ما حدث لمن كذبوا رسل الله ، وماذا صنع الله بهم؟ إنه بقدرته سبحانه وتعالى يستطيع أن يصنع معكم ما صنعه معهم . وإذا ما استقرأتم قصص الرسل مع المكذبين لله وجدتم العذاب قد جاء للقوم بغتة ، فهذا هو الحق يقول عن قوم عاد : { فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ } .

[فصلت : 15-16] .

لقد تكبر قوم عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوي الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم؟ فاجأهم الحق بإرسال ريح ذات صوت شديد في أيام كلها شؤم ليديقهم عذاب الهوان والخزي والذل في هذه الدنيا ، ويقسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خزيًا؛ لأنهم في هذا اليوم لا يجدون ناصرًا لهم لأنهم كفروا بالذي ينصف وينصر وهو الحق جلت قدرته .

وماذا عن قوم ثمود؟ لقد بين لهم الحق طريق الهداية . لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذبوا نبي الله صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ، فنزلت عليهم الصاعقة لتحرقهم بمهانة بسبب ما فعلوا من تكذيب لرسولهم . { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ الْعَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [فصلت : 17] .

وماذا فعل الحق بأصحاب الفيل؟ لقد جاء قوم أبرهة لهدم الكعبة ، فاستقبلتهم الطير الأبايل . أي التي جاءت في جماعات كثيرة متتابعة بعضها في إثر بعض بحجارة من طين متحجر محرق قد كتب وسجل عليهم أن يعذبوا به : { أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 2-5] .

وكل حدث من تلك الأحداث أجراه الله بغتة . ومعنى البغته أن يفاجئ الخطبُ القومَ بدون مقدمات علم به . وهناك أيضاً من الأحداث الجسم أنزلها الله بالكافرين جهرة ، فهاهم أولاء قوم فرعون يغرقهم الله علناً . وكذلك قارون أهلكه الله جهرة : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعِصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ } [القصص : 76-81] .

لقد أخذ قارون نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، وصار مفتوناً بما امتلك ، وغرق في الغرور ، فماداً فعل الله به؟ خسف الله به جهرة وأمام أعين الذين تمنوا مكانه .

إذن فمن الممكن ان يأتي عذاب الله بغتة للكافرين به أو يأتيهم بالعذاب جهرة . وما السبب في التلويح بين « بغتة » و « جهرة »؟ البغته تثبت لمن يعبد غير الله أنه مخدوع في عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قبل هذه الإله أن يعذب أتباعه من حيث لا يشعر . إذن فالبغته تثبت عجز المعبودين من أصنام وغيرها ، فقد عجزت تلك الأصنام أن تحتاط للعابدين لها . وقد يقول قائل منهم : لقد جاءنا العذاب فجأة ، لكن لو جاء لنا مواجهة لكنا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه .

فيأتي الله أيضاً بالعذاب جهرة فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حججهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت في قلوب هؤلاء المعاندين القدرة على إِبصار ضرورة الإيمان . ويعامل سبحانه خصوم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - مثل هذه المعاملة ، فعندما عانده القوم جاءهم الله سبحانه بأمور معجزة لعلهم يتفكرون .

فهاهم أولاء قد اتفقوا على قتلته قبل الهجرة ، ويقفون على باب بيته ، ويخرجه الحق من بينهم وهم لا يبصرون ، ولا يفلحون في التآمر على رسول الله ، ولا ينجح لهم تبييت ضد رسول الله ، ويكون مكر الله فوق كل مكر يريد به أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم إيذائه به . وهم قد ذهبوا إلى الجن ليسحروا له ، لكن لا هذا السحر قد نفع ، ولا ذاك التبييت أتى بنتيجة .

وكانت تكريمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل شيء ويقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ } [الأنعام : 47] .

ويكون تذييل الآية - أيضاً - على هيئة استفهام ، والاستفهام هنا - كما علمنا من قبل - إنما جاء ليؤكد المعنى ، وليكون الإقرار من أفواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم ، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار ، والإقرار - كما نعلم - هو سيد الأدلة .

وهب أن صاعقة نزلت أو خسفاً حدث فيه عذاب ، فكيف ينجي الله المؤمنين به من هذا العذاب أو ذلك الخسف؟

إن الهلاك فقط يكون للقوم الظالمين؛ لأن الهلاك هو إعدام الحياة للحي المتمتع بالحياة ، والذي لا يؤمن إلا بهذه الدنيا إذا جاءته مصيبة لتهلكه فهو يشعر بمرارة الخسران؛ لأنه لا يعتقد ولا يؤمن بالحياة الأخرى ، لكن المؤمن الذي يتيقن أن له الهاً وأنه سيعود إليه ليحاسبه ويجزيه عن إيمانه خير الجزاء إن حدثت له محنة في طي محنة كبرى للكافرين فهو يذهب إلى الجنة ويكون ذلك منحة له لا محنة عليه لتستمر حياته إلى خلود .

وهكذا نجد أن الهلاك إنما يحدث للقوم الظالمين فقط لأنه يُفقدهم كل ما كانوا يتمتعون به في دنياهم وليس لهم في الآخرة إلا البوار والخسران والعذاب الدائم ، أما غير الظالمين فالحق سبحانه وتعالى ينقلهم إلى حياة خالدة هي خير من هذه الحياة ، إذن فالمؤمنون إنما يتلقون فيوضات الله عليهم في النعماء وفي البلاء أيضاً .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى في الآية التالية عن التصور الإيماني الذي يجب أن يرسخ في أذهان المؤمنين برسول مبلغ عن الله ، وعندما يسمع العقل الطبيعي الفطري البلاغ عن الرسول فهو يصدقه فوراً؛ لأن الفطرة عندما ترى فساد الكون ، وترى أن هناك من جاء بمنهج لإصلاح الكون لا بد أن تتجه إلى الإيمان بالمبلغ عن الله وهو الرسول . وعندما ترى الفطرة أن الكون كله قد تم إعداده لخدمة الإنسان ، لا بد لها أن تتساءل عن الخالق لهذا الكون وعن المنهج الذي يجب أن تسير عليه لصيانة هذه النعمة ، نعمة الوجود في الكون .

ويقتضي الإحساس السليم من الإنسان أن يتعرف إلى حقيقة واضحة ، وهي أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأن هذا الكون مليء وغني بالخيرات ، ولم يدع أحد أبداً أنه خلق السموات أو الأرض أو الماء أو الهواء . ولا بد أن يدور في خلد صاحب الفطرة السليمة تساؤل عن هذا الخالق الأكرم الذي وهب للإنسان حق الاستخلاف في كل هذا الكون . فإذا ما جاء رسول ليقطع هذا القلق وذلك الصمت ويقول : أنا جئتكم لأخبركم بمن خلقكم ، وبمن خلق السموات ، وبمن خلق الأرض ، وبمن رزقكم هذا الرزق .

هنا تنصت الفطرة إلى سماع الخبر الذي كانت تستشرف له . وإذا ما جاء هذا الرسول مؤيداً بآية من الله ومعجزة لا يقدر عليها البشر ، فالعقل البشري يعترف اعتراف الإقرار على الفور؛ لأنه وجد حاجته عند ذلك الرسول .

ولكن على الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ، وعلى الرسول نفسه ، وحتى على الكافرين به ، عليهم جميعاً ألا يتعدوا الحدود ، وألا يضعوا أي رسول في مكان أعلى من منزلته ، لأنه رسول من الله ، إنه واحد من البشر تفضل الله عليه بالوحي واصطفاه للمهمة التي جاء بها . ولا بد للجميع أن يفهم أن الرسول مبلغ عن الله فقط ، وأنه لا يستطيع أن يأتي بالآيات التي يقترحها بعض من القوم؛ لأن الرسول لا يقترح الآيات ولا يصنعها ، الرسول مقصور على أداء الأمانة الموكلة إليه وهي أمانة البلاغ عن الله . ولذلك يقول لنا الحق : { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ . . . }

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(48)

أي أن الحق سبحانه لم يعط الرسل قدرته ليفعلوا ما شاءوا ، ولكنهم فقط مبلغون عن الله ، فلا يطلبن منهم أحد آيات؛ لأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالآيات ، وكل رسول يعلم أنه من البشر ، وهو يستقبل عن الله فقط ، ولذلك فلنأخذ الرسل على أنهم مبشرون ومنذرون { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } .

ونعرف أن البشارة هي الإخبار بما يسر قبل أن يقع . والسبب في البشارة هو هبة السامع لها لبيادر إلى ما يجعل البشارة واقعاً بأن يمثل إلى المنهج القادم من الإله الخالق . ونعرف أن الإنذار هو الإخبار بما يسوء قبل أن يقع ليحترز السامع أن يقع في المحاذير التي حرمها الله . والبشارة - كما نعلم - تلهب في الراغب في الفعل والمحبة له أن يفعل العمل الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف من يرغب في العمل الشيء ليزدجر ويرتدع . إذن فمهمة الرسل هي البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء؛ لأن الآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى ، ومن سوء الأدب أن تُخطئ الله في الآيات التي أرسلها مع الرسل ونطلب آيات أخرى . إنكم بهذا تستدركون على الله . ويبيّن الحق لنا حدود مهمة الرسل فيقول : { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } [الأنعام : 48] .

هذا هو عمل الرسل ، فماذا عن عمل الذين يستمعون للرسول؟ إن الحق يقول : { فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [الأنعام : 48] . فالمطلوب - إذن - من الذين يستمعون إلى الرسل أن يقبلوا على اختيار الإيمان ، وأن يستمعوا إلى جوهر المنهج وأن يطبقوه . فمن آمن منهم وأصلح فلا خوف عليه لأنه قد ضمن الفوز العظيم ، ولا يصيبه أو يناله حزن ، لأن ناتج عمله كله يلقاه في كتابه يوم القيامة . والإيمان هو اطمئنان القلب إلى قضية عقدية لا تطفو إلى الذهن لتناقش من جديد . ولذلك نسمي الإيمان عقيدة ، أي شيئاً انعقد عقداً لا ينحل أبداً .

إنّ على المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات التي تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً؛ وهذا عمل القلب . ويعرف المؤمن أن عمل القلب لا يكفي كتعبير عن الإيمان؛ لأن الكائن الحي ليس قلباً فقط ، ولكنه قلب وجوارح وأجهزة متعددة ، وكل الكائن الحي المؤمن يجب أن ينقاد إلى منهج ربه ، فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل فيؤديه بجوارحه أداء صحيحاً سليماً .

إنني أقول ذلك حتى يسمع الذي يقول : إن قلبي مؤمن وسليم . لا ، فليست المسألة في الإيمان هكذا ، صحيح أنك آمنت بقلبك ولكن لماذا عطلت كل جوارحك عن أداء مطلوب الإيمان؟ لماذا لا تعطي عقلك فرصة ليتدبر ويفكر ويخطط ويتذكر ، لماذا لا تعطي العين فرصة لتعتبر وتستفيد من معطيات ما ترى؟ وكذلك اليد ، واللسان ، والأذن ، والقدم ، وكل الجوارح .

والإصلاح هو عمل الجوارح ، يفكر الإنسان بعقله في الفكرة التي تنفع الناس ، ويسمع القول فيتبع أحسنه ، ويصلح بيديه كل ما يقوم به من أعمال . ويعلم المؤمن أنه حين أقبل على الكون وجده محكماً غاية الأحكام ، ويرى الإنسان الأشياء التي لا دخل له فيها في هذا الكون وهي على أعلى درجات الصلاحية الراقية ، فالمطر ينزل في مواسمه ، والرياح تهب في مواسمها ومساراتها ، وحركة الشمس تنتظم مع حركة الأرض ، وكل عمل في النواميس العليا هو على الصلاح المطلق .

إن الفساد يأتي مما للإنسان دخل فيه ، فاهواء يفسد من بناء المنازل المتقاربة ، وعدم وجود مساحات من الخضرة الكافية ، ويفسد الهواء أيضاً بالآلات التي تعمل ولها من السموم ما تخرجه وتدفعه من أثر عملية احتراق الوقود . وعندما صنع الإنسان الآلات نظر إلى هواء في الراحة ، وغابت عنه أشياء كان يجب أن يحتاط لها ، ومثال ذلك : « عادم » السيارات الذي يزيد من تلوث البيئة ، ورغم اكتشاف بعض الوسائل التي يمكن أن تمنع هذا التلوث . إلا أن البعض يتراخي في الأخذ بها .

ونحن حين نأخذ بقمة الحضارة ونركب السيارات فلماذا ننسى القاعدة التي تقوم عليها الحضارة وهي الدراسة العلمية الدقيقة لتصنع الآلات ونأخذ من الآلات ما يفيد الناس ، فنعمل على الأخذ بأسباب تنقية البيئة من التلوث ونمنع الأذى عن حياة الناس . فالعادم الذي من صناعتنا - مثل عادم السيارات والآلات - يفسد علينا الهواء فتفسد الرئة في الإنسان .

إن علينا أن نعرف أن من مسئولية الإيمان أن ننظر إلى الشيء الذي نصنعه وكمية الضرر الناتجة عنه ، وكل إنسان يحيا في مدينة مزدحمة إنما يضار بآثار عادم السيارات على الرغم من أنه ليس في مقدور كل إنسان أن يشتري سيارة ليركبها ، فكيف يرتضي راكب السيارة لنفسه ألا يصلح من تلك الآلة التي تسهل له حياته ويصيب بعادمها الضرر لنفسه ولغيره من الناس؟ لذلك فعلى

المسلم ألا يأخذ الحضارة من مظهرها وشكلها بل على المجتمع المسلم أن يعمل على الأخذ بأسباب الحضارة من قواعدها الأصلية ، وأن يدرس كيفية تجنب الأضرار حتى لا تقع في دائرة الأخرسين أعمالاً ، هؤلاء الذين قال فيهم الحق سبحانه : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف : 103 - 104] .

ولنا أن نأخذ المثل الأعلى دائماً من الكون الذي خلقه الله لنصونه ، إن عادم وأثر ونتاج أي شيء مخلوق لله يفيد الإنسان ويفيد الكون حتى فضلات الحيوان يُنتفع بها في تسميد الأرض وزيادة خصوبتها . وهكذا نعرف معنى : { فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

فالإيمان عمل القلب ، والإصلاح عمل الجوارح ، ولذلك يجب أن نصلح في الكون بما يزيد صلاحه . ولنعلم أن الكون لم يكن ناقصاً وأنا بعملمنا نستكمل ما فيه من نقص ، ليس الأمر كذلك ، ولكننا أردنا أن نترف في الحياة ، وما دمنا نريد الترف فلنزد من عمل العقل المخلوق لله في المواد والعناصر التي أماننا وهي المخلوقة لله . وأن نتفاعل معها بالطاقات والجوارح المخلوقة لله ، ما دمنا نريد أن ننتعم نعيماً فوق ضروريات الحياة .

ومثال ذلك أننا قديماً وفي أوائل عهد البشرية بالحياة ، كان الإنسان عندما يعاني من العطش ، يشرب من النهر ، وبعد ذلك وجد الإنسان أنه لا يسعد بالارتواء عندما يمد يده ليأخذ غرفة من ماء النهر ، فصنع إناءً من فخار ليشرّب منه الماء ، ثم صنع إناءً من الصاج ، ثم صنع إناءً من البلور ، فهل هذه الأشياء أثرت في ضرورة الحياة أو هي ترف الحياة؟

إنها من ترف الحياة . فإن أردت أن تترف حياتك فلتعمل عقلك المخلوق لله في العناصر المخلوقة لله ، بالطاقة والجوارح المخلوقة لله ، وبذلك يهيك الله من الخواطر ما تستكشف به آيات العلم في الكون . ومثال ذلك : أن أهل الريف قديماً كانوا يعتمدون على نساتهم ليملأن الجرار من الآبار أو الترع ثم تقوم سيدة البيت بترويق المياه . وعندما ارتقينا قليلاً ، كان هناك من الرجال من يعمل في مهنة السقاية ، ويمر بالقرب المملوءة بالماء على البيوت . وعندما قام أهل العلم بالاستنباط والاعتبار اكتشفوا قانون الاستطراق ، فرفعوا المياه إلى خزانٍ عالٍ ، وامتدت من الخزان « مواسير » وأنابيب مختلفة الأقطار والأحجام ، وصار الماء موجوداً في كل منزل ، هذا ما فعله الناس الذين استخدموا العقول المخلوقة لله .

وكان الناس من قبل ذلك يكتفون بالضروري من كميات المياه ، فالأسرة كانت تكتفي بملء قربة أو قربتين من الماء ، ولكن بعد أن صارت في كل منزل ، أساء الكثير من الناس استخدام المياه ، فأهدروا كميات تزيد عن حاجتهم ، وتمثل ضغطاً على « مواسير » الصرف الصحي ، فتنفجر

ويشكو الناس من طفق الحجري .

إن على المسلم أن يرفع حق الله في استخدامه لكل شيء ، فالماء الذي يهدره الإنسان قد يحتاج إليه إنسان آخر ، وعندما نتوقف عن إهداره ، نمنع الضرر عن أنفسنا وعن غيرنا من طفق « مواسير » الصرف الصحي . وليحسب كل منا - على سبيل المثال - كم يستهلك من مياه أثناء الوضوء . إن الإنسان منا يفتح الصنبور ويغسل يديه ثلاثاً ويتمضمض ثلاثاً ، ويستنشق ثلاثاً ، ويغسل وجهه ثلاثاً ، ويغسل ذراعيه ثلاثاً ، ويمسح برأسه ، ويغسل أقدامه . ويترك الإنسان الصنبور مفتوحاً طوال تلك المدة فيهدر كميات من المياه ، ولو فكر في حسن استخدام المياه التي تنزل من الصنبور لما اشتكى غيره من قلة المياه .

فلماذا لا يفكر المسلم في أن يأخذ قدرًا من المياه يكفي الوضوء ويحسن استخدام الماء؟ وكان الإنسان يتوضأ قديماً من إناء به نصف لتر من الماء ، فلماذا لا نحسن استخدام ما استخلفنا الله فيه؟

على الإنسان منا أن يعلم أن الإيمان كما يقتضي أو يوجب ويفرض الصلاة ليصلح الإنسان من نفسه ، يقتضي - أيضاً - إصلاح السلوك فلا نبذر ونهدر فيما نملك من إمكانيات ، وأن ندرس كيفية الارتقاء بالصالح ، فلا نتخلص من متاعب شيء لنقع في متاعب ناتجة من سوء تصرفنا في الشيء السابق ، بل علينا أن ندرس كل أمر دراسة محكمة حتى لا يدخل الإنسان منا في مناقضة قوله الحق : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء : 36] .

أي عليك أن تعرف أيها المسلم أنك مسئول عن السمع والبصر والقلب وستسأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أن تتواني عن الأخذ بأحسن العلم ليحسن قولك وفعلك . وبذلك لا يكون هناك خوف عليك في الدنيا أو الآخرة؛ لأنك آمنت وأصلحت ، وأيضاً لا حزن يمك في الدنيا ولا في الآخرة : { فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

إنك بذلك تصون نفسك في الآخرة وفي الدنيا أيضاً؛ لأنك تسير في الحياة بإيمان وتصلح في الدنيا متبعاً لقوانين الله . وإن رأيت أيها المسلم متعباً في الكون فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عطّل ، إن رأيت فقيراً جائعاً أو عرياناً فاعلم أن حقاً من حقوقه قد أكله أو جرده غيره؛ لأن الذي خلق الكون ، خلق ما يعطيه الغني من فائض عنه للفقير ليسد عوزه ، لكن الغني قبض يده عن حق الله ، وأيضاً جاء قوم يتسولون بغير حاجة للتسول ، والفساد هنا إنما يأتي من ناحيتين : ناحية إنسان استمر أن يبني جسمه من عرق غيره ، أو من إنسان آخر غني لا يؤدي حق الله في ماله ، بذلك يعاني المجتمع من المتاعب .

ويقول الحق من بعد ذلك : { والذين كذبوا بآياتنا . . . }

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49)

والذين كذبوا بآيات الله هم إما من كذب الرسول في الآيات الدالة على صدقه وهو المبلغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا في دائرة الكفر . وإما هم الذين كذبوا بآيات المنهج ، فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الصراط المستقيم والطريق السوي . وهؤلاء وهؤلاء قد فسقوا ، أي خرجوا عن الطاعة ، ونعلم أن كلمة « الفسق » مأخوذة من خروج « الرطبة » عن قشرتها عندما يصير حجمها أصغر مما كانت عليه لاكتمال نضجها . والذي يفسق عن منهج الله هو الذي يقع في الخسران؛ لأن منهج الله هدفه صيانة الإنسان المخلوق لله ب « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » .

إن الإنسان يفسق عندما لا يفعل ما أمره الله أن يفعله ، أو يفعل ما نهاه الله عن أن يفعله . ونجد الإنسان منا يخاف على جهاز التسجيل أو جهاز التليفزيون من أن يفسد فيتبع القواعد المرعية لاستخدامه . فلا يمد - مثلاً - جهازاً من الأجهزة الكهربائية بنوعية من الطاقة غير التي يحددها الصانع ، فإن قال لصانع : استخدم كهرباء مقدارها مائتان وعشرون فولتاً حتى لا تفسد الآلة فالإنسان ينصاع لما قاله الصانع ، فما بالنا بالإنسان ، إن الله - جلت قدرته - خلق الإنسان ووضع له قوانين صيانه . إذن فمن يفسد في قوانين صيانة نفسه يمسه العذاب ، وكلمة يمسهم الذعاب تعطي وتوحي بأن العقوبة تعشق أن تقع على الجرم ، كأن العذاب سعى إليه ليناله ويمسه وها هوذا قول الحق عن النار . { تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ } [الملك : 8] .

وهو سبحانه القائل عن النار : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ } [ق : 30] .

إذن فالعقوبة نفسها حريصة على أن تنفذ إلى من أساء . ولذلك يلح العذاب في أن يمس الذين فسقوا . ويأتي الحق هنا بكلمة « المس » لحكمة ، ذلك أن عقوبة الله لا تقارن بعقوبة البشر . فالإنسان يعاقب إنساناً بمقياس قدرته وقوته ، وليس لأحد من الخلق أن يتمثل قدرة الله في العذاب ، ولذلك يكفي المس فقط ، لأن التعذيب يختلف باختلاف قدرة المعدب ، فلو نسبنا التعذيب إلى قدرة الله لكان العذاب رهيباً لا طاقة لأحد عليه . ويقول الحق بعد ذلك : { قُلْ لَأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي . . . }

قُلْ لَأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ
إِنِّي قُلُّ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50)

و « قل » - كما نعلم - هي أمر من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفي أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم عندي خزائن الله . لكنها دقة البلاغ عن الله ، إنّ القرآن توقيفي بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هي وبلغها الوحي الأمين لسيدنا رسول الله ، وبلغها لنا صلى الله عليه وسلم كما هي ، وبدل ذلك على أن أحداً لا يملك التصرف حتى في اللفظ ، بل لا بد من أمانة النقل المطلقة .

وأبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحق قد أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً بآية دالة على صدق البلاغ عنه وهي القرآن . وكان يجب على من يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه . فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التي أنزلها الله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدع إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له في إطار هذا الادعاء .

وقد تجاوز الكافرون ذلك عندما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات أخرى ، كتفجير بعض الأرض ينبيع مياه ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، ولذلك يوضح له الحق سبحانه أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السموات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتا وقصورا ، وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتجنبوا الضار؟ . ألا يكفيكم المنهج الإلهي الذي يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ويجنبكم كل أمر ضار بكم؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم إنه يعلم الغيب . وهو بشهادتهم هم يقولون عنه ما جاء بالقرآن الكريم : { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوَنُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا } [الفرقان : 7-8] .

لقد سخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطالبوا أن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويغشى الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ، ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه ملكاً يساعده في البلاغ عن الله ، أو يلقي إليه الله من السماء بكنز ينفق منه ، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها .

هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتهمونه بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذي ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن من أعاجم ، ويدحض الحق كل هذه الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التي ضلوا بها وأضلوا بها سواهم .

إنه صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل : { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } [الفرقان :

إن الرسل من قبلك يا رسول الله كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ويترددون على الأسواق ، فإذا كان المشركون يعيبون عليك ذلك ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب ، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويجزي كلاً بما عمل . ثم إن الآيات التي يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتاً؛ فهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : إنه رسول مبلغ عن الله ، وكل ما يؤديه هو صدق الأداة عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء لا تتعلق إلا بملكية الله لخزائن الأرض؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب؟ وكيف ينتقدون أنه رسول وبشر يأكل ويتزوج ويمشي في الأسواق؟

إن كل تلك الأقوال دليل التعنت؛ لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما ادعاه رسول الله لنفسه من أنه رسول مبلغ عن الله؛ إنهم طلبوا الخير النافع والينابيع التي تجري ، والجنات والقصور ، وأشياء كلها ليست في مقدور رسول مبلغ عن الله ، لأن الذي يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

وكلمة « خزائن » هذه مفردتها « خزانة » وهي الشيء الذي يكتز فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة . ولا تقل : خزانة إلا لشيء جعلته طرفاً لشيء نفيس تخاف عليه من أن تخرجه في غير أوانٍ وزمانٍ إخراجها . وخزائن الأرض كلها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل : { والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 19-21] .

إذن فالحق جاء بالقضية الكلية ، وهي أن أسرار الله ونفائسه في الكون هي بيد الله في خزائنه ، وهو سبحانه يجليها ويظهرها ويكشفها لوقتها . كيف؟ إن الحق سبحانه وتعالى تكلم عن بدء الخلق ، وتكلم عن خلق السموات والأرض ، وتكلم عن هذا الموضوع كلاماً مجملاً تفسره الآيات الأخرى . فالحق سبحانه وتعالى يقول : { قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت : 9-11] .

يأمر الحق رسوله أن يبلغ هؤلاء المشركين كيف يكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين وكيف يجعلون له شركاء وهو الخالق للأرض التي هي مناط الحركة لابن آدم .

لقد خلق فيها سبحانه ما يقيت ابن آدم وتقوم به حياته وإن أراد الترف فلا بد له من الطموح في الحياة . وهو سبحانه جعل في الأرض رواسي - أي جبلاً - وبارك في الأرض وفي الرواسي . ثم

جاء بتقدير الأقوات بعد ذكر الرواسي وهي الجبال ، فكأن الجبال في حقيقة أمرها هي مخازن القوت . وقد يقول قائل : كيف ذلك؟

ونقول : إن الواقع قد أثبت هذه الحقيقة؛ فأنت إن نظرت إلى الأنهار التي تجري ، لوجدتها تتكون من الماء الذي تساقط من الأمطار على الجبال ، فالمياه المكونة من ذرات صغيرة دقيقة تنزل على هذه الجبال لتفتتها ، وكأن المياه هي « المبرد » الذي يزيل من سطح الجبال هذه الرمال المليئة بالعناصر الغذائية للأرض ، وهو ما نسميه نحن « الغرين » ، والغرين - كما نعلم - هو ما ينزل مع المياه من سطوح الجبال إلى مجرى النهر ، وباندفاع المياه في مجرى النهر تنتقل المادة الخصبة إلى الأرض ، وتتكون تلك الطبقة الخصبة التي تتغذى منها النباتات . ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لجعل سطح الأرض كله مستوياً ، وفيه الخصوبة التي تنبت النبات .

لكن حكمته سبحانه شاءت أن تصنع للنبات غذاءه بهذه الطريقة . فأنت إذا ما نظرت إلى النبات وجدته يختلف من نوع إلى نوع في أسلوب امتصاصه للعناصر الغذائية اللازمة له ، فهناك نوع من النبات يمتص غذاءه من عمق نصف المتر ، ونوع ثانٍ يأخذ غذاءه من عمق المتر ، وهكذا . وإن لم تأت للأرض المزروعة بسماد أو مخصبات أو غرين ، فإن الأرض تضعف؛ لأن الحق يريد لعملية الزراعة أن تستمر وتمتد وتتوالى ، فجعل الجبال مكونة بشكل صلب ، وتمر على الجبال عوامل التعرية من حرارة وبرودة وتشققات ثم ينزل عليها المطر فيذيب من سطوح الجبال بعضاً من تلك المواد الغذائية اللازمة للأرض ، تنتقل هذه المواد الغذائية عبر المياه إلى الأرض ، وبهذا يتوالى الإمداد بالخصب من الجبال إلى الأرض . وهكذا نجد أن الجبال في حقيقتها هي مخازن لخيرات الله .

وهل مقومات الحياة زرع فقط؟ لا ، لأنك إن نظرت إلى نموذج مصغر للكرة الأرضية ، ستجده يشبه البطيخة الكبيرة ، وإن جئت لتقطع مثلثاً من محيط القشرة إلى مركز البطيخة ، وجعلت هذا المثلث يشبه الهرم ، ثم أخذت منها مثلثاً آخر من أي ناحية سواء أكان من ناحية الأرض الخصبة ، أم من البحار أم من الجبال أم من الوديان ، أم من الصحاري ، ثم نظرت من بعد كل ذلك إلى الخير المظمور في كل جزء من هذه الأجزاء لوجدته مساوياً للجزء الآخر . لماذا؟ لأن الحياة لا تعتمد على ألوان محصورة من القوت ، ولكنها تحتاج في عمارتها إلى أدوات ومواد الحضارة من حديد وبتروول ومنجنيز وغير ذلك من كنوز الأرض التي تقوم عليها الحضارة .

إننا نجد هذه الخيرات مكنوزة إما في الجبال وإما في الصحاري . ولكن كل خير من هذه الخيرات له ميعاد ، وله ميلاد ، وانت لو قست ووزنت الخيرات الموجودة في أي مثلث هرمي من الأرض من مركزها إلى محيطها ، وقارنتها بوزن قياس الخيرات الموجودة في مثلث هرمي آخر مساوٍ له من الكرة الأرضية نفسها ، لوجدت الخيرات متساوية في كل من المثلثين . ولكن لكل لون من هذه

الخيرات ميلاد وميعاد . { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] .

فما يقال له شيء ، فإن له خزانة عند الله يُنزلُ منها سبحانه بقدر . ونرى ذلك من قمة الوجود ، وهو العقل ، إن العقل شيء ، وله خزائن عند الله ، فما كان موجوداً من أفكار من عشرة قرون لدى البشرية جميعاً لا يقاس بكمية الأفكار التي يمتلكها . العقل الجمعي للعالم الآن ، ذلك أن كل جيل قد استفاد مقدمات من أفكار الجيل السابق له ليصل إلى نتاج جديد . إذن فهناك خزائن للأفكار وللخواطر . وكذلك كل شيء في الوجود له عند الله خزائن لا ينزل منها إلا بقدر معلوم : { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } .

وساعة يرى الحق أن يظهر ميلاد سر ما ، فهو سبحانه يهيئ الأسباب لذلك . وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - كنا قديماً نقطع الأخشاب من الأشجار لنصنع منها وقوداً ، وكنا بعد أن نقطع الأخشاب نخشى عليها من الفساد ، لذلك وضع الحق بعضاً من إلهاماته للعقل البشري حتى يستطيع تحويل الخشب إلى فحم ليضمن الإنسان صيانة الخشب ، وليضمن وجود مصدر للطاقة هو الفحم النباتي . ومن بعد ذلك اكتشف الإنسان الفحم الحجري . ومن بعد ذلك اكتشفنا البترول ، كل ذلك من خيرات الطاقة كان مكنوزاً في الأرض ، ولم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن أعطاهم الله الاستعداد لاستقبال هذا الخير ، وسيظل عطاء الله قائماً إلى أن تقوم الساعة . فمع الفحم دخلنا عصر البخار ، ثم دخلنا عصر الكهرباء ، ثم دخلنا عصر الذرة . وكل هذه الأشياء كان لكل منها ميلاد ، ولكل منها مكان في خزائن الله ، وعندما ينزل الله أي خاطر من الخواطر على عبد من عباده فإن العبد يأخذ بالأسباب ويكتشف ميلاد السر المكنوز . وكل لاحق يأخذ من خير السابق ويبني عليه . وهكذا ينمو الخير دائماً . والأشياء في خزائن الله إما أن تكون مطمورة وإما تكون محكمة إحكاماً رقمياً ، وعلى سبيل المثال ، هذا هو الراديوم الذي اكتشفته « السيدة كوري » أظهره الله على يديها في وقت الحاجة إليه . وكان العلماء قبل اكتشاف الراديوم يعلمون أن هناك عنصراً لم يعرفوه له تركيب ذري معين؛ لأن عناصر الكون مصنوعة بحكمة جلييلة كبيرة .

وقد ينزل الشيء شائعاً في غيره ، ومثال ذلك أن تقطف وردة وتستمتع بأريجها وجمال منظرها إلى أن تذبل ، وقد يغيب عنك أن الوردة مكونة من تركيب معين ، فالرطوبة هي التي تعطي الوردة نضارة ، وكل شيء في الوردة هو من مادة الأرض ، وعندما تذبل الوردة فهي تعود إلى عناصر الأرض بعد أن تتبخر منها المياه وتذهب كبخار مع غيرها من المتبخرات إلى السحاب الذي تحركه الرياح فيسقط مطراً .

وهكذا نجد أن قطرات المياه التي كانت في الوردة تبخرت وانضمت إلى السحاب ، قد عادت

مرة أخرى إلى الأرض من خلال المطر ، ومادة الماء نفسها لم تزد ولم تنقص منذ أن خلق الله الخلق في هذا الكون ، ونحن ننتفع بهذا الماء ، وعندما ينتهي انتفاع إنسان بجزء من المياه فالماء يعود من خلال عمليات أرادها الله إلى خزانة الماء في الكون . وليسأل الإنسان منا نفسه : كم طناً من الماء قد شربته في حياتك؟ وستجد أنك قد شربت وانتفعت بمئات أو بآلاف من الأطنان ، وخرج منك الماء في شكل عرق أو بول أو مخاط ، أو غير ذلك . وكم بقي من الماء في جسمك؟

إنها نسبة قد تزيد على تسعين بالمائة من وزن جسمك أياً كان الوزن ، ومن بعد أن يأتي أجلك كما قدره الله . فتبخر كمية المياه التي في هذا الجسم لتتضم إلى السحاب ثم تنزل مع المطر . إذن فكمية المياه لم تنقص في الكون ولم تزد . وهذا ما نسميه الرزق المخزون بالتحول ، تماماً كما تبخرت كمية المياه التي في الورد ، وتبخرت رائحتها في الجو وكذلك مادتها الملونة ذابت في الأرض . وساعة نزرع شجرة ورد تأخذ كل وردة لوحتها من المواد الملونة المخزونة في الأرض . إذن فكل شيء إما مخزون بذاته في خزائن الله ، وإما مخزون بعناصره المحولة إلى غيره . وكل الوجود على هذا الشكل . وحركة الحياة هي بين الاثنين .

إن الإنسان - على سبيل المثال - من لحم ومن دم ، والبقرة أيضاً من لحم ودم ، ويموت الإنسان ليعود إلى الأرض ، ويستفيد الإنسان من الحيوان ، وتعود كل مادة الحيوان إلى الأرض . وتدخل العناصر في دورة جديدة . إذن هي خزائن للحق ، إما محولة ، وإما خزائن حافظة؛ فالشيء الذي نستنبطه بحالته هو في خزائن حافظة ، والشيء الذي يدور في غيره ويرجع إلى الأصل هو في خزائن محولة .

ومن رحمة الحق بالخلق أنه لم يملك خزائن الأرض أو السموات لأحد من البشر حتى لا يستعلي إنسان على آخر . ولم يعط الحق حتى للرسول أي حق للتصرف في هذه الخزائن؛ لأن الرسل بشر ، وقد احتفظ الحق لنفسه بخزائن الأرض والسموات ليطمئننا على هذه الخزائن . ولذلك يقول الحق سبحانه : { قُلْ لَوْ أَنُّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا }

[الإسراء : 100] .

الحق سبحانه يعلم أن الإنسان مطبوع على الحرص الشديد أو البخل ، وهو سبحانه الغني الكريم؛ لذلك ينزل ما يشاء من خزائنه لعباده حتى ينتفعوا . ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الخزائن لنفسه ، فكيف يطالبه المشركون بما في خزائن الله ، وهو صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك ويوضح أيضاً أنه لا يعلم الغيب : { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ } [الأنعام : 50] .

وهو بذلك صلى الله عليه وسلم ينفي عن نفسه أي صفة من صفات الألوهية؛ لأن الخزانة الكونية هي في يد الله ، وكذلك ينفي عن نفسه علم الغيب . ولقائل أن يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التي كان يجبرنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهي أحداث مستقبلية؟

ونقول : إن ذلك ليس علماً الغيب ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مُعَلِّمٌ غيب ، أي أن ربنا سبحانه وتعالى قد علمه ، ومثال ذلك قول القرآن الكريم : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْئالَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران : 44] .

إن الحق سبحانه هو الذي علّم رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الأخبار التي كانت من أنباء الغيب ، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْئَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا } [الجن : 26-27] . فسبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب ، ولا يُطَّلِعُ أحداً من خلقه على الغيب . إلا الرسول الذي يرتضيه الله ليخبره ببعض من الغيب ، ويحفظ الحق رسوله في أثناء ذلك بملائكة حفظة تحميه من تعرض الجن لما يريد إطلاعهم عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول وحتى يصل الوحي إلى الناس خالصاً من تخليط الجن وعبثهم .

إذن فالرسول مُعَلِّمٌ غيب وليس عالم غيب . والغيب - كما نعلم - هو ما غاب عن الحس ، ولم توجد له مقدمات تدل عليه ، فهناك أشياء تغيب عنك ولكن لها مقدمات ، فإن التزمت بالمقدمات من بدايتها يمكنك أن تصل إلى النتيجة . مثال ذلك : إن أعطيت تلميذاً مسألة حسابية ليقوم بحلها ، وعندما يحل التلميذ هذه المسألة فهو لم يعلم الغيب ، ولكنه أخذ المقدمات والمعطيات ، وبحث عن المطلوب ، وأخذ يرتب المعلومات ليستنبط منها النتيجة . وكذلك حال الذين اكتشفوا أسراراً في الوجود ، أعلموا غيباً؟ لا ، إنهم فقط استخدموا بعضاً من المقدمات التي كانت موجودة أمامهم في الكون ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، صحيح أن هذه النتائج كانت غائبة عنا ، ولكن مقدماتها كانت موجودة ، وكذلك كل النظريات الهندسية ، كل نظرية نجدها تعتمد على سابقتها ، وكل نظرية - حتى أعقدها وأصعبها - هي ملاحظة لأمر بدهي في الكون .

وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها باحث فإنه يصل إلى النتائج الجديدة ، وهذا ما نسميه « غيباً إضافياً » ، أي كان غيباً في وقت ما لكنه غير غيب في وقت آخر ، ولذلك يُنسب هذا العلم إلى البشر دائماً ، ولنقرأ قول الحق سبحانه : { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } [البقرة : 255] .

والإحاطة بالعلم كلها لله ، وهو سبحانه الذي يأذن لبعض من خلقه بالإحاطة ببعض من هذا العلم ، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا بإذن منه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا في المقدمات ليصلوا إلى النتائج . ولكن ماذا عن العلم الذي لا توجد له مقدمات؟ هذا من الغيب المطلق الذي لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتضى من رسول .

أقول ذلك حتى لا يخطئ أحدنا فيظن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شيء ضاع منه هو معرفة للغيب ، فقد يكون هذا غيباً بالنسبة لصاحب الشيء الضائع ، ولكنه ليس غيباً بالنسبة للخص الذي سرقه ، ولا هو غيب بالنسبة للشخص الذي أخفى المسروقات ، ولا هو غيب بالنسبة للجان المحيطين بالخص ، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً ، ولكنه غيب معلوم للغير . إذن فخزائن الحق سبحانه وتعالى مملوءة بكل أنواع الخير التي تؤدي للإنسان مهمة البقاء في الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الترفية . { وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ } [الأنعام : 50] .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفي عن نفسه بقول الحق ثلاثة أشياء : منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب ، وشيء ثالث وهو أنه ليس ملكاً ، فهل يعني ذلك أن الملك أرفع من النبي؟ لا ، ولكنهم قالوا له : إنما يمشي في الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والملك لا يفعل ذلك . ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من الملك؛ لأنه يقوم بمداية الإنس والجن ويتبع ما يوحى إليه ملك الملوك ، وهو الحق سبحانه وتعالى : { إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحِي بِي } .

إنه من فرط ارتفاعه في الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقة صلى الله عليه وسلم بأنه من البشر ، والبشر ابن أغيار ، ويعلم شيئاً ، ويجهل شيئاً ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً ، ذلك أنه ينقل لهم تكاليف الخالق بالفاظها لا أفكار البشر التي قد تتغير أو تتبدل . فلو ابتدع لابتدع في إطار بشريته ، وفي ذلك نزول لا ارتقاء ، لكنه في الاتباع يأتي بالارتقاء للبشر؛ لأنه يتبع ما أوحى به الإله الذي اصطفاه رسولاً . ولذلك كانت الأمية في رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً له ولنا . أما أمية الإنسان العادي فهي عيب ، إنما أمية محمد صلى الله عليه وسلم هي الكمال .

و « أمي » - كما نعلم - تعني أنه كما ولدته أمه ، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر ، لكن علمه وثقافته فوقية كلها .

إن ذلك وحي من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم عندما يعلن أنه نبي أمي ، فهذا معناه أن كل ما دخل في ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله ، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله عن الله . وهكذا تكون أميته شرفاً لنا ، ولكن الأمية فينا - نحن المسلمين - تختلف

يجب أن نعمل جميعاً على القضاء عليها : { إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ } . والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحي .
ويذيل الحق الآية بقوله : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرَ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام : 50]

وساعة يأتي الحق بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بد أن يأتي بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له؛ فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوي مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوي الظل والحرور أو الظلمات والنور . إن الفطرة لا تقبل الخلاف في هذه الأمور . والعَمَى - كما نعرف - هو عدم الرؤية لمن شأنه وحاله أن يرى ، فلا يقول إنسان عن حجر : إن الحجر أعمى؛ لأن الأحجار لا تبصر .

إذن لا نقول العمى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى . وماذا تفعل عدم الرؤية في الأمر المحس؟ إن عدم الرؤية يؤدي الإنسان لأنه كائن متحرك . فقد يقع في حفرة أو يصطدم بشيء يؤديه ، ويقرر الجميع نعرف أن الأعمى تضطرب حركته ويتعرض للمتاعب ، والذي يحمي الإنسان من ذلك أن يكون مبصراً أو مستعيناً بمن يبصر حتى يمكن أن يستقبل المرئيات .

وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيجة خروج شعاع من العين ليذهب إلى الشيء المرئي ونقض هذه القضية عالم إسلامي هو ابن الهيثم الذي علم العلماء أن الشعاع إنما يخرج من المرئي إلى عين الرائي بدليل أن الشيء المرئي لا يراه الإنسان في الظلام . والعَمَى يمنع العين من استقبال الشعاع ، ولا يختلف أحد في أن العمى مهلك وضار ومتعب ، والإبصار مريح . وكان الحق يقول للخلق : إياكم أن تظنوا أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس ، لا ، إن هناك قيماً إن لم يعرفها الإنسان فهو يتعثر ويضطرب ويتخبط .

إذن فمنهج السماء قد جاء ليهدي النفس البشرية إلى القيم ، كما يهدي النور الحسي الإنسان إلى المحسات . فإذا كان البصر هو وقاية للإنسان لتفادي العقبات ، فكذلك المنهج هو الذي يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات في الأمور المعنوية . والإنسان يحيا بقيمه ، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين ، ولكنه قد لا يجد هدايته في هداية مهتد . إذن فالإنسان قد يستغني عن البصر ، ولكنه لا غنى له عن الهدى؛ لأن الضلال سيصيبه ، والضلال في القيم أبلغ وأشد قسوة من الضلال في الأمور المحسنة .

{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرَ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ } هناك تفكر ، وتذكر ، وتدبر . التفكير هو شغل العقل ابتداءً بأمر ظاهر ، يريد أن يستنبط منه شيئاً . وعندما يقول إنسان لآخر : فكر في هذا الأمر . . أي أدر عقلك في كل ما يتعرض لهذا الأمر . والذي يطلب من آخر التفكير في هذا الأمر كأنه واثق من أن الذي يتفكر في أمر لن يصل إلا إلى الرأي الذي قاله من عرض عليه

التفكير . وأما التذکر فهو أن يصل الإنسان إلى حکم انتهى إليه بالتفکر ثم نسيه ، ويأتي من يلفت الذهن إلى ذلك الحکم الذي انتهى منه فكراً .

إذن فالفکر يأتي بحکم أولي ناضج ، والتذکر يأتي بحکم كان معلوماً للإنسان ولكنه غفل عنه . أما التدبر فهو ألا يكتفي الإنسان بالنظر إلى واجهة الأمور ولكن إلى ما وراء ذلك أيضاً؛ لأن كل شيء له واجهة ، وقد تخفى الواجهة ما خلفها ، لذلك يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أعقاب الأشياء وأقفائها ، أي يدير الأمر على كل جهاته ولا يكتفي بالنظر إلى واجهاتها ، مثلما يشتري الإنسان شيئاً من تاجر أمين ، ويعرض التاجر على المشتري مواصفات الشيء بأمانة ويطلب منه أن يختبر الشيء حسب مواصفاته ، لكن التاجر الغشاش يحاول أن يخفي المواصفات لأنه يريد خداع المشتري .

وعندما يطلب الحق منا أن التفکر والتذکر والتدبر إنما يوقظ فينا المقاييس الحقيقية التي نصل بها إلى المطلوب الذي يريده الله . ولذلك يقول الحق : { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ . . . } {

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَايٌ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)

أي أنذر بالوحي - الذي تتبعه - هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله . والإنذار - كما نعلم - هو إعلام بشيء مخيف قبل وقوعه لتنفادي أن يقع . وما المراد هؤلاء الذين يطلب الحق من رسوله إنذارهم بالوحي ، في أول الإسلام كان إقبال بعض المؤمنين على العمل الإيماني ضعيفاً ، وما دام في قلوبهم إيمان ، ويخشون لقاء الله فالوحي إنذار لهم بضرورة العمل الإيماني الجاد . كما يجوز أن يكون الإنذار بالوحي لأهل الكتاب؛ لأنهم يعرفون أن هناك يوماً آخر سيلقون فيه الله . وقد يكون الإنذار لإنسان يؤمن بالبعث ولكنه يشك في الأنبياء وشفاعتهم ، فهذا الصنف قد يحمله التخويف والإنذار إلى أن يعيد النظر في قضية الإيمان ويتقبل النبأ الصدق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نأخذ الإنذار بالوحي على أي وجه من الوجوه السابقة . ولكن هل يخاف المؤمن أن يحشر إلى الله؟ لا . إن المؤمن إنما يخاف أن يحشر مجرداً من الولي والناصر . إذ في الحقيقة ليس هناك أحد يحمي وينصر من الله ، ولا شفيع يخلص من عذاب الله إلا بإذنه { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } وهذا ما يعتقده المؤمنون .

وقد حدد الحق ذلك في قوله : { لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَايٌ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الأنعام :

. [51

إنهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ، ورسوله ولكنهم قصرُوا في بعض المطلوبات والتكاليف التي ينطوي عليها قوله الحق : { فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ } {

هؤلاء المؤمنون عندما يجيئهم الإنذار فهم قد يصلحون من أمورهم خوفاً من الحشر بدون ولي ولا

شفيع . المؤمن - إذن - له أمل أن يكون يوم الحشر في ولاية الله ورحمته ، وهؤلاء هم من قال عنهم الحق : { وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة : 102] .

وإن كانت الآية الكريمة تتناول وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وتشمل وتضم أيضا الذين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنبياء .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ . . . } {

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستعمره في الأرض ، وجعله طارئا على هذا الوجود الذي أودع الله له فيه كل ما يلزمه من مقومات حياته وإسعاده .

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطرار عبودي بحيث لا يوجد متعال على مستضعف ، ولا يوجد طاغ على مظلوم ، حتى تستقيم حركة الحياة استقامة يعطي فيها كل فرد على قدر ما هبى له من مواهب . فإذا ما اختل ميزان الاستطرار البشري ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك ، والدليل هو أنكم أيها البشر تساويتم في أصل الوجود من تراب ، وتساويتم في العودة إلى التراب ، وتتساوون في موقفكم يوم القيامة للحساب ، فلماذا تختلفون في بقية أموركم؟ إن التساوي يجب أن يوجد . وها هوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن تهتدي الأمة وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه ، فيعاقبه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصا على إيمان قومه .

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير ، ونرد على هؤلاء : ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقي ، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعتاب ، وعتاب للومه وتوبيخه؛ لأن المعاتب خالف وعصى ، ونضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت في يومك العادي إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه ، فأنت تعاقبه وتؤنبه لأنه خالف المطلوب منه ، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرف ويقضي أوقات راحته في المذاكرة . فأنت تطلب منه ألا يكلف نفسه كل هذا العناء ، وتخطف منه الكتاب وتقول له : اذهب لتستريح . أنت في هذه الحالة تلومه لمصلحته هو ، فكأن اللوم والعتاب له لا عليه . إذن قد حُلّ هذا الإشكال الذي يقولون فيه : إن الله كثيراً ما عاتب رسوله ، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسيرا سيرا سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسه وأجهدوا رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان ، وجاء في ذلك قول الحق : { عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه

يُزَكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِي { [عبس : 1-7] .

إذن فالعتاب هنا لصالح من؟ إنه عتاب لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التحريم : 1] .
إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله .

والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين ، كان يجب أن يعامل الطغاة بشيء من اللين ليتألف قلوبهم . ولكن الطغاة لا يريدون أن يتساووا مع المستضعفين ، فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خباب بن الأرت وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان الفارسي وهم من المستضعفين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك .
وكأنهم يقولون له : إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ببديهية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم . فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاها القرآن الكريم : { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [هود : 27] .

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون .
ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الرأي حلاً وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال عمر : لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون . وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وجيء بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة نزل قول الله : { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنعام : 52] .

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة التي جيء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله . والنبي - صلى الله

عليه وسلم - إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعا في إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم ، ورأى - صلى الله عليه وسلم - أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله الآية ونهاه عما هم به من الطرد ، لا لأنه - صلى الله عليه وسلم - قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب - صلى الله عليه وسلم - أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراده أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أهيجوا فيه ، وجاء أمر إلهي آخر بالألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق تبارك وتعالى : { واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطاً } [الكهف : 28] .
وعندما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أصبر نفسي معهم » .

وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين . ويقول سلمان الفارسي وخباب بن الأرت فينا نزلت ، فكان - رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت : { واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم } فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام . أي أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، فقول الحق : { ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه } هذا هو قول الله - سبحانه - أمر به رسول الله وأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفي هذا قمة التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين؛ لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

وها هوذا أحد خلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا في الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين . فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا :

- أياذن هؤلاء ويتركنا نحن؟ لقد صرنا مسلمين . فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين : أكلكم ورم أنفه أن يؤذن هؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعيتم فتباطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأبطلى دخولكم .

إن هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكلمة « وجه الله » تدل على أن الإيمان قد أشرب في قلوبهم ، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فراراً بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال . إنهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن

يُوجَل لهم كل الثواب إلى الآخرة .

وحين نسمع قول الحق : { يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } فهذا وصف لله بأنه - جل شأنه - له وجه ، ونطبق في هذه الحالة ما نطبقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا نأخذ الوصف في إطار قوله الحق : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن الوجه هو السمة المميزة للذوات . فأنت إن قابلت أناساً قد غطوا وجوههم واستغشوا ثيابهم وستروا بها رءوسهم فلن تستطيع التمييز بينهم .

ويقال : فلان قابل وجوه القوم . أي التقى بالكبار في القوم . والحق سبحانه وتعالى يقول : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } ، ويقول الحق سبحانه : { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ } وفي هذا القول حرص على كرامة المستضعفين؛ فقد يقول قائل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يفروا من ظلم الظالمين وليس حبا في الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله . { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنعام : 52] .

وكأن الحق يوضح لرسوله : لو كان عليك من حسابهم شيء لجاز لك أن تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كل واحد مجزئ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } .

إذن فلكل إنسان كتابه . قد سطر وسجل فيه عمله ويجازي بمقتضى هذا ، ويقول الحق من بعد ذلك : { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } . . .

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول أرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هي الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تدم لذاتها ، وإنما تدم لما تؤول إليه . فالاختبار - إذن - لا يدم لذاته ، وإنما يدم لما يؤول إليه . وتأتي الفتنة ليرى صدق اليقين الإيماني ، وها هوذا الحق سبحانه وتعالى يقول : { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ } [العنكبوت : 2-3] .

إن الحق سبحانه يجتبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه - سبحانه - يجتبرهم بالحن والنعم ، وقد اختبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق

أن علمه سبحانه أزلاً ، ويميز أهل الصدق في الإيمان عن الكاذبين في الإيمان . فمن صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صدقه وبقينه ، ومن لم يصبر فقد دل بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ورضي ، وإن أصابه شر وفتنة انقلب على وجهه ونكص على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة .

إذن فالفتنة مجرد اختبار . والوجود الذي نراه مبني كله على المفارقات ، وعلى هذه المفارقات نشأت حركة الحياة . ويجب الإيمان بقدر الله في خلقه؛ فهذا طويل ، وذاك قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا غني ، وذاك فقير ، هذا صحيح ، وذاك سقيم ، وذلك ليكون كل نقيض فتنة للآخر .

فالمريض - على سبيل المثال - فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستقبل المريض قدر الله في نفسه ولا ينظر بمقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعلي الصحيح عليه ويستنذله ، أو يقدم له المساعدة؟ والفقير فتنة للغني ، وهو ينظر إلى الغني ليعرف أيجتره ، أيجرجه ، أيستغله ، والغني فتنة للفقير ، يتساءل الغني أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد . أم الراضي عن عطاء الله لغيره . وهكذا تكون الفتن .

إن من البشر من هو موهوب هبة ما ، وهناك من سلب الله منه هذه الهبة ، وهذا العطاء وذلك السلب كلاهما فتنة؛ لنؤمن بأن خالق الوجود نثر المواهب على الخلق ولم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب؛ حتى يحتاج كل إنسان إلى مواهب غيره ، وليقوم التعاون بين الناس ، وينشأ الارتباط الاجتماعي .

وعندما يخلق الله الإنسان بعاهة من العاهات فهو سبحانه يعوضه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتن الله بعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة ، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم فساعة يرى رسول الله الكفار وهم يجترئون عليه ويقولون :

{ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

يعرف أن هؤلاء القوم يستكثرون عليه أن ينزل عليه هذا القرآن العظيم ، وفي هذا القول فتنة واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضي إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صدق رسالته .

والجماعة التي استكبرت وطلبت طرد المستضعفين هم فتنة للمستضعفين ، والمستضعفون فتنة لهم ، فلو أن الإيمان قد اختمر في نفوس المستكبرين لما استكبروا أن يسبقهم الضعاف إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فكلنا يفتن بعضنا بعضاً . وكل إنسان عندما يرى موهوباً بموهبة لا توجد لديه فليعلم أنها

فتنة له وعليه أن يقبلها ويرضى بها في غيره . وما عُبدَ الله بشيء خيراً من أن يحترم خلق الله قدر الله في بعضهم بعضاً ، ولذلك يختبرنا الحق جميعاً ، فإن كنت مؤمناً بالله فاحترم قدر الله في خلق الله حتى يجعل الله غيرك من الناس يحترمون قدر الله فيك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } [الأنعام : 53] .

ووجه الفتنة هنا أن قوماً طلبوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم : { أهؤلاء من الله عليهم من بيننا } ؟ كأنهم تساءلوا عن المركز الاجتماعي للمستضعفين من المؤمنين ، ويأتيهم الرد من الله : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } . فسبحانه هو العليم أولاً بالبشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يقرره . وقد سبق للذين كفروا أن قالوا : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ } .

وجاءهم الرد من الحق سبحانه وتعالى فقال : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا } [الزخرف : 32] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لم يضع مفاتيح الرسالة في أيدي المشركين أو غيرهم ، ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر . بل هو سبحانه وتعالى الذي يوزع المواهب في البشر رزقاً منه ليعتمد كل إنسان على الآخرين في مواهبهم التي يعجز عنها ، ويعتمد عليها الآخرون في موهبته التي يعجزون عنها . ومسألة النبوة هي اصطفاء إلهي يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا . ويدل السياق إذن على أن بعضاً من كبار العرب طلبوا أن يطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من المستضعفين ، فأراد الله أن يطمئن المستضعفين بشيء عجل لهم به في الدنيا وإن كان قد جعله لبقية المؤمنين في الآخرة . لذلك يقول الحق : { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ . . . } .

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (54)

لقد كان طلب الطرد لهؤلاء المستضعفين فيه إهانة لكرامتهم ولمنزلتهم ولأنهم دون الأثرياء ووجهاء القوم ، فيطمئنهم الحق بالسلام منه في الدنيا فيأمر رسوله : { فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ } . ونفهم من السلام أنه الخلو من الآفات النفسية والآفات الجسدية ، فكأن الحق سبحانه أراد أن يعرضهم بالسلام القادم من الله { فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } ونرى كلمة : « الرحمة » تتردد كثيراً في القرآن الكريم ، فما هوذا الحق يقول في موقع آخر : { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } [الإسراء : 82] .

ما الفارق إذن بين الشفاء والرحمة؟ الرحمة : لا يبتلي الله الإنسان بمرض ، إنها الوقاية ، أما

الشفاء فهو أن يزيل الحق أي مرض أصاب الإنسان . وهذا هو البرء بعد العلاج .
إذن ففي القرآن شفاء ورحمة ، أي وقاية وعلاج . والذي يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات
الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذي تغفل نفسه وتشرذ منه يصاب بالداء الاجتماعي والنفسي ،
فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يُشفى من أي داء . وحين يأمر سبحانه رسوله أن يقول لهؤلاء
الذين أهيجوا بطلب طردهم على الرغم من إيمانهم برسالة رسول الله : { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ
عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } فهذا يعني أن ما حدث لهم في هذا الأمر هو آخر ابتلاءاتهم ، وقد أخذوا
بهذه الإهاجة سلاماً دائماً ، وما دام الله قد كتب على نفسه الرحمة فكأنه وقاهم مما يصيب به
غيرهم .

وإذا سمعت قول الله : { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } فالكتابة تدل على التسجيل ، ولا أحد
يوجب على الله شيئاً لأنه خالق الكون ، وله في الكون طلاقة المشيئة ، فلا أحد يكتب عليه
شيئاً ليلزمه به ، ولكنه سبحانه هو الذي أوجب على نفسه الرحمة . ونأخذ كلمة « نفسه » في
إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } ، ذلك أن النفس عند البشر هي الجسم والدم والحركة والحياة ،
ولكن ماذا عندما تأتي كلمة « النفس » منسوبة إلى الله؟ المراد - إذن - هو الذات الإلهية . وإن
لم تأخذ مراد الكلمة بهذا المعنى فأنت تدخل إلى مخالقات كثيرة وقانا الله وإياك شرورها .

وأؤكد هذا المعنى ليستقر في ذهن كل مؤمن ، أن النفس بالنسبة للكائن الحي غيرها بالنسبة لله ،
ولا بد أن نأخذ أي شيء منسوب إلى الله في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } ؛ لأن النفس بالنسبة
للكائن الحي عبارة عن امتزاج الروح بالمادة ، والمادة مكونة من أبعاد . وإن لم تأخذ المراد من
نفس الله على ضوء { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } ، فأنت - والعباد بالله - تنفي عن الحق « الأحدية »

ونعرف أن للحق سبحانه وتعالى « وصفين » يتحدان في المادة وفي الحروف : الأول هو « واحد
» .

والآخر هو « أحد » . والسطحيون في الفهم يظنون أن « واحداً » معناها « أحد » . ونقول :
لا ، إن « واحداً » لها مدلول ، و « أحداً » لها مدلول آخر . فعندما نقول : « إن الله واحد »
أي لا يوجد فرد ثان من نوعه فليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير . وعندما نقول : « إن الله أحد »
« أي أنه لا يتكون من أبعاد يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل ، لأن الشيء قد
يكون واحداً وليس أحداً . ولذلك نؤكد الفارق بين : « واحد » و « أحد » ، وحتى يعرفه كل
مؤمن جيداً فهو - سبحانه - واحد لا يوجد فرد ثان يشاركه في وحدانيته ، فهو واحد لا شريك
له ، وهو أحد جل وعلا أي ليس له أبعاد يحتاج بعضها إلى بعض . وسبق أن أوضحنا أن هناك
شيئاً اسمه : « كل » و شيئاً آخر اسمه « كلي » . والكل هو المكون من أجزاء ، كل جزء منها لا

يؤدي الحقيقة ، وإنما لا يؤدي الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض .
 ومثال ذلك الكرسي : إنه مكون من خشب ومسامير وغراء ، فلا يقال للخشب كرسي ، ولا
 يقال للمسامير كرسي ، ولا يقال للغراء كرسي . ولكن يقال للشيء المصنوع من كل هذه
 الأشياء على هيئة محددة : إنه كرسي . إذن ف « الكل » له أجزاء تجتمع لتكوّنه . والكلّي يمكن
 أن تطلق على الإنسان ، ولكن في الجنس البشري هناك أفراد كثيرون له .
 وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس « كُلاً » أي لا أجزاء له لأنه أحد ، وليس « كلياً » لأنه
 لا شيء مثله؛ فسبحانه وتعالى واحد أحد . ولهذا نفهم جميعاً أن كل شيء منسوب إلى الله ينبغي
 أن يكون في إطار : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } .

ونحن لا نفهم مراد كلمة « النفس » بالنسبة لله كما نفهمها بالنسبة للبشر؛ لذلك فنفس الله
 ليست كنفس البشر؛ لأن الله غني لا يحتاج إلى غيره ، وهو - سبحانه - ليس مكوناً من أجزاء ،
 فهو سبحانه له كل الكمال والجلال في وحدانيته وأحديته وفي سائر صفاته وأفعاله . وحين يقول
 سبحانه : { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ } . قد يتساءل إنسان : وما مدلول الرحمة؟
 وتأتي الإجابة في قوله الحق : { أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ } . والحق حينما أنزل منهجاً من السماء فالمنهج يضم نصوصاً للتجريم كنصوص
 عقاب الزاني أو اللص ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن تأتي عقوبة إلا إذا جاءت بعد تجريم ، مثال
 ذلك الرشوة والنميمة وكل مخالفة للمنهج ، فلا عقاب إلا بالجريمة ، ولا جريمة إلا بنص . والحق
 الذي خلق الخلق يعلم أن بعضاً من خلقه يكون من ضعاف النفوس ، وقد تغلب إنساناً نفسه
 فارتكب ذنباً أو معصية ، والمثال على ذلك قول الحق :

{ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم } [المائدة
 : 38] .

هذا هو عقاب السارق والسارقة .

وكذلك يقول الحق عن الزاني والزانية : { الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مئة جلدة ولا
 تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عداهما طائفة من
 المؤمنين } [النور : 2] .

ما معنى إنزال مثل هذه النصوص؟ معنى إنزال هذه النصوص أن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن
 الإنسان قد يضعف في بعض مطلوبات الدين فيقع في معصية ، ولا بد أن يوجد عقاب عليها .
 واحترام الحق بذلك تكوين الإنسان عندما منحه الاختيار ، فوضع الثواب والعقاب . وكما وضع
 الحق النص على الجرائم وعقوبتها فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لخلقهم ، حتى لا يكون
 الذي عصى الله مرة واحدة فاقداً للأمل ، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة . وشرع الحق

التوبة للخلق ليرحمهم من شرور من ارتكبوا المعاصي ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصي ما داموا قد تابوا عنها . وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصي فيحفظهم منها .
وهو الحق القائل : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة : 118] .
سبحانه - إذن - يهدي إلى التوبة ويعفو ، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين .
ومن ظواهر رحمة الله سبحانه : { أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأنعام : 54] .

والسوء هو الأمر المنهي عنه من الله . هل هناك من يعمل السوء بجهالة؟ . بعضنا يفهم الجهالة فهماً سطحياً على أساس أنها « عدم العلم »؛ لا . إن الذي لا يعلم هو الأمي الخالي الذهن ، والجهالة غير الجهل ، فالجهل هو أن يعلم الإنسان حكماً ضد الواقع ، كأن يكون مؤمناً بعبقيرة تخالف الواقع . ومعالجة الجهل تقتضي أن ننزع منه هذه العبقة التي هي ضد الواقع ثم نقنعه بالعبقيرة المطابقة للواقع .

والذي يسبب المتاعب للناس هم الجهلة؛ لأن الجاهل يعتقد في قضية ويؤمن بها وهي تخالف الواقع . وعندما جاء العلماء عند هذا القول الحكيم : { مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ } . قالوا : إن الجهالة هي السفه والطيش ، والطيش يكون بعدم تدبر نتائج الفعل . والسفه ألا يقدر الإنسان قيمة ما يفوته من ثواب وما يلحقه من عقاب . وقد يكون الإنسان مؤمناً ، لكنه يرتكب السوء لأنه لم يستحضر الثواب والعقاب ويرتكب من السوء ما يحقق له شهوة عاجلة دون التمعن في نتائج ذلك مستقبلاً ، ولو استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء . ويمكن أن نفهم أيضاً الجهالة على أنها ارتكاب الأمر السيئ دون أن يبيت له الإنسان أو يخطط ، وذلك كأن يخطط إنسان السفر إلى باريس لطلب العلم ، وعندما وصل إلى هناك جاءت له امرأة في غرفته في الفندق وهي في كامل فتنها وزينتها ، وألحت عليه لارتكاب الفحشاء ، فلم يقدر على نفسه .

هذا فعل للسوء بجهالة؛ لأنه لم يخطط لذلك السوء ، وهو يندم من بعد ذلك ، ولا يحكي عن ذلك الفعل بفخر أبداً .

هناك فارق - إذن - بين هذا الإنسان وإنسان آخر بحث في عناوين بيوت اللذة في باريس قبل أن يسافر إليها ، إنه بذلك يخطط لفعل المنكر وارتكاب الفحشاء . ويصر على السوء ، ويتفاخر به ولا يندم على فعل؛ هذا الصنف من البشر لا يغفر له الله إن استمر على هذا الحال حتى شارف الموت أو أدركه الموت ، ولذلك يقول الحق : { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء : 17] .

لأن الحق سبحانه إنما يقبل توبة من ارتكب الذنب في حالة الحماسة والطيش ، ويقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق توبتهم ، أما الذين لا يندمون على فعل السوء فيقول الحق عنهم : { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَصَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [النساء : 18] .

إن الذين لا يقبلون على التوبة من فور ارتكاب الذنب وينتظر الإنسان منهم مجيء الموت ليتوب قبله أي وهو في حالة الغرغرة - وهي تردد الروح في الحلق عند الموت - هؤلاء لا تقبل لهم توبة ، وكذلك الذين يموتون على الكفر - والعياذ بالله - وقد أعد الله لكليهما عذاباً أليماً .

والحق سبحانه قد وضع لنا قبل ذلك فقال : { أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الأنعام : 54] .

إذن فالتوبة يجب أن يتبعها إصلاح وصلاح ؛ ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات ، والحق سبحانه غفور لا يعاقب على ذنب تاب عنه العبد ، ورحيم لأنه يثيب على الفعل الحسن ، بل إنه يثيب الإنسان الذي يكرر ندمه على فعل سيء ويكتب له عن ذلك حسنة . بل إنه - بسعة رحمته - يبدل سيئاته حسنات .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ . . . } .

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (55)

وساعة تسمع قوله الحق : { وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ } فاعلم أن هناك تفصيلاً سبلي ذلك يشابه تفصيلاً سبق . والآيات السابقة قد فصل الله فيها أموراً كثيرة؛ فصل لنا حجة وصحة وحدانية الله سبحانه ، وفصل لنا صحة النبوة ، وفصل لنا صحة القضاء والقدر . ومن بعد ذلك كله يعطينا الحق المقاييس التي تقرر الحقائق التي ينكرها أهل الباطل؛ يفصل لنا في العقائد ، ويفصل لنا في حركة الحياة والحركة العبادية التي تؤدي بها تكاليف الإيمان . وكما فصل لنا سبحانه صحة الوحدانية وصحة النبوة ، وصحة القضاء والقدر ، يفصل لنا الآيات التي تقرر الحقائق : {

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام : 55] .

ونقرأ « سبيل » في بعض القراءات مرفوعة ، أي أن سبيل الجرمين يظهر ويستبين ويتضح ، وتقرأ في بعض القراءات منصوبة ، أي أنك يا محمد تستبين أنت السبيل الذي سيسلكه المجرمون . وكلمة « سبيل » وردت في القرآن مؤنثة على الحق : { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا } [الأعراف : 45] .

ووردت أيضاً في بعض الآيات مذكرة : { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } [الأعراف : 146] .

ويريد الحق بذلك أن يعلمنا أن القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين قد استقبلته قبائل من العرب

، بعضها لها السيادة كقبيلة قريش لأنها تسكن مكة ، والكعبة في مكة وكل القبائل تحج إلى الكعبة .

ويريد أن ينهي سبحانه هذه السيادة ، ولذلك جاء بالقرآن ببعض الألفاظ التي تنطقها القبائل الأخرى ، ومثال ذلك كلمة « سبيل » التي تؤنث في لغة « الحجاز » ، وجاء به مرة كمذكر؛ كما تنطقها « تميم » . ولم يأت الحق بكل ألفاظ القرآن مطابقة لأسلوب قريش ، حتى لا تظن قريش أن سيادتها التي كانت لها في الجاهلية قد انسحبت إلى الإسلام ، فقد جاء القرآن للجميع . { وَكَذَلِكَ نَفَصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } . أي أن الله سيعامل كل إنسان على مقتضى ما عنده من اليقين الإيماني .

والمعاندون لهم المعاملة التي تناسبهم ، وكذلك المصّر على الذنوب ، والمقدم على المعاصي ، وهي تختلف عن معاملة المؤمن . ولكنها في إطار العدل الإلهي . إذن فلكل المعاملة التي تناسب موقعه من الإيمان .

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون . فإذا استبنت سبيل المجرمين ، أو إذا استبان لك سبيل المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين؟ .

وحين يذكر الحق شيئاً مقابلاً بشيء فهو يأتي بحكم شيء ثم يدع الحكم الآخر لفهم السامع ، فإذا كان الحق بين سبيل المجرمين لعناً وطرداً ، فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم . ومثال على ذلك - والله المثل الأعلى - أنت تقول للتلميذ الذي يواظب على دروسه ويذاكر في وقت فراغه من المدرسة : إن سبيلك هو النجاح . ومن يسمع قولك هذا يعرف أن الذي لا يواظب على دروسه ولا يذاكر في وقت فراغه من المدرسة تكون عاقبة أمره الرسوب والخيبة .

وهكذا يترك الحق لفطنة السامع لكلامه أن يأتي بالمقابل ويعرف أحكام هذا المقابل : فإذا كان الحق قد قال : { وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } فهذه إشارة أيضاً لسبيل المؤمنين من رحمة وتكريم . ونعلم أن القرآن قد جاء على أبلغ الأساليب . وهي أساليب تقتضي أن تعرف معطى كل لفظ وكل حرف حتى نفهم مقتضيات المقامات والحالات التي تطابق كل مقام . ومثال على ذلك قول الحق سبحانه : { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الثَّقَاتِ فَمَثَلٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ } [آل عمران : 13] .

لقد ترك الحق لفطنة السامع لهذه الآية أن يعرف أن الفئة الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، وأن الفئة التي تقاتل في سبيل الله هي الفئة المؤمنة ، وترك لنا الحق أن المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم في الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك في موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول الحق مثل هؤلاء : { وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْدُنُ لَهُمْ فَيْعَنْدِرُونَ } [المرسلات : 34-36] .

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأي قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعداراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذي ينتظرهم ، وهم يقعون في الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب في اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق في باهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق : { والذين كفروا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [النور : 39] . وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله في الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد في الآخرة . وأعمالهم كممثل البريق اللامع الذي يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوي شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : { وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } .

إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب . مشخص يميزه عن الجنس الآخر إما بارتفاع ترقق وإما بنزول تدن . وقمة أجناس الوجود هو الإنسان الذي كرمه الحق بالحس والحركة والتفكير . ويولي الإنسان مرتبة جنس الحيوان الذي له الحس والحركة دون التفكير . ويولي جنس الحيوان مرتبة النبات ، وهو الذي له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات غريزة النمو يصير جماداً . إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالي : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خاصية زائدة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذي يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان ، وهكذا نجد أن أعلى الأجناس هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الأجناس وهو الإنسان رباً له من أدنى الأجناس وهو الجماد؟

إن تحكيم الفطرة في ذلك الأمر ينتهي إلى حكم واضح هو سخف هذا اللون من التفكير .
 وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدتته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة
 لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من اتبعه
 . { قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ } [الأنعام : 56] .
 إذن فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تتبع من هدي ولكنها خضوع إلى هوى؛ لأن الهدي هو
 الطريق الموصل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التي تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من
 الذين يريدون إضلال البشر قد خرجوا بمذاهب ليست من الدين في شيء ، مثل القاديانية
 والبهائية والبايية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من
 ذلك يقدمون التنازلات في أمور تمس الأخلاق ، ورأينا مثل ذلك في بعض من القضايا التي نظرتمها
 المحاكم أخيراً ، كالذي يدعي التدين ويقبل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ،
 ولكن يطلق الغرائز حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم حظ كبير ومرتبة من التعليم ، وقد
 أوهموا أنفسهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم أخذوا بالتدين ، بينما هم يأخذون حظ الهوى المناقض
 للدين . { لَأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [الأنعام : 56] .
 أي أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التي تقود إلى الضلالة؛
 لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .
 ومن بعد ذلك يقول الحق : { قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي . . . } .

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ
 خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57)

هنا يبلغ الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اهتدى إليه
 صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة؛ لأن اصطفاء
 الحق له جعله يتبين هدى الله بالشرعية الواضحة في « افعل » ولا « تفعل »؛ فالرسول صلى الله
 عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للناس ، ويؤدي كل فعل حسب ما شرع الله ، ويتبعه المؤمنون
 برسالته .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون
 الخمر لأن الحق نهي عن ارتكاب هذا الفعل . ونجد الأطباء الآن في كل بلدان العالم يحرمون
 شرب الخمر لأنها تعتدي على كل أجهزة الإنسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبي ، والجهاز
 الهضمي . ونجد « أفلاماً » تظهر أثر كأس الخمر على صحة الإنسان . وقد يرى إنسان غير
 مؤمن مثل هذا « الفيلم » فيمتنع عن الخمر امتناع ابتغاء المصلحة لا امتناع الدين . ولكن علينا
 - نحن المسلمين - أن نقبل على مثل هذا الامتناع لأنه من الإيمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت : 33] .

هكذا نعرف أنه لا أحد أحسن قولاً ممن يمثل إلى أوامر الحق لأنه مُقرّ بوحداية الحق سبحانه ، ويعمل كل عمل صالح ويقرّ بأن هذا العمل هو تطبيق لشريعة الله :
{ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي } القول يدلنا أننا دون بينة من الله لا نعرف المنهج ، ولكن بينة من الله نعلم أنه إله واحد أنزل منهجاً « افعل » و « لا تفعل » . وجاء الحق هنا بكلمة « ربي » حتى نعرف أنه الخالق الذي يتولى تربيتنا جميعاً . وما دام سبحانه وتعالى قد خلقنا ، وتولى تربيتنا فلا بد أن نتمثل لمنهجه . وقد أنزل الإله تكليفاً لأنه معبود ، وهو في الوقت نفسه الرب الذي خلق ورزق ، ولذلك نتمثل لمنهجه ، أما المكذبون فماذا عنهم؟ { وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } [الأنعام : 57] .

فالذين كذبوا بالله اتخذوا من دونه أنداداً ، ولم يمتثلوا لمنهجه ، بل تمادى بعضهم في الكفر وقالوا ما رواه الحق عليهم : { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .

وعندما ناقش ما قالوه ، نجد أنهم قالوا : « اللهم » وهذا اعتراف منهم بإله يتوجهون إليه . وما داموا قد اعترفوا بالإله فلماذا ينصرفون عن الامتثال لمنهجه وعبادته؟ . هم يفعلون لأنهم نموذج للصلف والمكابرة المتمثل في قولهم : { إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } .

ألم يكن من الأجدر بهم أن يعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

ونجد أيضاً أنهم لم يردوا على رسول الله فلم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عند محمد بل قالوا : { اللهم إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ } . إنهم يردُّون أمر الله ويطلبون العذاب ، وتلك قمة المكابرة ، والتمادي في الكفر وذلك بطلبهم تعجيل العذاب ، ولذلك يقول لهم رسول الله : { وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } .

والاستعجال هو طلب الإسراع في الأمر ، وهو مأخوذ من « العجلة » وهي السرعة إلى الغاية ، أي طلب الحدث قبل زمنه . وما داموا قد استعجلوا العذاب فلا بد أن يأتيهم هذا العذاب ، ولكن في الميعاد الذي يقرره الحق؛ لأن لكل حدث من أحداث الكون ميلاذا حدده الحق سبحانه : { مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } [الأنعام : 57]

إن الحكم لله وحده ، فإن شاء أن ينزل عذاباً ويعجل به في الدنيا كما أنزل على بعض الأقوام

من قبل فلا راد له ، وإن شاء أن يؤخر العذاب إلى أجل أو إلى الآخرة فلا معقب عليه .
ومن حكمة الحق أن يظل بقاء المخالفين للمنهج الإيماني تأييدا للمنهج الإيماني . ويجب أن نفهم
أن الشر الذي يحدث في الكون لا يقع بعيدا عن إرادة الله أو على الرغم من إرادة الله ، فقد
خلق الحق الإنسان وأعطاه الاختيار ، وهو سبحانه الذي سمح للإنسان أن يصدر منه ما يختاره
سواءً أكان خيراً أم شراً . إذن فلا شيء يحدث في الكون قهراً عنه؛ لأنه سبحانه الذي أوجد
الاختيار . ولو أراد الحق ألا يُقَدِّر أحد على شر لما فعل أحد شراً . ولكنك أيها المؤمن إن
نظرت إلى حقيقة اليقين في فلسفته لوجدت أن بقاء الشر وبقاء الكفر من أسباب تأييد اليقين
الإيماني .

كيف؟ لأننا لو عشنا في عالم لا يوجد به شر لما كان هناك ضحايا ، ولو لم يوجد ضحايا لما كان
هناك حثٌّ على الخير وحضٌّ ودفع إليه . ولذلك تجدد روح الإيمان تقوي حين يهاج الإسلام من
أي عدو من أعدائه ، وتجدد الإسلام قد استيقظ في نفوس الناس ، فلو لم يوجد في الكون آثاره
ضارة للشر ، لما اتجه الناس إلى الخير . وكذلك الكفر من أسباب اليقين الإيماني ، فعندما يطغى
أصحاب الكفر في الأرض فساداً واستبداداً ، نجد الناس تتدرع باليقين وتتحصن بالإيمان لأنه
يعصم الإنسان من شرور كثيرة . إذن فوجود الشر والكفر هو خدمة لليقين الإيماني . { إن

الحكم إلا لله يَفُصِّلُ الحقَ وَهُوَ خَيْرُ الفاصِلينَ } [الأنعام : 57]

نعم إن الحكم لله لأنه سبحانه يفصل بين الموقف دون هوى لأنه لا ينتفع بشيء مما يفعل ، فقد
أوجد الحق هذا الكون وهو في غنى عنه؛ لأن الله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال ولم يضيف له
خلق الكون صفة زائدة ، وقد خلق سبحانه الكون لمصلحة خلقه فقط . وبلغنا الرسول : { قُلْ
لَوْ أَنَّ عِنْدِي . . . }

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

هذا بلاغ من رسول الله لكل الخلق بأن أحداث الكون إنما يجريها الحق بإرادته ومواقبت لا
يعلمها إلا هو سبحانه ، وهو - جل وعلا - الذي يأذن بها . . . أي قل لهم أيها النبي : لو كان
في قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب لانتهى الأمر بيني وبينكم ولأهلككم بعقاب
وعذاب عاجل غضبا لربي وسخطا عليكم من تكذيبكم به - سبحانه - ولتخلصت منكم سريعا
، لكن الأمر ليس لي ، إنه إلى الله الحكيم الذي يعلم ما يستحقه الظالمون . ويقول - سبحانه -
في موضع آخر من القرآن الكريم : { وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ
أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } [هود : 8] .

وحكمة الله - إذن - هي التي اقتضت تأجيل العذاب إلى وقت يحدده الله ، وفي هذا ما يجعل
بعضاً من الكافرين يجترئون على الله ويوغلون في الكفر ويقولون ما الذي يمنع عنا العذاب؟

إنهم يقولون ذلك استهزاء وسخرية ، ولا يعلمون أن العذاب آت حتماً ولا خلاص لهم منه؛ لأن الله صادق في وعده ووعيدة وسيأتيهم العذاب لأنهم استهزأوا وسخروا فلا مناص لهم عنه ولا مهرب لهم منه .

وفي موقع آخر يقول الحق : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 53-55] .

وهكذا نرى تحدي الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيهم بالعذاب ، لكنه تحدى مردود عليه بأن الحق هو الذي يقرر ميلاد كل أمر ولسوف يأتيهم العذاب فجأة ، وهو واقع لا محالة وإن جهنم ستحيط بهم ، وسيغمرهم العذاب من أعلاهم ومن أسفلهم ، ويسمعون صوت الملك الموكل بعذابهم : ذوقوا عذاباً أنكرتموه وهو جزاء أعمالكم .
ويقول الحق من بعد ذلك : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ . . . }

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (59)

و « مفاتيح » هي إما جمع لمفتاح أو جمع لمفتاح . و « المفتاح » هو آلة الفتح ، ومثلها « مبرد » أي آلة البرد . وآلة الفتح هي المفتاح . و « مفتاح » هو الشيء الذي يقع عليه الفتح مثل الخزانة ، ونعلم أن بعض الأسماء تأتي على وزن « مفعّل » أو « مفعال » . فإذا أخذنا « مفاتيح » على أساس أنها جمع لمفتاح ، فمعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التي تفتح على الغيب . وإن أخذنا « مفاتيح » على أساس أنها جمع « مفتاح » أي خزانة فمعنى ذلك أن الحق عنده خزائن الغيب . وكلا الأمرين لا زمان له . والخزائن لا يوضع فيها إلا كل نفيس وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح . يقول الحق عن قارون : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكِنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعَصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } [القصص : 76] .
هكذا نعلم أنه لا يوجد مخزون إلا وهو كنز . وعند الحق مفاتيح الغيب ، والغيب هو ما غاب عنك ، وهو نوعان : أمر غائب عنك ومعلوم لغيرك؛ وهو غيب غير مطلق ولكنه غيب إضافي . ومثال ذلك ، عندما يقوم نشال بسرقة حافظة نقودك وأنت في الطريق ، أنت لا تعرف أين نقودك ، ولكن اللص يعرف تماماً مكان ما سرق منك . هكذا ترى أنه يوجد فارق بين غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

ولكن هناك ما يغيب عنك وعن غيرك ، ولهذا الغيب مقدمات إن أخذ الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب ، وهذا ما نراه في الاكتشافات العلمية التي تولد أسرارها بأخذ العلماء

بالأسباب التي وضعها الله في الكون ، وهو لون من الغيب الإضافي . وهناك لون ثالث من الغيب هو الغيب المطلق ، وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، مثل ميعاد اليوم الآخر ، وغير ذلك من الغيب الذي يحتفظ الله به لنفسه .

ولذلك نقول : إنه لا يوجد أبداً في هذه الدنيا عالمٌ غيبٍ إلا الله . وعنده سبحانه مفاتيح الغيب ، هذا الغيب الذي لا نحس به حساً مشهوداً بالمدركات ، أو كان غيباً بالمقدمات أي أنه ليس له أسباب يمكن لأحد أن يأخذ بها .

ويقول الحق : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [الأنعام : 59] .

الحق سبحانه وتعالى - إيناساً لخلقه - حينما يأتي لهم بأمر غير محس لهم ، فإنه يوضح ذلك بالحس . وعالم المشهد المحس إما مسموع وإما مرئي وإما متذوق وإما ملموس . وهناك عالم الغيب ، فقد يصطفي الله بعضاً من خلقه ليلقي إليهم هباتٍ من فيضه وعطائه توضح بعض الأمور ، ومثال ذلك العبد الصالح الذي سار معه موسى عليه السلام وقال :

{ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف : 82] .

ومثل هذه الهبة تأتي لتثبت لصاحبها أنه على علاقة بربه ، ولا يعطي الحق سبحانه هذه الهبات لتصبح عملاً ملازماً للإنسان ، وجزءاً من طبيعته بحيث نذهب إليه في كل أمر فيخبرنا بما ينبغي علينا أن نقوم به . إن الأمر ليس كذلك بل هي مجرد هبات صفائية ، يمنحها - سبحانه - وينزعها ويمنعها؛ فسبحانه عنده مفاتيح كل الغيب ، ويأتي لنا بالعالم المحسوس : { وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } . وأتى الحق بالبر أولاً قبل البحر ، والبر محس لكل الناس بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأناس وبلاد وطرق . وهناك من البلاد ما لا تطل على بحار أبداً ، ولذلك جاء الحق بالبر أولاً ، ثم جاء بالبحر الذي يمكن أن يُشاهد ، ولكن عالم البحر أخفى من عالم البر . وعوالم البحر تأخذ من مسطح الكرة الأرضية مساحات كبيرة للغاية وكل يوم نكتشف في عالم البحار جديداً .

ومن بعد ذلك يردنا الحق إلى البر مرة أخرى فيقول : { وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا } [الأنعام : 59] .

إلى هذه الدرجة يوضح لنا الحق علمه الأزلي؛ فسبحانه يعلم كل ما يتعلق بورقة شجرة بعد أن تؤدي مهمتها من التمثيل الكلورفيلي وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض . والسقوط كما نعرفه هو هبوط شيء مادي إلى أسفل ، وفسره العلماء من بعد ذلك بالجاذبية الأرضية .

وعندما تسقط الورقة من الشجرة تكون خفيفة الوزن ، والحق سبحانه وتعالى هو المتصرف في الأجواء التي تحيط بمجال هبوطها ، وحركة الريح التي تحركها . ولماذا جاء الحق بمسألة الورقة هذه؟ جاء لنا الحق بمثل هذا المثل لنعلم أنه عندما ذيل الحق سبحانه الآية السابقة بقوله : { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ } [الأنعام : 58] .

إن هذا التذييل قد احتاج إلى أن يشرحه لنا الحق بأن يعلم أوقات تحركات كل ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم ، فضلا على أن هذه الأمور لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب ، فكيف بالأمور التي يترتب عليها الثواب والعقاب؟ لا بد أنه سبحانه وتعالى يعلمها ويفصل فيها . { وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ } [الأنعام : 59]

إنه سبحانه أيضاً يعلم بالحبّة التي تختفي في باطن الأرض وأحوالها . ويقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام : 59] . أي أنه جلت قدرته يعلم أمر كل كائن في هذا العالم؛ لأن كل كائن في هذه الدنيا إما رطب وإما يابس ، وسبحانه لا يعلم ذلك فقط ولكن كل ذلك معلوم له ومكتوب أيضاً .

ويشرف على حركة تلك الكائنات الملائكة المدبرات أمرا ، وحين تجد الملائكة أن حركة الكون تسير بنظام محكم دقيق على وفق ما في الكتاب ، فإنها لا تفتقر عن تسبيح الله ليلاً أو نهاراً : { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } [الأنبياء : 19-20] .

وللحق مُلك السموات والأرض ، ومن حقه وحده أن يُعبَد ، ولا تتكبر الملائكة عن عبادته والخضوع له ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه . وأنت أيها العبد تكون في بعض الأمور مقهوراً ولك في بعض الأمور اختيار ، وهو سبحانه عالم بما ستختار . ويقول الحق من بعد ذلك : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ . . . } .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ (61)

والقاهر هو المتحكم بقدره فائقة محيطة مستوعبة . ولقائل أن يقول : ما دام الحق هو القاهر فكيف يكفر الكافر وكيف يعصي العاصي؟ . ونقول : إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصي . ولكن الحق أوجد في الإنسان اضطراريات وقهريات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد . ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرو أن يسحب هذا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت .

والمتنرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذي خلقه الله فيه ، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شيء للإنسان فيهما ، وكذلك هو سبحانه له تصريف أمور الغنى والفقر ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التي تحدث له وإن تمرد على منهج الله؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذي أودعه في الإنسان . { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتَ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ } [الأنعام : 61] .
 وحين يتكلم الحق سبحانه عن ذاته ونفسه ، قد يتكلم بضمير المتكلم . فيقول : { إِنِّي أَنَا اللَّهُ } [طه : 14] .

وقد يقول سبحانه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .
 ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة مثل قوله هنا : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام : 61] .

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إنَّ المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت . لكن الذي يتكلم بضمير الغيبة لا بد أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير . وحين يتكلم الحق عن ذاته بما يسمى لدينا ضمير الغيبة فإنه - سبحانه - يريد أن يبين لنا أنه في أجلى مجال المشاهدة والحضور؛ فكأنه إذا قال « هو » لا تنصرف إلا إلى ذاته العليا؛ فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو ، ولذلك يقول : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] .

وسبحانه يقول : « هو » قبل أن يذكر المرجع ، وهو « الله »؛ مع أن الأصل في المرجع أن يتقدم ، ولكنه يقول : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص : 1]
 فكأنه إذا أُطلق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته . وحين يتكلم بضمير المتكلم نراه يتكلم عن ذاته بضمير الإفراد فيقول : { إِنِّي أَنَا اللَّهُ } [طه : 14] .

ويقول مرة أخرى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .
 لماذا؟ . إنه سبحانه إن تكلم عن فعل من أفعاله نجد أن كل فعل من أفعاله يتطلب صفات الكمال كلها فيه ، لأنه يتطلب علماً بما يتكلم به ، ويتطلب قدرة لإبرازه ، ويتطلب حكمة ، ويتطلب صفات كثيرة ، فإذا قال سبحانه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .

فالتنزيل فعل ، والفعل يقتضي صفات متعددة . فلا بد أن يأتي بضمير التعظيم وهو الجمع؛ لأن كل صفات الكمال متجلية في التنزيل .

ولكن إن تكلم عن الذات في التوحيد لا يأتي بضمير الجمع أبداً؛ لأنه يريد أن تنفي عن ذاته أنه متعدد؛ لأنه هو الواحد الذي لا شريك له ، فحين يتكلم عن الذات يقول : { إِنِّي أَنَا اللَّهُ } . . .
 { طه : 14 } .

وحين يتكلم عن الذكر يقول : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ . . . } [الحجر : 9] .
ففي مجال التعظيم والتنزيل الذي يتطلب تجلي كثير من صفاته - جل شأنه - يأتي بضمير الجمع ، وفي التوحيد والتفرد ونفي الشريك يأتي بضمير الأفراد .

هنا يقول سبحانه : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ . . . } [الأنعام : 61] .
وكلمة « قاهر » إذا سمعتها تتطلب مقهوراً . وما دام هناك قاهر ومقهور ففي ذلك ميزانان بين مجالين . وما دام هو قاهراً ففي أي مجال وبأية طريقة سيكون الطرف الثاني مقهوراً له؟ إننا نعلم أن كل شيء في الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر الغنى فأفقر ، وقهر الفقر فأغنى . وقهر الصحة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .
إذن فكل شيء في الوجود مقهور لله حتى الروح التي جعلها الله مصدر الحس والحركة للإنسان يقهرها سبحانه . فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه على المكان الذي لا توجد عند عدمه وفقده حياة بأن أذهب صلاحيته للبقاء تنسحب الروح . وهذا يوضح لنا أن الروح في الجسم هي المسيطرة ، لكن من ينقض البنية التي تسكنها الروح يُذهب الروح ويخرجها من الجسم . ومرة يقهر المادة بالروح ، فيأخذ الروح من غير آفة ومن غير أية إصابة ويتحول الجسم إلى رمة . إذن فسبحانه يقهر الروح ، ويقهر المادة ، ولا توجد متقابلات في الوجود عالية ومتأبئة .

ومتمرتدة عليه - سبحانه - : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام : 61] .
والقاهر هو المنتحكم بقدره شاملة على المقهور . وانظر أي تقابل في الحياة تجده مديناً وخاضعاً لصفة القهر . { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } وكلمة « فوق » تقتضي مكانية . ولكن المكانية تحديد ، وما دام القهر يتطلب قدرة فهل يعني ذلك أن القادر لا بد أن يكون في مكان أعلى؟ لأننا نجد - على سبيل المثال والله المثل الأعلى - من يضع قبلة تحت العمارة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضي الفوقية المكانية ، إذن فالفوقية المرادة هي فوقية الاستعلاء ، ونحن عندما تكلمنا عن الحق سبحانه وتعالى أوضحنا أن نلتزم بإطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } فهو ذات لا ككل الذوات . وصفاته ليست ككل الصفات ، وكذلك تأتي ونقول في فعله ، وعلى سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلى زمن ويحتاجون إلى علاج ، وكل جزئية من الفعل تحتاج إلى جزئية من الزمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أحتاج فعله إلى زمن؟ لا؛ لأنه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العملية ، إنما يفعل سبحانه ب « كن » ، إذن القهر في قوله : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } هو قهر الاستعلاء .

ولذلك يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة لآخر رمضان » .

ففي آية ليلة ينزل فيها الله؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك؟ أم الليلة التي تشرق الشمس فيها في

مكان ، وتغيب عن مكان آخر؟ إذن ، فكل واحد من المليون من الثانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أن الله معك ومع غيرك ، باسطة لك ولغيرك يده . { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة : 64] .

لذلك لا تفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين؛ لأن يده مبسوطة في كل زمان وفي كل مكان وليس كمثله شيء .

{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } . وعباده من مادة العين والباء والذال ، ومفردتها « عَبْدٌ » ، وجمعها يكون مرة « عبيداً » وأخرى « عباداً » . و « العباد » هم المقهورون لله فيما لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضاً المنقادون لحكم الله فيما لهم فيه اختيار؛ لأن الإنسان مقهور في بعض الأمور ولا تصرف له فيها : لا تصرف له في نفسه ، ولا تصرف له في نبضات قلبه ، ولا تصرف له في حركة المعدة ، ولا تصرف له في حركة الأمعاء ، ولا تصرف له في حركة الحالبين ، ولا تصرف له في حركة الكلى ، وكلها مسائل تشمل المؤمن والكافر ، والكل مقهور فيها .

إن من رحمة الله أننا مقهورون فيها ولا رأى لنا؛ لأنه لو كان لنا رأي في مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظم عملية تنفسنا في أثناء النوم؟ . إذن فمن رحمة الله أن منع عنا الاختيار في بعض الأمور التي تمس حياتنا . ومن رحمة الله أن كلاً منا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمي الطعام؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلى بالعمل؟! .

إذن فكل أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أما الأمر الذي لك فيه اختيار فهو مناط التكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : « افعل » إلا وأنت صالح ألا تفعل ، ولا يقول لك « لا تفعل » إلا وأنت صالح أن تفعل .

إذن الأمور الاختيارية هي التي وردت فيها « افعل » و « لا تفعل » . وهي الأمور التي فيها التكليف . ومن يطع ربنا في منهج التكليف يصبح وكأنه مقهور للحكم ، ويكون ممن يسميهم الله « عباداً » ، فكأنهم تنازلوا عن اختيارهم في الأحكام التكليفية ، وقالوا : يارب لن نفعل إلا ما يريد منهنجك .

وكل منهم ينفذ حكم الله فيما له اختيار ألا ينفذه . أما العبيد فهم من يتمردون على التكليف ، فالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ هُمْ عِبَادُهُ . ولذلك يقول الحق : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . . . } [الزمر : 53] .

ويوضح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } [الفرقان : 63] .

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم في الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كلفَ به ، وهم في الأمور التي لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أما المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدة في القرآن وهي التي تثير بعض الجدل في مثل هذا الموضوع . ساعة يقول الحق سبحانه وتعالى عما يحدث في الآخرة : { أَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ . . . } [الفرقان : 17] .
وكان « عبادي » هنا أطلقت على الضالين ، ويقول : نعم ؛ لأن الكل في الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن في الدنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم متمرّدون في الاختيارات . { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً } [الأنعام : 61] .
ومع مجيء معنى القهر يرسل الحق حفظة ، وإذا كان القهر يعني الغلبة والتملك والسيطرة والقدرة ، فهو قهار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول في موقع آخر : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ } [الرعد : 11] .
وهكذا يكون قهر الله لنا ، لمصلحتنا نحن ؛ لأن الضعيف حين يقهره جبار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهار الأعلى ، وفي هذا تذكير للقوى نسبياً أن هناك قهاراً فوق كل الكائنات ، فالله قهار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوي عن قهره ، فيمتنع عن الذنب ، وتمتنع عنه العقوبة ، وفي ذلك رحمة له .

{ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً } [الأنعام : 61] .
وجاء معنى « الحفظة » في القرآن في قوله الحق : { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18] .

فكل لفظ له رقيب عتيد ، حفظة أي ملائكة يحفظون ويحسون أعمالكم ويسجلونها وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا فهماً للمعاني الغيبية ، وإن كانت المعاني الغيبية التي نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع ، ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط ، هكذا قال ربنا فأما بما قال وانتهت المسألة ، وهذا هو المطلوب . ولذلك قال الحق : { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة : 3] .

لأن الإيمان لو كان بالمشهد فما الفرق - إذن - بين الناس؟ إن الإيمان في كماله وقمته هو الإيمان بالغيب ، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18] .

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ، ويكتبون السيئات . وحين ننظر إلى البشر ، نجدهم يتفاوتون ويرتفع بعض منهم على بعض في صفات وقدرات ، وكلما تقدّم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار الله يترقى به .

وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ثم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل ، إذن كلما تقدمت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، وينثرونها في أي مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس ، إذن كلما قويت قدرة الصانع دقت الصنعة . فإذا نسبتها لله ، فأين دقة الذي صنعته أنت بجانب دقة صنعة الله؟ فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتي بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته في الصنعة محدودة ، فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم وستحصى عليك أعمالك وهم غيب فقل على العين والرأس ، وسبحانه القائل : { كِرَامًا كَاتِبِينَ } [الانفطار : 11] .

وهنا يقول الحق : { وَرُسُلٌ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ } [الأنعام : 61] . وعندما أراد العلماء أن يعرفوا الموت قالوا : الموت سهم أرسل ، وعمرك بقدر سفره إليك ، هو إذن سهم قد انطلق ، لكن عمرك يُقدَّر بمقدار سفره إليك ، وحين يقول الحق : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ } فهو ينسب الموت لمن؟ . لقد أجهم الله زمانه ، وأجهم مكانه ، وأجهم سببه ، وأجهم قدره ، وهذا الإجهام هو أشد أنواع البيان؛ لأنه ما دام قد أجهمه في كل هذه الأمور يجب أن نستعد للقائه في كل زمان ، وفي كل مكان ، وبأي سبب .

وإياك أن تتعجب لأنه يحدث في أي سن ، فإجهام الحق له هو أكبر بيان؛ لأنه سبحانه لو حدده زماناً أو سناً أو سبباً؛ لكان على الإنسان أن ينتظر الموت ، لكن شاء هذا الإجهام وهو أقوى أنواع البيان ، ليلفتك ويحثك على أن تنتظره في أي زمان وفي أي مكان وبأي سبب وفي أي سن ، وبهذا يكون الموت واضحاً أمامنا جميعاً ، ولذلك تحشى ارتكاب أي ذنب حتى لا تقبض روحك وأنت على الذنب؛ لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ .

وعندما يؤذن لصلاة الظهر ولم تصله ، قد تقول : إن وقته ممتد ، وتجد من يقول لك : اضمن لي أنك ستعيش إلى أن ينتهي وقت الظهر . « ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : عندما سأله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قائلاً : أي الأعمال أفضل؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أي؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أي؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » .

إنك لا تضمن من عمرك أن تعيش إلى آخر الوقت . ولذلك عندما نقول : إن الإجهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نصدق ذلك؛ لأن البعض يقول : لماذا لم يبين الله لنا ذلك؟ ودائماً أقول : لقد أوضح الله ما أجهم ، فإن الإجهام هو أقوى بيان ، ألم نر إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه في مسألة فكان الطبيب سبب موته؟ لقد رأينا ذلك . لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب ولم يمنع ذلك أن قدر الله قد نفذ فيه .

ولذلك قال شوقي - رحمة الله عليه - :

أسد لعمرك من يموت بظفره عند ... اللقاء كمن يموت بناه

إن نام عنك فكل طب نافع ... أو لم ينم فالطب من أذنايه

فقد يخطئ الطبيب - مثلاً - في إعطاء حقنة - فتنتهي الحياة ويقولون : خطأ الطبيب إصابة الأقدار .

مصدقا لقوله تعالى : { حتى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ الموتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [الأنعام : 61] .

وعندما تأتي كلمة « توفى » تجدها في القرآن دائرة على ثلاثة ألوان : اللون الأول هو قول الحق :

{ الله يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } [الزمر : 42] .

وقوله سبحانه : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموتِ } [السجدة : 11] .

ومرة يقول الحق سبحانه : { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [الأنعام : 61] .

سبحانه - إذن - ينسب الموت له وملك الموت ، ولرسله .

وهل الرسل يأخذون الأرواح ويقبضونها إلا بإذن من ملك الموت؟ إنهم جنوده ، فلا أحد يميت

دون إذن من الله ، فأخذ الأرواح وقبضها إلى الله أمراً ، وإلى ملك الموت وسيلة وواسطة ، وإلى

الرسل تنفيذاً .

{ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ } [الأنعام : 61]

من أين يأتي التفريط؟ لقد تقدم في هذه الآية شيان اثنان : حفظة يحفظون عليك تصرفاتك

وفعالك ، وهم يأخذون الروح أيضاً . وهؤلاء الملائكة لا يفرطون في هذه المهمة أو تلك . وحين

ننظر في مادة ال « فاء » ، وال « الراء » وال « الطاء » نجدها تأتي مرة « فرط » ، ومرة «

أفرط » . ومن العجيب أنها تأتي للمتقابلين؛ ففرط في الشيء أي أهمله ، وأفرط في الشيء أي

جاوز الحد والقدر في الحدث .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ } أي لا يهملون ولا يقصرون . وفي إحدى قراءات

القرآن نجد من يقرأ : « لا يفرطون » بالتخفيف ، والمقصود أنهم لا يتجاوزون الحد . ولذلك نجد

الحق يقول : { فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف : 34] .

ويقول الحق من بعد ذلك : { ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ . . . }

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62)

وكلمة « ردوا » تفيداً أن كان لهم التقاء به أولاً ، وبعد ذلك سوف يرجعون ، كيف؟ لقد كانوا

منه إيجاباً ثم ردوا إليه حساباً ثواباً وعقاباً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ

وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . } [طه : 55] .

{ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ } وكلمة « مولى » تعني أنه هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من هو

قريب منك . وهذا القريب قد يكون منجدا لك إن حدث لك ما يفزعك وهو الذي يُعينك ، وهكذا أخذت كلمة « مولى » معنى القريب ، والناصر والمعين الذي تفرع إليه في شدائدك ، وقد يوجد لك مولى في الدنيا وهو من الأغيار . ومن الجائز أن يتغير قلبه عليك ، ومن الجائز أن تنالك الأحداث التي هي فوق قدرته وطاقته ، ومن الجائز أن يكون لك مولى تشده وتطلبه لنصرتك فيرفض؛ لأن خصمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد فيقف بجانب خصمك وقد يوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

لكن هناك في الآخرة مولى حق واحد { ردوا إلى الله مَوْلَاهُمْ الحق } وتطلق كلمة « مولى » على السيد حين يعتق عبده . وحين يعتقنا ربنا من النار أليس في ذلك أعظم ولاية؟ . إنه المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير؛ لأن الأغيار من طبيعة الخلق . وحين يطلب منك الحق أن تُعمل عقلك لأنك حين تعتمد على واحد ينفعلك في أمورك فأنت تتوكل عليه ، وتطلب مساعدته ، وهنا يأمرك الحق بأن تتوكل على الحي الذي لا يموت ، ولا تتكل على واحد من الأغيار فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلّى عنك . أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

{ ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ } . ولماذا جاء بكلمة « الحكم » هنا؟؛ لأننا في دنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه؛ فهذا يحكم ، وذلك يتصرف ، وآخر يصدر قراراً بالتعيينات ، وكلها أحكام ، أما في الآخرة فالحق يقول : { لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر : 16] .

وأنت في الدنيا تملك ، ويكون رزق ابنك - على سبيل المثال - من يدك ، وتملك أن تصدر قراراً بترقية من هو أقل منك ، وتملك أن تخطط الثوب لغيرك إن كانت تلك مهنتك ، ففي الدنيا كل منا يملك بعضاً من أسباب الآخر . لكن في الآخرة لا يوجد شيء من هذا : { لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر : 16] .

وساعة تسمع « ألا له الحكم » ف « ألا » في اللغة أداة تنبيه لما يأتي بعدها ، ولماذا تأتي أداة التنبيه هنا؟ لأن الحكم القادم بعدها حكم مهم . والكلام - كما نعرف - واسطة بين متكلم ومستمع؛ لأن المتكلم ينقل أفكاره وخواطره توجد في خياله نسبة ذهنية ، أي أنه يعايش مشروع الكلام ويتدبره قبل أن يتكلم ، أما السامع فهو يفاجأ ، وعندما تريد أن تقول أمراً مُهمّاً فأنت تحاول أن تضمن انتباه السامع حتى لا تفلت منه أية جزئية من كلامك ، فتقول : « ألا » لتشد انتباه السامع تماما .

والحق هنا يقول : « ألا » ليأخذ انتباه السامع ، ويأتي بعدها قوله : { لَهُ الْحُكْمُ } .

إذن : ساعة تسمع « ألا » فاعرف أن فيها تنبيهاً لأمر قادم { لَهُ الْحُكْمُ } .

والحكم : هو الفصل بين أمرين ، ويختلف الفصل بين أمرين باختلاف الحاكم؛ فإن كان الحاكم له هوى فالحكم يميل ، لكن الفصل بين الأمرين يجب أن يكون بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضي أن تكون له كفة هنا وكفة تقابلها ، وساعة ما تضبط الميزان نحاول أن نوازن الكفتين لفصل بين مسألتين ملتحمتين ، وما دما نريد التساوي فنحن نسمي ذلك : الإنصاف ، أي أن نقف في النصف دون ميل أو حيف .

{ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ } وساعة يسمع إنسان { أَلَا لَهُ الْحُكْمُ } فالواحد منا يعلم أنه سبحانه يحكم بين الخلق بداية من آدم إلى أن تنتهي الدنيا ، وكل واحد منا تتشابك مسأله مع غيره ، وما دام الله الحكم فليس لغيره معه حكم ، ويحكم بين الخلق جميعاً وفعله لا يحتاج إلى زمن ، وتذكر هنا الإمام علياً - كرم الله وجهه - حين قالوا له : كيف يحاسب ربنا الناس جميعاً في وقت واحد ، ومقدار حلب شاة كما قال بعضهم؟ فقال الإمام عليّ : « كما يرزقهم في وقت واحد يحاسبهم في وقت واحد » ، وهذه مسألة سهلة ليس فيها أدنى صعوبة أبداً . وقديماً عندما كانوا ينيرون الطرقات كانوا يشعلون المسارج : هنا مسرجة ، وهناك مسرجة ، وعلى البعد مسرجة ثالثة ، وكان الوقاد يمشي ليشعل المسارج . . إلخ ، وارتقى العقل البشري المخلوق لله واستطاع أن ينيّر الطرقات بالطاقة الكهربائية أو الطاقة الشمسية وفي وقت واحد . ويقول الحق بعد ذلك : { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتٍ . . . } .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63)

المتعب للخلق أن تأتي الظلمة وتكون في مهمة النور ، وأن يأتي النور في مهمة الظلمة ، فلكل من الظلمات والنور ودور مهمة في الحياة . ولذلك قلنا في أول السورة حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً : { الحمد لله الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ . . . } [الأنعام : 1] .

لقد ظن البعض أن المفترض أن يقول سبحانه : وجعل النور والظلمات ، ولكن لتلمس القول الحق ، ولنعترف أن مهمة الظلمة تتساوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان أن يعي مهمة الظلمة ، وكلنا يعرف مهمة النور الذي يعيننا على السعي على أمور حياتنا ، ويتطلب السعي طاقة ، ولا يمكن أن تأتي الطاقة إلا بعد سكون وهدوء واطمئنان وراحة؛ لذلك فالراحة تحتاج إلى ظلمة لينام الإنسان ويستريح ، إذن فالظلمة نعمة من نعم الله ، والذي يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الظلمة مكان النور ، وهذا خروج عن مهمة كل متقابلين . وحين ينشئ الحق المتقابلات لا ينشئها على أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه - سبحانه - يريد متكاملًا يعين متكاملًا ، فلا شيء يهدم شيئًا مقابلًا له ، بل كل متكامل يساعد الآخر .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى } [الليل : 1-2] .
وقد جاء سبحانه بالليل أولاً ، والنهار ثانياً ، ولكل منهما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدي مهمة
النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأدّيت على حقيقتها . وهات إنساناً لم يأخذ من
الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قرص ولسع الناموس أو البراغيث ، أو من ضجيج
وخلافه ، ولم ينم ، ثم في الصباح تجده نصف نائم ، نصف مرهق ، غير قادر على التركيز أو كما
يقولون « مذهول » .

إذن فمن أجل حركة الضوء لا بد أن توجد الظلمة : { والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى } [الليل : 1-2]

الليل والنهار - إذن نعمتان ، وكل نعمة تساوي الأخرى ، وإياك أن تقول هذه ضد تلك ، أو
أنها جاءت لتعاندها ، لا . لقد جاءت كل منهما لتساند الأخرى . وفي سورة الليل يتابع الحق :
{ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى } [الليل : 3]

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإياك أن تظن أنهما متعاندان فقد جعلهما الله متكاملين لتنجح
الحياة . وإن تعاندا تفسد الحياة . وما دام الليل له مهمة والنهار له مهمة ، إذن فالذكر له مهمة
، والأنثى لها مهمة . وإن خلطت المهمتين ينتج الفساد . { والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى
* وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى } [الليل : 1-4]

ويقول الحق هنا : { قُلْ مَنْ يُنجِيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ
هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأنعام : 63]

والظلمة - إذن - هي عدم النور . ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة واحدة ، وإنما
طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهي ظلمات متراكمة؛ لأن الظلمة إذا ما عُشيت بظلمة ثانية
، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

والحق سبحانه قال : { ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، وحتى نعرف أهي ظلمات حسية أم ظلمات
معنوية لا بد لنا أن نعرف الظلمة في معناها الحسي ، إنما ما يؤدي إلى عدم الاهتداء إلى الحركة
المنجية ، إذن فكل أمر يؤدي إلى عدم الاهتداء - حسياً أو معنوياً - هو ظلمة؛ لأن الإنسان في
هذه الحالة يسير في أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التي يصعب على الناس أن يعرفوا
طريق النجاة منها تُعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمة حسية أم معنوية .

والحق سبحانه وتعالى يقرب لنا المعنويات بالأمر الحسية ، والمراد بالظلمات هنا هي الأحداث
والكوارث والنوازل التي تضيق أسباب البشر عن النجاة منها . والإنسان حريص دائماً على نفع
نفسه . وتظهر التناقضات في أفعال إنسان عن أفعال إنسان آخر لاختلاف كل منهما في تقييم
وتقدير النفعية . والمثال على ذلك واضح ونضربه دائماً هو : مثال التلميذ الذي يذهب صباحاً

مبكراً إلى مدرسته ، وينتبه إلى أساتذته ، ويعود إلى منزله ليؤدي واجبه ، ويخرج من لذيد الكسل ليجد لذة في العمل ، إنَّه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها . أما التلميذ الذي ينام يوقظه أهله فلا يستيقظ ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت ليتسكع في الطريق ، مثل هذا التلميذ يجب نفسه حباً أحمق لأنه يريد اللذة العاجلة التي تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه ينتظر مستقبلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجتهد الذي يتبوأ المكانة اللائقة به .

والمثال الواضح أيضاً في الريف هو الفلاح الذي يقضي وقته على المقهى ويسهر الليل أمام التلفزيون ويترك الأرض بلا حرث ولا رى ولا تسميد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض التي يفلحها محصولاً مساوياً لأرض الفلاح الذي يأخذ بأسباب الله فيحرق الأرض وينتظم في ربيها في المواعيد المحددة ، ويضع السماد المقرر لها؛ لأن الذي أخذ بأسباب الله وتعب وبذل جهداً لا بد أن يعطيه الحَقُّ الرزق الوفير . أما الذي يكسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحمق قصير الأجل ، وأما الذي أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقدد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره .

إن كل حركة يصنعها الإنسان في الحياة إنما يريد بها نفع نفسه ، ولكنَّ هناك اختلاف في تقدير النفعية بين إنسان وآخر ، والعامل من يرى النفعية الآجلة المجدية ويعمل لها . وهاهوذا المتنبي الشاعر العربي يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه ... حريصا عليها مستهماً بما صباً
فحب الجبان النفس أوردته النقي ... وحب الشجاع النفس أوردته الحربا
حب الشجاع لنفسه - إذن - جعله طموحاً إلى الحياة الخالدة كشهيد في سبيل الله ، وحب الجبان لنفسه جعله أسير الخوف على الحياة الفانية .

فإذا ما صُدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث نرى نفعيته وهي تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة ، ويعتمد على أسبابه أو أسباب من هو قريب منه ، أما إذا عزت أسباب البشر . وكان غافلاً عن الله ، فإن الأحداث والمصائب والكوارث تعيده وتذكره بخالفه فيقول : « يارب » ، وبذلك لا يبيع نفسه رخيصة . لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من البداية وأعرض عن الله تمرد على ربه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله في وقت الشدة ، فإن انجاب وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده . ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرِّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً } [الإسراء :

[67

ونجد الذين يقابلون الأهوال وتنتهي أسبابهم لا يكذبون على أنفسهم . بل يتجهون فطرياً إلى الحق القادر على الأخذ بأيديهم . فلحظة أن تضطرب سفينة وتحيطها عواصف الموج والرياح ،

وتحتل آلتها لا تجد إلا كلمة : يارب ، يارب ، يارب على السنة كل ركابها بداية من « القبطان »
والقائد إلى أصغر راكب بها ، وتجد من يتمنم بآيات القرآن توسلاً إلى الله للنجاة . وكذلك لحظة
أن تضطرب طائرة في الجو ، ولا يعرف قائدها طريقاً للنجاة لا يقفز إلى أذهان الركاب وطاقم
الطائرة إلا نداء التضرع إلى الله .

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه : { ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ } ودعوة الإنسان ربّه ومولاه هي
الوسيلة الأولى من وسائل اليقين ، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين؛ أمر يبسط
ويسعد الإنسان ، وأمر يقبض ويضيق على الإنسان ويشقى به ، فأما الذي يبسط ويسعد فهو
إدراك الجمال ، والنعمة والراحة ، والسعادة ، والإحساس بالرضى . وأما الذي يضيق على
الإنسان ويشقيه فهو يريد أن يفلت منه وينجو .

ولنا العبرة الكاملة من الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها ، فالإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده
، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول : « الله » . وهي صيحة التقدير والتقدير لله الذي أعطاه
موهبة إتقان العمل . وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يدهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته : «
يارب » . إذن فلا ملجأ إلا إلى الله .

{ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التي لا بد أن يقرها
السامع لهذا السؤال وهي : إن الله هو المنجي من ظلمات البر والبحر . وحين يأمر الحق رسوله
أن يقول هذا التساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة الفطرة هي التي ستغلب على السنة
الكافرين ويعترفون به سبحانه وحده بأنه هو المنجي من ظلمات البر والبحر . والكون - كما
نعلم - إما بر وإما بحر . ولقائل أن يقول : ولكن هناك كوارث جديدة في عصرنا هي كوارث
الجو .

؟

ونقول : يجب أن تفهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه . فجو البر من البر ، وجو البحر من البحر
، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة في المسجد الحرام؛ فنحن نرى المصلين يؤدون الصلاة حول
الكعبة أو في الدور والطابق الأول أو الثاني أو الثالث من المباني المقامة كمسجد حول الكعبة .
ونلاحظ أن ارتفاع الكعبة لا يزيد على ارتفاع دور واحد من أدوار المباني التي حولها . والمصلون
يتجهون في صلواتهم في تلك الأدوار إلى جو الكعبة ، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس
أيضاً ، وجو الحرم من الحرم .

ومثال آخر هو السعي بين الصفا والمروة؛ فالمسلم يسعى بين الصفا والمروة في الدور الأرضي ،
وهناك الآن دور ثان أقيم للسعي . وهكذا نرى أن جو المسعى مسعى أيضاً . وقدماً كان محرماً
على الطائرات أن تطير في جو مكة أو المدينة . حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير

المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم في الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقودوا طائراتهم في أجواء مكة والمدينة المنورة . فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان براً أم بحراً .

{ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } إن الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضي طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوباً منه . والطالب هو من يدعو . والمطلوب منه هو من ندعوه ونسأله . والمطلوب هو الشيء الذي نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من الأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء .

وفي اللغة عندما نسأل الطالب أن يقوم بإعراب « رب اغفر لي » ، نجد الذي استذكر دروسه دون تفقه يقول : « اغفر فعل أمر » ، أما الطالب المتفقه في فهم دينه مع إجادة لدراسته فيقول بأدب الإيمان : اغفر هي فعل دعاء؛ لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوي للمساوي فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر . وحين ننظر إلى الحالة النفسية لمن تحيطه الكوارث والأحداث والنوازل وتضغط عليه الظروف ولا يجد من ينقذه ، هل مثل هذا الإنسان يأمر أو يدعو إنه يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتذلل وامتنال وخضوع ، وهذا معنى الدعاء . . . إنه السؤال بتضرع وخضوع ، والتضرع يقتضي قولاً ، ويقتضي فعلاً ويكون التضرع بالوجدانيات والسلوكيات . ويخطئ من يظن أن هناك تضرعاً بالقول دون أن يربط ذلك بفعل ، فعندما تكون في موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن تتفضل عليه بشيء ، فهذا منه تضرع بالقول . لكن عندما تكون في موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضرع بالقول والفعل . وفي لحظة الخطر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون في قلبه ذرة من نفاق؛ لأن الحق يقول : { تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } .

والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس في ذلك رياء؛ لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلا الخالق الباري ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة أوروبية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت في قراءتها إلى أسباب نزول قوله الحق : { وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } [المائدة : 67] .

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : ألا من رجل صالح يحرسنا الليلة؟ وبينما هي تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلاناً عن مقدم سعد وحذيفة وقالوا :

جئنا نحرسك يا رسول الله . ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة

غطيطه ، ثم نزل عليه الوحي بهذا القرآن الكريم : { وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } [المائدة : 67] .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله » . وعندما قرأت المرأة الأوربية هذه الحكاية في تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وأحسنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة : لو كان محمد يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه في حياته . لقد أدركت هذه المرأة بالفطنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة في أن الله يحميه ، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه . والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية . والدعاء - كما علمنا - يحتاج إلى قول وفعل ووجدان . وهذه الأركان الثلاثة تتوافر في قوله الحق : { تَدْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأنعام : 63] .

فكلمة (تدعونه) : قول و (تضرعاً) : فعل لأنه خشوع وخضوع - و (خفية) : انكسار القلب وخشيته و « أنجانا » تدل على التعدد؛ لأن الفعل للتجدد والحدوث وأيضاً قوله : { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ } يدل على التكرير ، أي أنه لا ينجي مرة واحدة ولكنه ينجي لمرات كثيرة . ويأتي لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجينا إما بتكرار النجاة أو بتعدي النجاة من موقف لموقف . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجي الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطلب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجي الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة . وسبحانه القائل : { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ } [يونس : 12] .

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر في نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضعفه ودعا ربه في أي حالة من حالاته - سواء أكان مضطجعاً أم قاعداً أم قائماً - حتى يكشف الله عنه هذا البلاء ، وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان ينسى هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عنه الضر .

والحق سبحانه يقول : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّاکُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } [الإسراء : 67] .

وسبحانه - هنا - يُذَكِّرُ المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر في البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا الله حتى ينجيهم من الغرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والجدود بنعمته سبحانه . وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها .

{ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِن أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأنعام : 63] .

لقد دعوا الله بالتضرع والتذلل أن ينجيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن يكونوا من الشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله؟
يقول الحق سبحانه : { قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ . . . }

قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية في البر والبحر ، وسبحانه بعلمه الأزلي يعلم أنهم بعد النجاة سيعودون إلى ما نأههم عنه من شرك به؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكنتية بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق تبارك وتعالى : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى } [العلق : 7-6] .

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح في بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا في ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرضى الله في كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله ، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواحد . ولذلك نجد أن كلمة « الإنسان » إذا أطلقت تقترن بالخسارة . { والعصر * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } [العصر : 1-2] .

أي أن الإنسان على إطلاقه في خسر . ولكن الحق يستثنى من؟ . . . { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر : 3] .

إذن فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذي يحيا في خسران ، لكن من يعيش في رحاب المنهج هو الذي لا يخسر أبداً . والإنسانحين يعيش دون منهج يصدر ويحدث منه ما رواه الحق سبحانه : { فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر : 49] .

لأن الذي يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضر ، فإذا ما أنجاه الله ادعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد في الادعاء وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده هو ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقي وهو الله ، إنه نسي أن كل نعمة هي مجرد اختبار من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك : { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ . . . }

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)

وكلمة « قادر » تعني تمام التمكّن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يملي للقوم الظالمين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتي العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم الكعبة ، فسلط عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، جعلتهم كعصف مأكول ، وهناك من أخذهم الحق بالصيحة ، وهناك من أهلكتهم بريح صرصر عاتية ، وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام .

أما قارون فقد خسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك قوم فرعون أغرقتهم المياه ، وهذه هي التحتية . فالعذاب قد يأتي من فوق أو من تحت الأرجل حسياً ، وقد يأتي أيضاً من فوقية أو تحتية معنوية ، ومثال ذلك العذاب الذي يسلطه الله على الطغاة الكبار المستبدين ، وقد يأتي العذاب من الفئات الفقيرة التي تعيش أسفل السلم الاجتماعي .

{ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } [الأنعام : 65] .

والمقصود بلبس الأمر أي خلطه بصورة لا يتبينها الرائي . و « شيعاً » هي جمع « شيعه » . والشيعه هم : المتعاونون على أمر ولو كان باطلاً ، ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة . والمقصود بقوله الحق : { أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا } أي أن كل جماعة منكم تتفرق ويكون لكل منهم أمير ، وتختلط الأمور بين الاختلافات المذهبية التي تختفي وراء الأهواء ، وبذلك يذيق الله الناس بأس بعضهم بعضاً .

ولماذا كل ذلك؟ لأن الناس ما دامت فد انفرطت عن منهج الله نجد الحق يترك بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إذافة غيرهم العذاب . ولكن أغير ذلك في ملك الله ونواميسه الثابتة من شيء؟ أبداً ، فالسما هي السماء ، والأرض بعناصرها هي الأرض ، والشمس هي الشمس ، والقمر هو القمر ، والنجوم هي النجوم ، والمطر هو المطر .

إن الذي يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بأس بعض ، ويصير كل بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر . وعندما نرى الناس تشكو ، نعلم أن الناس كلها مذنبه ، ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلا بد أن يسلط الحق بعضنا على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد انفلتوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب ، ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله؛ لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان مؤمن على أخيه المؤمن . والكل يسجد لإله واحد . ولهذا وضع الحق لنا العبادات الجماعية حتى يرى الضعيف في سلطان الدنيا القوي في السلطان وهو يشترك معه في السجود للإله الواحد .

مثال ذلك ما نراه من طواف الناس حول الكعبة في ملابس الإحرام ، إن من بين الذين يطوفون

قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، ومن بين هؤلاء أيضاً نجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة ، ويرى الضعيف نفسه مساوياً لمن في المركز الاجتماعي القوي .

الكل يقف أمام ربه وهو ذليل ويمسك بأستار الكعبة باكباً . ويريد سبحانه بذلك استطرار الغرور بين المؤمنين ويكون الناس جميعاً أمام الله وفي بيته على سواء . { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ مِّنْ بَعْضٍ نَّظَرِ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [الأنعام : 65] .

وها نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيعاً ، إننا نرى المنسوبين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضاً لسنوات طويلة . وإذا كان هؤلاء وأولئك طائفتين مؤمنتين تتقاتلان فأين الطائفة الثالثة التي تفصل بين الطائفتين مصداقاً لقوله الحق : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تِ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات : 9] .

ها هوذا الدم المنسوب إلى الإسلام يسيل ، ويزداد عدد الضحايا ، ومن العجيب أن الآخرين يقفون موقف المتفرج ، أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار . وذلك يدل على أن المسألة طامة وعامة .

والقاعدة التي قلناها من قبل لا تتغير ، القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين؛ لأنه لا يوجد في الأمر الواحد إلا حق واحد . ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل؛ لأن الباطل زهوق وزائل . ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله .

ومثال آخر كنا نراه في بلد كلبنان - إبان الحرب الأهلية - وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده ، وكل إنسان منهم له هواه ، وكل إنسان يذيق غيره العذاب ويذوق من غيره العذاب .

{ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [الأنعام : 65] .

وينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتي لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً في الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا . والفقه هو شدة الفهم . والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التي يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ . . . } .

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66)

ما الذي كذب به القوم؟ المقصود هو القرآن أو المنهج عامة؛ لأن المنهج الإيماني يشمل القرآن ويشمل ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام . فالقرآن معجزة مشتملة على الأصول . وجاء

الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنة لبيّن ويشرّع . ولذلك نرد على هؤلاء الذين يطلبون كل حكم من الأحكام من القرآن ونقول :

إن القرآن جاء معجزة تتكلم عن أصول العقيدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتشريعات التي تكمل المنهج ، ومثال ذلك عدد الصلوات في كل فرض من الفروض الخمسة وعدد ركعات كل فرض من فروض الصلوات الخمس . إن القرآن لم يذكرها ، ولكن أوضحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو القائل في حديث شريف : « صلوا كما رأيتموني أصلي » . والرسول صلى الله عليه وسلم مفوض بالتشريع بنص القرآن الكريم : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [الحشر : 7] .

ونحن نصلي كما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونزكي بنصاب الزكاة الذي حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل سبحانه القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طبق القرآن والسنة . { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : 44] . أي أن هناك من الأمور العقدية التي أنزلها الحق مجملة في القرآن وفصلها للمؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من الحق . وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة بنص القرآن وهي ضمن طاعة الحق سبحانه وتعالى ، فالحق يقول مرة : { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ } [آل عمران : 32] .

وهنا طاعة الرسول غير مكررة إنها ضمن طاعة الله . ويقول سبحانه مرة أخرى : { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } [النور : 54] . أي أن هناك أمراً بإطاعة الله وأمراً بإطاعة الرسول . ومرة ثالثة يقول سبحانه : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا } . وكل ذلك حتى نستوعب الأحكام التي التقت السنة فيها بكتاب الله . وحين قال الحق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء : 59] .

فهو سبحانه لم يأت بطاعة مستقلة لأولي الأمر ولكنه جعلها طاعة من باطن طاعتين هما : طاعة الله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . ونعود إلى معنى الآية التي نحن بصددها : { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } [الأنعام : 66] .

إذن فالذي كذب بوجود الله وكذب بالقرآن هو مكذب للمنهج أيضا . فالمكذب به هنا هو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وفي حياتنا اليومية تحدث واقعة ما ويأتي أكثر من شاهد عيان لها فلا نجدهم يختلفون في رواية الواقعة لأنهم يستوحون واقعا ، لكن إن كان

بعض من الشهود لم يروا الواقعة التي يشهدون عليها الوقائع من أفواه الشهود؛ لأن الحق قد يختفي قليلا وراء بعض من الضباب لكن لا يدوم اختفاؤه طويلاً بل يظهر جلياً ناصعاً .

والحق يضرب لنا المثل فيقول سبحانه : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } [الرعد : 17] .

الماء - إذن - ينزل بأمر الله من السماء فتستمر به حياة النبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل وادٍ على قدر حاجته . وعندما ينزل السيل فهو يصحب معه بعضاً من الشوائب التي تطفو على المياه ، ومثل تلك الشوائب يطفو - أيضاً - عندما يُصهر الذهب أو أي معدن ويُسمى الخبث . وهكذا يطفو الباطل كالزبد ويذهب جُفاءً مطروحا ومرميا به بعيداً أو ينزل على جوانبه ، أما الحق الذي ينفع الناس فهو يبقى في الأرض . وتكذيب القوم للحق من الله وللقرآن وللمنهج الإيماني هو البهتان ، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس بوكيل على المكذبين ولا يلزمهم أن يصدقوا ، فالوكيل هو الله الحق الذي يعاقب كل مكذب له ، ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ .

« وكذب به قومك » ، وكلمة « قومك » هذه هي تقريع فطيع لهم؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء منهم ، وعرفوه صادقاً أميناً مدة أربعين عاماً قبل الرسالة ، وما جربوا عليه كذباً ، ومقتضى مكنته معهم هذا التاريخ الطويل كان يفرض عليهم أن يتساءلوا من فور بلاغهم بالرسالة : إنه لم يكذب علينا قط ونحن من الخلق ، أي كذب على الخالق؟ . ولكن الهوى أعمى بصيرتهم ، ولذلك يقول الحق عن هذا البلاغ : { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [يونس : 16] .

أي قل لهم يا محمد : لو أراد الله ألا ينزل قرآنا علي من لدنه وألاً أبلغكم وأعلمكم به ما أنزله وما تلوته عليكم ، ولكنه أنزله وأرسلني به إليكم . وعندما يمتن الله على الذين أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يقول سبحانه : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

وبرغم تكبر وعناد وتكذيب المشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإنه عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ترك علياً بمكة ليسلم للناس أماناتهم . فهل هناك حمق أكثر من حمق هؤلاء الذين كذبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . أيكون أميناً معهم ولا يكون أميناً مع ربه؟

ويقول الحق من بعد ذلك : { لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ . . . } .

لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

والنبا هو الخبر المهم ، فليس كل خبر نبا ، ذلك أن هناك الكثير من الأخبار النافهة التي يتساوى فيها العلم الذي لا ينفع بالجهل الذي لا يضر . ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق : { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبا : 1-3] .
إذن فكل نبا مستقر ، والمستقر هو ما طلب القرار فيه . والنبا مطروف والمستقر مطروف فيه .
والمطروفية تنقسم قسمين : مطروفية زمان ، ومطروفية مكان . أي أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زمانا ومكانا يقع فيهما الخبر . وسوف يعلم الإنسان مستقر كل خبر عندما يأذن الحق بميلاد هذا المستقر الذي يعلن فيه الخبر .

النبا - إذن - هو الخبر العظيم المدهش . ولا أعظم من تجلي السماء على الأرض بمنهج جديد ينقذها مما هي فيه من ضلال ، وهو منهج عام لكل زمان ولكل مكان . إذن هو نبا عظيم؛ لأنه يخلص دنيا الناس من جبابرة الأرض ، ويلفت كل الناس إلى منهج يخرجهم جميعاً من أهوائهم . فلا أضر بالاجتماع من أن يتبع كل إنسان هواه؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها ، والشهوات متضاربة ، فإذا حكّم كل إنسان هواه فلن تجد في الأرض قضية متفقاً عليها . ولذلك تكفل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج وهو الأمر الذي تختلف فيه الأهواء . وأما الأمر الذي تلتقي فيه الأهواء وهو استنباط ما في الأرض من كنوز واستكشاف ما في الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذي خلقه الله ، من الكون الذي خلقه الله ، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التي يستكشفها في الكون .

ويؤكد لنا واقع الحياة هذه القضية ، ونجد طموح العقل البشري عندما فكر في مادة الكون استنبط منها الأسرار وأنجز الكثير من الاكتشافات العلمية . ولم تختلف الدول والمعسكرات في تلك المجالات ، بل التقت كل الأهواء عند هذه الاكتشافات ، فلا توجد - كما قلنا - كهرباء روسية وأخرى أمريكية ، ولا نجد « كيمياء انجليزية » وأخرى « فرنسية » ، ولذلك تجد الأنظمة السياسية والاجتماعية على اختلافها تلتقي في مجالات العلم وتتفق ولا تختلف حتى إن بعضها قد يسرق من البعض الآخر ما توصل إليه . ولا نجد في عالم المادة والمعمل والتجربة اختلافات بين نظام سياسي ونظام آخر ، بل تلتقي الأهواء عند القوانين المكتشفة والمأخوذة من مادة الكون ، وهو الأمر الذي تركه الله للناس ليكونوا أحراراً فيه ، ويفكرون ، وينظرون ، ويتأملون ، ويتكفرون ، ويصلون إلى أسرار في الكون تخفف عنهم تبعات الحياة ، وتؤدي لهم غايات السعادة في الوجود بأقل مجهود .

ولكننا نجد الصراع العنيف على الجانب الآخر - جانب المبادئ والمنهج - وهو صراع لا يهدأ أبداً؛ لأنه صراع الأهواء فيما لم تحكمه تجربة مادية ، وهم يختلفون خلافاً عميقة ، الرأسمالية

تختلف عن الاشتراكية ، وتنوع الخلافات بين كافة المذاهب التي أنتجتها الأهواء : الشيوعية ،
الوجودية ، الاشتراكية ، الرأسمالية ، وكل هذه المسائل لم تحكمها تجربة أو معمل ذلك كان
الخلاف .

ومن المؤسف أن البشر قد استغلوا ما اتفقوا فيه من ابتكارات علمية في فرض النظم التي اختلفوا
عليها .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر؛ إنه جل وعلا قد ترك عقول
البشرية حرة في كل ما يخضع للتجربة ، ولكنه نظم حياة الإنسان على الأرض في ضوء المنهج
الإيماني؛ لأن الإسلام جاء في إثر ديانة حاول القائلون على أمرها من الكهنة أن يفرضوا سيطرة
الكهنوت على العقل البشري في أسرار الكون .

والمثال على ذلك واضح تماماً في التاريخ البشري ، ففي العصر الذي تأخرت فيه أوروبا وُسّمي «
عصر الظلمات» كان المسلمون في الشرق باتباعهم لمنهج الله يعيشون في عصر النور؛ لأن
الإسلام علمهم مجال استعمال العقل وقدراته على استنباط أسرار الله في الكون ، وجاء سبحانه
بهذا الدين وهو النبأ العظيم ليوضح لنا في مسيرة هذا الدين كل عبرة ، وكأنه يقول لنا :
إن هذا الدين قد بدأ ضعيفاً والذين آمنوا به قلة مستضعفة لا يستطيعون حماية أنفسهم بل
تلمسوا الحماية وطلبوها عند ملك غريب في الحبشة ، وعلى الرغم من ذلك أنتصروا لأنهم
أخذوا بهذا الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم مقالة ربه : { لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الأنعام : 67] .
ومعنى « مستقر » أي ميلاد يستقر فيه . أي لا تتعجلوا الأحداث ، ولا تجهضوها؛ فإن شاء الله
سيكون لهذا الدين انتشار ، وهذا الانتشار له ميلاد في زمان وميلاد في مكان ، أما زمانه فإلى أن
تقوم الساعة ، وأما مكانه فالأرض كلها؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً للناس
كافة ، وخاتماً للنبيين والمرسلين .

ويؤيد الحق سبحانه قضية { لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ } بأن يشهد الواقع من الحقائق ما يؤكد ذلك .
ومثل ما حدث في الزمن القريب المعاصر لميلاد الدعوة الإسلامية . فحينما جاء الإسلام آمن به
قلة مستضعفة ، ولما نزل قوله سبحانه : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدِّبْرَ } [القمر : 45] .
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أي جمع هذا الذي سيُهْزَمُ ويولون الدبر ونحن لا نستطيع
حماية أنفسنا؟ فلما جاء يوم بدر ورأى مصارع القوم كما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم
بلاغاً عن الله قال عمر بن الخطاب : صدق الله ، لقد هُزِمَ الجمع وولَّوا الدبر . ونجد كل قضية
قرآنية محفوظة ومسجلة في السطور ، يحفظها الله حتى لا يكون للناس على الله حجة؛ لأنه
سبحانه القائل : { لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الأنعام : 67] .

فلو لم يكن الواقع يؤيد أن لكل نبأ مستقراً ، ولكن حدث ميلاداً زماناً ومكاناً ، فماذا يظن الناس الذين يستقبلون القرآن؟ لذلك أتى الحق بكل قضية قرآنية ومعها دليلها ، وأعطى الحق بعضاً من الحقائق الموثقة بالأحداث زماناً ومكاناً ليتأكد قوله الحق : { لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الأنعام : 67] .

وقد علمت الدنيا وانتصر الإسلام . لقد شاء الحق أن يربي حامل الدعوة الأول - عليه الصلاة والسلام - ويعلم معه صحابته رضوان الله عليهم ، يعلمهم منطقاً ليسايروا به أحداث الكون . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى كان يُنزل الرسل بالأديان على فترات ، وعندما يُعم الفساد في الأرض ينزل الحق منهجه على رسول ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل في كل نفس بشرية تعادلاً ذاتياً ، فإذا انتهى الإنسان شهوة يجرمها الدين ، وقضى الإنسان هذه الشهوة ، وهدأت شرّة وحدّة المعصية في نفسه ، فالإنسان يؤنب نفسه ويوبخها . ولكن النفس قد تستمرئ الشهوات ، وينعدم الوازع الذي يردع الإنسان . وإذا انعدم الوازع في فرد واحد فلن ينعدم في المجتمع ، ونجد من الناس من يحمل المجتمع على المعروف ، ويوجه صاحب النفس التي استمرت المعصية إلى التوبة والخير . أما إذا عم الفساد في الفرد وفي المجتمع فماذا يكون الموقف؟

لا بد أن تتدخل السماء برسول جديد ، ومنهج جديد . ويأتي الرسول الجديد ومعه المنهج اللازم لإصلاح الكون . ولا يتبع الرسول الجديد إلا المستضعفون القلة ، وأهل البصيرة من أهل القوة حتى لا يظن ظان أن الضعفاء لا ذوا بالدين ومالوا إليه بسبب ضعفهم . ويحذر الحق المؤمنين وكأنه يقول : إنكم تواجهون باطلاً عض الناس وأرهمهم وأعنتهم ، وحين يعرض الباطل المجتمعات فالذي ينتفع من ذلك هم أهل الباطل ، والذي يشقى بذلك هم أهل الحق . فلكل فساد طبقة منتفعة به . وحين توجد الطبقة المنتفعة بالفساد . وحين توجد كلمة الحق فإن المنتفعين بالفساد ينظرون إلى نفوذهم الذي سينحسر حتماً عندما تسود كلمة الحق . وحين ينتصر الحق لا بد أن يزول الفساد ومعه كل نفوذ أهل المفاسد . لذلك يقف المنتفعون من الفساد ضد الدين الجديد ليحافظوا على مكائنتهم في المجتمع . ويقول الحق تهديماً للمؤمنين ، وتأديماً لغير المؤمنين : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ . . . } .

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)

وبهذا القول يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : اعلم أن ما جئت به سيخاض فيه ، ويقال مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، وثالثة إنه كهانة ، ورابعة يتهمونك بالكذب ، ولا يقول ذلك إلا

المنتفعون بفساد الكون ، فإذا ما جاء مصلح فسيجعلونه عدواً لهم . لذلك لا بد أن تحافظ على أمرين . . الأمر الأول : أن الذين اتبعوك - وهم ضعاف - قد لا يستطيعون مواجهة القوة الظالمة؛ لذلك لا تحملهم ما لا طاقة لهم به ولكن تَرَيْتُمْ؛ فإن لكل نبأ مستقراً ، والأمر الثاني : أنك إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم وبين لهم الجفوة فلا تقبل عليهم ، ولا توادهم ، ولا تستمع إليهم ، ولا يسمع إليهم أصحابك ، لماذا؟ لأنهم يخوضون في آيات الله . ولكن أستمروا هذا الإعراض عنهم طوال الوقت؟ ، لا ، فالإعراض عنهم إنما يكون في أثناء خوضهم وتكذيبهم لآيات الله ، أما في غير ذلك من الأوقات فاعلم أن آذانهم في حاجة إلى سماع صحيحة من الحق ، لذلك انتهز به؛ لأنك إن تركتهم على ضلالهم فإن قضية الإيمان تصير بعيدة عنهم ، وأنت مهمتك البلاغ ، والله يريد الخير لكل خلقه .

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [الأنعام :

68] .

وكلمة « الخوض » هذه تشعرنا بمعنى في منتهى الدقة؛ لأن الخوض في أصله هو الدخول في الماء الكثير . والماء الكثير سائر لما تحت قدمي الذي يخوض فيه ، وما دام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدري إلى أي موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا في هوة ، لكن الذي يسير في غير ماء فالطريق واضح أمامه ، يضع قدميه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم إيذاء . وأخذوا من ذلك المعنى وصف الكلام بالباطل ، لأنه خوض بدون اهتداء . ولذلك يقول الحق : { ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام : 91] .

ولماذا وصف فعلهم هذا بأنه لعب؟

ذلك لأن اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب وكان في قالب الجذ . ولكن إذا كان هذا الشيء يؤدي إلى نبوغ في مجال من مجالات الحياة فنحن ندرّب أبناءنا عليه في فترة ما قبل البلوغ . ومثال ذلك تدريب الأبناء على السباحة والرماية . وركوب الخيل . وما إن يبلغ الإنسان فترة البلوغ حتى تصير له مهمة في الحياة ، ويصبح عليه أن يتحمل المسؤولية ، فلا يضيع وقته في اللعب أو فيما يلهيه عن أداء الواجب .

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [الأنعام :

68] .

والنفس البشرية لها أغيار . وهذه الأغيار قد تنسيها بعض التوجهات . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم موعود من ربه بعدم النسيان . { سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى }

[الأعلى : 6] .

فإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف نفهم قول الحق هنا : { وَإِذَا

يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ { [الأنعام : 68] .

إننا نفهم هذا القول على أساس أنه تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحينما ينزل أمر من السماء فرسول الله أولى الناس بتطبيقه ، فإذا كان الرسول يُخَاطَبُ : { وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ } فإذا ما نسي إنسان لغفلة من الغفلات ، فليأخذ علاج الله للنسيان ، وهو ألا يقعد مع هؤلاء القوم الذين يخوضون في آيات الله في أثناء خوضهم ، ولكن عليه أن يتركهم ويعرض عنهم . إذن فالحق سبحانه وتعالى احترم خلقه؛ لأنه وهو العليم بهم ، خلق لكل إنسان ملكة حافظة ، وملكة ذاكرة ، وملكة مخيلة ، وكل ملكة من هذه الملكات تؤدي مهمة : فالملكة الحافظة تحفظ المعلومات ، والذاكرة تأتي بالمعلومات المحفوظة القديمة لتجعلها في بؤرة الشعور . ولو لم يكن هناك نسيان لما استطاعت فكرة أن تدخل في ذهن الإنسان؛ لأن العقل لا ينشغل إلا بقضية واحدة في بؤرة الشعور . وحتى تدخل قضية أخرى في بؤرة الشعور ، لا بد أن تتزحزح القضية الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور .

لذلك لا بد من نسيان خاطر ما ليحل محله خاطر آخر . ولو ظل الإنسان ذاكراً لقضية من القضايا في نفسه لصار من الخال أن تدخل قضية جديدة أخرى . ولهذا خلق الله النسيان ، أي انتقال قضية ما من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور .

والإنسان منا يتذكر شيئاً حدث من عشرين عاماً ، ثم يمر هذا الحادث بالخطر فجأة ، ويتساءل الإنسان ، كيف؟ ويعرف الإنسان أن هذا الحادث كان محفوظاً ومصوناً في دوائر شعورية بعيدة . ولذلك نجد الإنسان عندما يريد استعادة معنى من المعاني فهو يترك نفسه فرصة لاستعادة هذا الخاطر أو ذلك المعنى ، ولذلك يسمون هذه المسألة « تذكر » .

{ وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [الأنعام : 68] .

ولماذا ينسب الحق النسيان للشيطان؟ ، لأن حقائق الحق في دينه هي الصدق ، ولا يصح أن تغيب أبداً عن بال المؤمن ، وهي لا تغيب عن بال المؤمن إلا بعمل الشيطان فالشيطان يزين الأمر الذي يحبه الإنسان ويشغله عن أمر آخر ، فإذا ما نزع الشيطان لينسى الإنسان ، وتذكر الإنسان أن هذا من نزع الشيطان فليستعد بالله من الشيطان ولا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأنت حين تفعل ذلك وتنفر من هؤلاء القوم الظالمين فأنت تلفتهم إلى أن ما عندك من يقين إيماني هو أعز عندك مما في مجالسهم من حديث وما يكون لديهم من نفع . وبذلك تنتفع أنت بهذه التذكرة وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأفضليته عند المؤمن على ما عداه .

وما كان الحق سبحانه وتعالى ليفرض على المؤمنين مقاطعة المشركين في أثناء فترة ضعف المؤمنين في بداية الدعوة . وكان المؤمنون يلتفتون في المسجد الحرام ، وكان المشركون يذهبون أيضاً إلى الكعبة قبل فتح مكة ، فهي مكان حجيجهم ، فهل يقاطع المسلمون المسجد الحرام في بداية

الدعوة الإسلامية ولا يلتقون؟ قطعاً لا . ولكن كان المسلمون يذهبون للقاء في المسجد الحرام ،
وإذا جاء الذين يخوضون في آيات الله فهم يعرضون عنهم . ووزر الخائضين على أنفسهم .
ولذلك يقول الحق : { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ }

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

أي أنك إذا كنت معهم وخاضوا في الحديث فقمتم من مجلسهم أو نسيت وقعدت ثم تذكرت
فقمتم ، فأنت تلفتهم إلى أن ما أقامك من مجلسهم هو شيء أكثر أهمية من هذا المجلس ، إنه
احترام تكليف الله فيما أمرك به ونهاك عنه ، وليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزار
هؤلاء الظالمين من شيء ، وليس عليكم من حسابهم من شيء ، ومجرد قيامكم من مجلسهم هو
تذكرة لهم لعلهم يتفكرون في منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع في الباطل حتى
يكونوا في وقاية من عذاب الله وسخطه .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ . . . }

**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُسَلَّ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ
لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا
لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)**

قلنا - من قبل - : إن اللعب هو الاشتغال بما لا يفيد لقتل الوقت . وعرفنا أن اللعب مجاله
قبل التكليف أي قبل سن البلوغ . وإذا شغلك اللعب عن شيء مطلوب منك فهو لهو؛ لأنك
لهيت عن امر واجب عليك ، فاللهو - إذن - هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة .
وقوله الحق : { وَعَرَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } هو تصوير لا يوجد أبرع منه؛ لأنهم أصحاب العقول التي
تعتبر بالحياة الدنيا فهي عقول تائهة؛ فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأنًا من أن تكون
غاية ، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة .

وعلى العقل الناضج أن يعاملها دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ،
وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمرها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انجرف عن ذلك
فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

إننا نعلم أن غاية الإنسان من الحياة الدنيا ليست أن يعيش عمراً طويلاً ، ولا أن ينال المناصب ،
ولا أن يحصل على الثراء ، ولا أن ينال القوة ، فكل ذلك من الأغيار ، والأغيار تختلف من
إنسان إلى آخر .

وما تختلف فيه نحن البشر ليس غاية لوجودنا ، والغاية للوجود الإنساني لا بد أن تكون واحدة .

وأن نتفق فيها جميعاً ، هذه الغاية هي ما نصير إليه بعد الموت . ونجاح كل عمل بمقدار ما يقرب الغاية منه . ولذلك فالمؤمن الحق يرى استقبال البشر لقضية الموت استقبالاً أحق ، فعندما يموت شاب في العشرين نجد من يقول : « إنه لم يستمتع بشبابه » والمؤمن الحق يرد على مثل هذا القول متسائلاً : أين تريد أن يستمتع بشبابه؟ . ويجب أصحاب الفهم السطحي : لقد مات قبل أن يستمتع بشبابه في هذه الدنيا .

ويقول المؤمن الحق : وهل هذه الدنيا هي الغاية؟ . إنها ليست الغاية ، بل الغاية هي الحياة الأخرى . ومن مات قبل التكليف فقد أنقذه الله من الحساب وأوطنه الجنة يتلقى نعيمها الدائم . فلماذا - إذن - هذه المبالغة في الحزن على أي ميت؟ والذي يقرب من الغاية يجب هذه الغاية . وهب أن إنساناً غايتته أن يذهب إلى الإسكندرية ، والوسيلة إليها قد تكون حصاناً أو عربة أو طائرة ، فكل شيء يقربه من الغاية يكون هو الأفضل . فإذا كان الله يريد أن يأخذ بعضاً من خلقه وهم في بطون أمهاتهم ، فهذه إرادته . والذي ذهب من بطن الأم إلى القبر قرب من الغاية ، وخلص من المراحل التي كانت في طياتها الفتنة . ودخل الجنة .

وهب أن الوليد عاش إلى عمر المائة وصار شيخاً ومر بكل اختبارات الفتنة واستقام على المنهج ، فألى أين مصيره؟ إنه إلى الجنة . إذن فعلينا أن نستقبل كل قدر الله بحب : قدر الميلاد أو قدر الخروج من الدنيا ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الملك : 1-2] .

إنه سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، لا ، بل قال : { خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ } وذلك حتى يستقبل كل منا الحياة ، ويسبقها في الذهن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت . إذن فهذه هي الغاية التي يتفق فيها كل الجنس البشري ، أما ما عداها فهي أغيار تختلف فيها . لذلك لا تقل إن الغاية من ابنك أن ينجح في القبول للإعدادية ثم يحصل على الشهادة الإعدادية ، ثم يحصل على الثانوية العامة ، ثم يحصل على ليسانس الكلية أو بالكالوريوس التخرج أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراة ، ثم يصير صاحب شأن في الحياة ، لا تقل ذلك؛ لأن كل ذلك ليس غاية في الحياة ، ولأن الغاية هي ما لا يوجد بعدها بعد ، ولكن علينا أن نقوم بإعمار الأرض كما أمرنا الله ولكن لا نجعلها هي الغاية .

ولذلك قال الحق سبحانه : { اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ وزينةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي

الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [الحديد : 20] .

هذه هي الحياة الدنيا ، ولذلك يجب أن نحيا دائماً على ضوء ما ينجينا من العذاب وهو ذكر الله ، إن الحق سبحانه يقول : { وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَليٌّ وَلَا شَفِيعٌ } [الأنعام : 70]

والذكر هنا مقصود به التذكير بالقرآن وهو المنهج النازل من السماء وطبقه رسول الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر أيضاً ، أو الذكر هنا مقصود به العذاب الذي ينتظر من يخالف المنهج ، وقوله الحق : { وَذَكِّرْ بِهِ } ، يدل على أن منطق الفطرة يقتضي أننا نعرف أن الحق لا يمكن أن يعامل المتقين في الدنيا كما يعامل المنحرفين . ومثال ذلك الإنسان الذي يخوض في أعراض الناس ويظلمهم لا يتصور أبداً - أن يلقى من الحق - سبحانه - المعاملة التي يعامل بها الإنسان الملتزم بمنهج الإيمان؛ فالفطرة تقول لنا : إن الحق يجازي كل إنسان بعمله ، سواء أكان الجزاء في الدنيا أم في الآخرة . ومن المأثور عن بعض العرب أنه قال : لن يموت ظلوم حتى ينتقم منه الله . ومن بعد ذلك مات رجل ظلوم ولم ير فيه الناس انتقام السماء ، فقال الرجل العربي :

والله إن وراء هذه الدار داراً يُجَازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .
{ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } والبسْلُ معناه : المنع ، والمنع له صورتان : الأولى منع حركة حياة حي .

. أي أن تحبسه في مكان محدد يتحرك فيه ، والثانية : منع من أصل الحياة . . أي أن تهلكه وترهق روحه ، { تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } أي تُمنع نفس بما كسبت ، والمنع إما بالهلاك أو بالحبس حبساً يديم عليها العذاب . والحبس - في أعراف البشر - وهو وضع إنسان في مكان لكفه عن ظلم غيره ، أي أننا نمنع شرور إنسان عن المجتمع بوضعه في الحبس . وعندما جاء الإسلام لم يحبس فرداً إنما حبس المجتمع عن فرد ، وهذا عقاب أكبر وأشد؛ فقد ترك الإسلام المجرم حرّاً في المجتمع ولكنه حبس المجتمع عنه؛ فالمجرم يمشي فلا يجد من يكلمه أو يضحك له أو يفرح معه أو يشاركه حزنه .

وحدث ذلك عندما حبس المؤمنون أنفسهم عن ثلاثة تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أن إنساناً منهم جاء ليقرب امرأته فرفضت . وحاول ثان أن يسلم على ابن عمه فما رد عليه السلام فجلس يبكي . وقاطع كل الناس هؤلاء الثلاثة ، وهذه هي عظمة الإسلام ، لقد سجن المجتمع عن المجرم فتعذب المجرم بقطيعة المجتمع له .

{ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } أي ذكر بالقرآن أو بالمنهج أو بعاقبة مخالفة الإنسان

للمنهج . والعقاب إما حبس وإما هلاك ، وذلك بسبب ما تكسب النفس . والكسب في اللغة معناه زيادة على رأس المال . وللكلمة اشتقاق ثان وهو « اكتسب » . ومرة تأتي الكلمتان في معنى واحد ، فالكسب يحدث دون افتعال ودون تعب أو مشقة ، أما الاكتساب فهو يحدث بافتعال وبمعالجة وعتت؛ لأن الذي يصنع المحرّم يأخذ أكثر من قدرة ذاته ، فيكون قد اكتسب . أما الذي يأخذ الأمر المشروع له فهو قد كسب . ولكن بعض الناس تأخذ ما اكتسبوه باحتيال ومكر ويظنون أنه كسب وهذا هو الشر؛ لأنه يأخذ غير المشروع له ويجلله لنفسه ، ويعتبره كسباً لا اكتساباً .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة : 286] . إن « لها » أي لصالح النفس؛ لأنها أخذت ما هو حق لها . و « عليها » أي ضد النفس؛ لأنها افتعلت في أخذ ما ليس حقاً لها . ومثال ذلك : نظرة الرجل إلى زوجته ، إنها نظرة طيبة إلى حلال طيب . لكن نظرة الرجل إلى امرأة غريبة قد تحتوي من الافتعال الكثير؛ فهو يتلصص ليراها ، ولا يرغب في أن يراه أحد وهو يختلس النظر إليها ، وهذه كلها انفعالات مفتعلة . ومثال آخر : سيدة البيت عندما تدخل إلى مطبخها فتتناول شيئاً لتأكله ، إنها تأكل من حلال مال زوجها ، أما الخادمة فعندما تريد أن تأخذ قطعة من اللحم من المطبخ دون علم أهل البيت فهي تتلصص ، وتحاول معرفة عدد قطع اللحم ، وقد تتسائل بينها وبين نفسها : ألم تقم ربة البيت بحصر عدد قطع اللحم؟ ولذلك فهي تأخذ من كل قطعة لحم قطعة صغيرة .

وهذا افتعال يتعب الجوارح؛ لأن مثل هذه الأمور تتعب ملكات الإنسان ، إنه يحاول أن يرضي ملكة واحدة فيتعب كل ملكاته الأخرى .

{ وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَليٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدَلٍ لَأَيُّوُحَدِّ مِنْهَا } [الأنعام : 70] .

إذن فهي النفس التي تحبس وتسلم نفسها إلى الهلكة والعذاب بسوء كسبها ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، ولا يقبل منها عدل . وهذه مراحل متعددة تبدأ بقوله الحق : { لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَليٌّ } والولي هو الذي ينصرك إن كنت في مأزق . ومأزق الآخرة كبير ، فماذا عن الإنسان الذي ليس له ولاية؟ إنه العذاب الحق .

والمرحلة الثانية { وَلَا شَفِيعٌ } أي ليس له من يشفع عند من يملك النصرة وهو الله؛ فالذي يجبك إن لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند من يستطيع أن ينصرك . وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتذكر ويتعظ ولم يتبع المنهج الإيماني .

والمرحلة الثالثة { وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدَلٍ لَأَيُّوُحَدِّ مِنْهَا } أي أنه لا تقبل منه فدية . فهذه المنافذ الثلاثة قد سُدَّتْ ولا سبيل للنجاة لهؤلاء الذين قال فيهم الحق : { أولئك الذين أُبْسِلُوا بِمَا

كَسَبُوا { أي أهلكوا أو حُبسوا في الجحيم حبساً لا فكاك منه ، وليس هذا فقط ولكن الحق يقول أيضاً : { هُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } .

إن كلمة « شراب » إذا سمعناها فإننا نفهم منها الرّي . ولكن الحق هنا يتبع كلمة « شراب » بتحديد مصدر هذا الشراب ، إنه « من حميم » ليحدث ما يُسمى « انبساط » و « انقباض » ؛ فالشيء الذي يسرّ الإنسان تنبسط له النفس . والشيء الذي يحزن الإنسان تنقبض له النفس . ولو أن الأمر الحزن جاء بداية في هذا القول الكريم لانقبضت النفس في المسار الطبيعي ، لكن الحق شاء أن يأتي أولاً بكلمة من يسمعتها تُسرّ نفسه وهي « شراب » ثم تبعها بما يقبض النفس « من حميم » ليكون الألم أليمن : ألم زوال السرور ، وألم مجيء الحزن .

ويصور القرآن في موضع آخر هذه الصورة فيقول : { وَإِن يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوَجوه . . . } [الكهف : 29] .

وتنبسط النفس حين تسمع الجزء الأول وهو : { وَإِن يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا } ولكنها تنقبض فور سماعها { بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوَجوه } .

وصورة أخرى عندما يقول الحق : { . . . فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة : 34] .

وتنبسط النفس - كما علمنا - حينما تسمع خير البشارة؛ لأن البشارة تأتي للأمر المفرح ، وتنقبض عندما تعلم أن البشارة هي بالعذاب الأليم . إذن فقد جاء الحق بالانبساط ، وجاء بالانقباض . وهذه سنة من سنن الله في التأديب . ومثال على ذلك : عندما يرتكب إنسان مظالم كثيرة ، وتفارق واستفحل شره ويريد الله أن ينتقم منه ، إنه سبحانه لا ينتقم منه وهو على حاله الطبيعي ، إنما يرفع الحق - سبحانه - هذا الظالم إلى درجات عالية ثم يخسف به الأرض .

ولذلك يقول الحق : { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً . . . } [الأنعام : 44] .

وساعة تسمع { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ } فأنت تخاف؛ لأن الفتح هنا « عليهم » وليس « لهم » . لكنك ساعة تسمع قوله الحق : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا } [الفتح : 1] .

فإنك تحس بالانشراح والسرور؛ لأن الفتح هنا لصالح المتلقي وليس عليه هكذا يريد الحق أن يصلّي المتجربون العذاب المضاعف : { . . . هُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [الأنعام : 70] .

والعذاب هنا نتيجة لما فعلوه وليس فعل جبار متسلط . أما غيرهم من المتساوين معهم في الملكات ، واختاروا الخير فآمنوا بالمنهج وطبقوه على أنفسهم فقد نالوا الخير بما فعلوا ، والتكوين الإنساني في ذاته صالح لفعل الخير ولفعل الشر ، وسنة الحق واضحة جلية : { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٌ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ { [الزلزلة : 7-8] .
ويقول الحق من بعد ذلك : { قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . }

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ خَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ
الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71)

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذي صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن
عبدها؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدها؟ . وهذا أول منطق في بطلان ألوهية غير الله ، فمن عبد
الشمس مثلاً ماذا أعطته الشمس؟ ومن كفر بها كيف عاقبته الشمس؟ . إنها تشرق لمن عبدها
ولمن لم يعبدها . والصنم الذي عبده ، ماذا صنع لهم؟ لا شيء . وهذا الصنم لم يُنزل عقاباً على
مَنْ لم يعبده ، بل إن الذي انتفع هو من لم يعبد الأصنام؛ لأنه أعمل فكره لبحث عن خالق لهذا
الكون .

وهكذا نجد النفع والضرر إنما يأتيان من الإله الحق : { وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ {
والإنسان دائماً حين يسير فهو يقطع خطوة إلى الأمام فيقصر المسافة أمامه ، أما من يُرَدُّ على
عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التي خطاها .

وهذا حديث المؤمنين الذي يرفضون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم آمنوا وساروا في طريق
الهدى ، وليس من المنطق أن يرتدوا على أعقابهم وأن ينقلبوا خاسرين .

{ كالذي استهوته الشياطين في الأرض { كلمة « شيطان » مقصود بها عاصي الجن . والجن
جنس مقابل للإنس ، وما دام في الإنس طائعون وعاصون فكذلك في الجن طائعون وعاصون .
والحق قال : { قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى
الرشد فآمناً به وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا { [الجن : 1-2] .

إذن فمن الجن من هو مؤمن . ومن الجن من هو عاصٍ . والعاصي من الجن يُسمى شيطناً .
وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التي
ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقي
وفلسفي بين وجود الشيء وبين إدراك وجود الشيء . والذي يتعب الناس أنهم يريدون أن
يوجدوا ويربطوا بين وجود شيء وإدراكه . وهناك فارق بين أن يوجد أو يدرك؛ ذلك أن هناك ما
يكون موجوداً ولكنه لا يُدرك .

{ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ { [الأنعام
: 71] .

جاء هذا التصور في صورة استفهام . إنَّ الحق طلب من رسوله أن يقوله ، فكأن الصورة : أن

قوماً هداهم الله إلى الحق فدُعُوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا ما لا ينفع ولا يضر ، فيردوا على أعقابهم ، أي بعد الهداية ، وهذه هي صورة الحيرة والتردد؛ لأنهم كانوا على هدى ، ثم دُعُوا إلى أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة لهذه الحيرة ، ولهذا التردد ، فقال : { كالذي استهوته الشياطين } .
و « استهوته » من مادة « استفعل » وتأني دائماً للطلب؛ كقولنا « استفهم » .

أي طلب الفهم ، و « استخرج » . أي طلب الإخراج للشيء ، « فاستهوته » طلبت هويته . أي جعلته يتقبل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أي دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه بأن صار عجيبة تشكله الشياطين كما تشاء ، وترده مادة « الهاء والواو والياء » لمعانٍ ، إن مُدَّتْ؛ فهي الهواء الذي نتنفسه ، وما به أصل الحياة ، وإن قُصِرَتْ ، فإنها هي الهوى وهو ميل النفس إلى شيء ، أو تكون هويّاً أي سقوطاً .

إذن فالمادة تأتي إما للهواء إن كانت ممدودة ، وإن كانت بالقصر فهي من الهوى أو من الهوى؛ كأن تقول : « هوى ، يَهْوِي؛ هويّاً » أي سقط من علوّ إلى أسفل ، وهوى ، يَهْوَى ، هوى . أي أحبّ ، وهكذا نعرف أن « استهوته » أي طلبت هويته أو هواه أي ميل نفسه إلى اتباع الهوى ، وحين تستهوي الشياطين الإنسان فهي تريد أن تجتذبه إلى ناحية هواه ، وتوقظ الهوى في النفس ، وبذلك تدعوه ليهوي . والحق يقول : { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ هَوِيَ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } [الحج : 31] .

وحين يخرّ عبد من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، وحين تأتي إلى الهوى والهوى فاعلم أن الهوى يجذبك إلى ما يضرّك ، ولذلك لا تسلم منه إلا أن يكون هواك تبعاً لما جاء به الحق ، ولكن إن اتبعت هواك فلا بد أن يؤدي بك إلى الهويّ : { كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران } [الأنعام : 71] .

وما هي الحيرة؟ هي التردد بين أمر ومقابله . وعرفنا من قبل أن الحيرة في هذه الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابهم ورجع ، ولكن له أصحاب يدعونهم إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونهم للمنهج؛ لذلك يكون حيران : بين هاوية ونجاة ، والشيء الذي يهوي لا استقرار له ، وحين نرى - على سبيل المثال - حجراً يهوي للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه صورة معبرة ، ويأتي له القول الفصل : { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى } [الأنعام : 71] .

فمن يتبع إذن؟ إنه يتبع الذين يدعونهم إلى منهج الحق سبحانه وتعالى؛ لأن الهدى هو المنهج والطريق الموصل للغاية ، والصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذي يضع الغاية هو من صنعها ، وسبق أن قلت : إن التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصون نفسه ، بل يضع ذلك

مَنْ صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ غايته مِمَّن خلقه ، والذي يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة من خلقنا ، وهدى الله هو هدى الحق .

وجاءت « الهدى » هنا لتعطينا يقيناً إيمانياً في إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا في إله واحد ، لا تختلف أهواؤنا أبداً؛ لأنه هو الذي يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلِّ مِنَّا خاضعا لقانونه ، لا يذل أحد منا لأحد آخر؛ فأنا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غضاضة عليك ولا غضاضة عليّ . وحين يُريد البشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يُذل الآخرين له ويأخذهم على منهجه وعلى مبدئه ، وهو في الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحقة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، ويتساند المجتمع ويتعاقد ولا يتعاند ، ويتوجه الهوى إلى محبة منهج الله . { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ } [المؤمنون : 71] .

ولهذا جاء الدين؛ لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان . ونذكر جميعاً قصة ملكة سبأ وسيدنا سليمان عليه السلام حينما قالت : { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ } . ولم تقل : أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غضاضة أن تكون قد أسلمت فهي ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتي التشريع من أعلى ، لا غضاضة لأحد في أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لآخر بل كلنا عبيد لله . وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعاً سادة .

ويتمثل الهدى في الإيمان بياله واحد ، ونأخذ هذا الإيمان بأدلتنا العقلية . إننا ندخل عليه من باب العقل ، ونسلم أمرنا له؛ لأنه هو أعلم بما يصلحنا . { وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام : 71] .

وقوله تعالى : { وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ . . . } .

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72)

هنا تجد الأمر بثلاثة أشياء : نُسَلِّمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، ونقيم الصلاة ، ونتقيه سبحانه ، لماذا؟ لأن كل الأعمال الشرعية التي تصدر من الجوارح لا بد أن تكون من ينابيع عقدية في القلب . وكيف نسلم لرب العالمين؟ . أي نفعل ما يريد وننتهي عما ينهى عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابي ، ونتقي الله أي نتقي الأشياء المحرمة وهو أمر سلبي ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زماننا له؛ لتأتي حركتنا في الوجود طبقاً لما رسم لنا في ضوء « افعل » و « لا تفعل » ، وحركتنا في الوجود إما فعل وإما ترك . والفعل أن نقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ،

والترك أن نتقي المحارم ، وهذا كله إنما يصدر من ينبوع العقدي الذي يمثله قوله : { لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شيء هو يعلم أنك صالح للفعل وللتترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صالح ألا تفعل ، وإذا قال : « لا تفعل كذا » ، فأنت صالح أن تفعل ، ولو كنت لا تصلح لأن تفعل لا يقول لك : افعل؛ لأنك مخلوق على هيئة تستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق في الإنسان ، أما بقية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار .

مثال ذلك : الشمس ، إنما ليست حرّة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس ليس حرّاً أن يهب أو لا يهب ، والأرض في عناصرها ليست حرّة في أن تكتمها أو لا تكتمها ، لكن الإنسان مميز بقدرته على أن يختار بين البدائل؛ لذلك لا بد أن يكون صالحاً للأمرين ، والخطأ إنما يأتي من أن تنقل مجال « افعل » في « لا تفعل » . أو مجال « لا تفعل » في « افعل » . والمؤمن يأخذ منطوية « افعل » في مجال « الفعل » ، ومنطوية « لا تفعل » في مجال التترك .

وحيث تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهي يناسب التكوين البشري . وأنت تشترك مع الجماد في أشياء ، ومع النبات في أشياء ، ومع الحيوان في أشياء ، وتتفوق على الكل بقدره الاختيار التي منحك الله إياها .

ولتوضيح هذا الأمر أقول : لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك في الجو عندئذ تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن قانون الجماد ينطبق عليك ، فليس لك إرادة أن تقول : « لا أريد أن أقع » وهكذا نرى الجمادية فيك ، وانظر إلى « النمو » الذي لا تتحكم فيه ولا تقدر أن تقول : « سأمو اليوم بزيادة في الطول قدرها نصف المليمتر » بل أنت لا تعرف كيف تنمو ، وأنت لا تعرف كيف ينبض قلبك ، ولا سرّ الحركات الدودية للأعضاء ، ولا حركة المعدة ، أو عمل الكبد ، أو حركة التنفس التي بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك .

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين في هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد ذلك خلق لنا الاختيار في التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى في الأفعال التي تقع من الإنسان لا في الأفعال التي تقع على الإنسان؛ لأن الأفعال التي تقع من الإنسان هي التي فيها اختيار وبيحتها العقل أولاً ، لينفذها الإنسان بعد ذلك . ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج؛ لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يختار . أما المجنون فليس عليه تكليف؛ لأنه لم يُدرّ المسألة في رأسه قبل ان يفعل ، وكذلك من لم ينضج؛ لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المقهور على فعل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه .

وهكذا نعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان في تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد قهر .

ويتابع الحق : { وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ولو أن المسألة - مسألة الإيمان - مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لنتنبه إلى أن هناك غاية . وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد التلميذ مثلاً إن حضر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أولاً ، ذاكراً أو لم يذكر ، ألا يظهر كل ذلك في شهادة نهاية العام؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل؛ لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار ، أي أنك صالح لتفعل أو ألا تفعل ، ولذلك يرشدك الإيمان إلى العمل الصالح؛ لأن هناك غاية؛ إنك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت « افعل » في مجال « لا تفعل » ، أو « لا تفعل » في مجال « افعل » . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فخذها خوفاً من الجزاء والحساب .

ثم يقول الحق من بعد ذلك : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ . . . }

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ (73)

والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وما دام الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، يقول سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا } [فاطر : 41]

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه : { بَعِثْ عَمَدٍ تَرْوَاهَا } [الرعد : 2]

وهنا يقول الحق : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر؛ إنه خلقك أنت بخلق عجيب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو القائل : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } [غافر : 57]

وحين ينظر الإنسان في تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله : { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21]

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق ، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، إنك ستعلم أحوالها تبعاً وأنت ستُهدى مع الأيام ، إلى سر جديد في هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم في البحث العلمي وآلات السبر وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الأواني المستطرقة التي نضع فيها سائلاً ينفذ في

أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما نسميه بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائي ، ويوجد أيضاً حراري ، ويتمثل الاستطراق الحراري حين تأتي بالمدفأة في الشتاء ونجلس في الغرفة ، ونشعر بالحرارة التي تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهي سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى في البشر جميعاً حتى في القطب الشمالي والقطب الجنوبي!! فلماذا لم تستطرق درجة حرارتك مع الجو؟ ولماذا لم يأخذ الجو البارد من حرارتك لتتساوى درجات الحرارة؟ .

إن ذلك يثبت أن ذلك ذاتية تجعلك وحدة مستقلة عن الكون الذي تحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء 37 درجة ، وفي القطبين 37 درجة ، هذا عجيب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين 37 درجة لانصهرت؛ لذلك تجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد الذي تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهي مجموعة في شكل واحد ومع ذلك لا تستطرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } .

ومثال آخر من عملية التنفس ، فحين تدخل ذرة من غبار في مجرى النفس نجد السعال قد هاجم الإنسان ليطرد هذه الذرة وتجد أنك قد سعلت قسراً إلى أن تطرد هذه الذرة ، فهل أنت سعلت بقرار منك؟ لا ، بل هو عمل لا إرادي خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محوطاً بتغليفات متتابعة ليحتفظ بحرارته التي تبلغ أربعين درجة؛ لأنه لا يؤدي مهمته إلا عند هذه الدرجة .

وكذلك نجد أن الأذن هي أطول عضو يشعر بالبرودة؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء في قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } [الأنعام : 73]

لقد خلق الحق السموات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بمشيئته ، فهو القائل : { لَأَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 40]
فيا من تريد النظام دليلاً على حكمة الخالق الموجد خذها في النظام الأعلى . ويا من تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، خذها في الأفراد؛ لأنه لو حصل شذوذ في الكون الأعلى لفسدت السموات والأرض ، لكن عندما يوجد أعمى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل في الكون ، ولذلك نجد الشذوذ إنما يأتي فيما فيه عوض ، والنظام يأتي فيما في تركه فساد ، كما يقول سبحانه : { وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ } [الأنعام : 73]

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهدم سبحانه السماء والأرض وينهي الدنيا ويزيلها ، فتمور السماء ، والكواكب تنتشر وتتساقط؛ فإن ذلك يحدث أيضاً بالحق ، فليس الخلق

والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنهاء الخلق وإفناؤه وإزالته أيضاً دليل عظمة؛ لأنه سبحانه قال في البدء : « كن » فكان الكون ، وفي النهاية يقول : « كن » فيكون إنهاء الخلق ليعطي للمحسن جزاء إحسانه ، ويحاسب المسيء؛ لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولا بد له من ثواب ، والمسيء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهي الحياة ليأتي يوم الحساب لينال كلُّ جزءه .

إذن فخلق السموات والأرض حق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، فالخلق في الإيجاد والحق في الإعدام ، إنه حاصل في بدء الخلق ، وفي نهايته .

{ وَ لَهُ الْمَلِكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [الأنعام : 73]
وهل كان الملك يوماً لغير الله؟

في هذا المقام علينا أن ننسب إلى أن فيه ملكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه مُلك ويقال لصاحبه ملك . والملك ما تملكه؛ فقد تملك جلابيك الذي ترتديه . أما المُلْك فهو أن تملك من يملك ، فهذا اسمه مُلك ، وربنا سبحانه وتعالى في دنيا الأسباب جعل لكل واحد منا ملكاً ، وجعل لبعض علينا مُلكاً فبقوا ملوكاً ، لكن في الآخرة لا يوجد شيء من هذا ، لذلك يقول الحق : { لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر : 16]

وفي الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفني عندك وتعطيني أجراً ، وقد تملك أنك تطبخ لي طعامي أو تعطيني طعاماً ، أو تملك أنك تخطط جلابي ، لكن في الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً؛ لأننا نحيا في الدنيا بالأسباب التي منحنا الله إياها ، وفي الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

{ وَ لَهُ الْمَلِكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } ولو سلسلتها قبل أن ينفخ في الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنها أرض معاد ، لذلك قال : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ } [إبراهيم : 48]
والأرض التي نحيا عليها مخلوقة لنستعمرها ، ونحرق جزءاً منها لنزرعه ، ونبني بيوتاً على جزء آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسباباً يتوافق بعضها مع بعض؛ فأنا لا أستطيع أن أحرق إلا بمحراث ، وكذلك من يرغب في استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب في استخراج البترول يأتي بالآلات التي تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل توجد في يده زاوية واحدة ، وباقي الزوايا في أيدي بقية الخلق .

وحين تسلسل الأسباب التي نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهي يد المخلوق وأسبابه تضيق به فإن يد الخالق جلت قدرته مبسوطة إليه دائماً ، وإياك أن تغرك الأسباب ولكن تسلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى الله .

ولو سلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطق الحق؛ فالطفل الصغير يرقب ظاهرة

في البيت ، هي زر في الحائط ، عندما يضغظون عليه بأصبع واحد يضيء المصباح ، فيقلدهم ،
وحين يراه أخوه الذي يدرس الإعدادية يقول له : لا تصدق أن الضوء يأتي من هذا الزر بل
هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنازل ، وحين يسمعها من هو
أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير
الذي في موقع ما من المدينة ، وقد صنعتها المعامل والعقول حتى ينتهي الشرح فيصل إلى فكرة
التيار المكهرب المستخلص من شلالات الأنهار مثلاً .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك وراءها حلقات غيبية لو سلسلتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى
، وسبحانه قد احترم ديننا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلك ، ولكن نقول لكل مَلِك : إن هذا
المُلْك ليس بذاتك؛ لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلْك أبداً . وسبحانه القائل : { قُلِ
اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ } [آل عمران : 26]
إذن فليس هناك من له المُلْك بذاته إلا الله .

والحق يقول هنا : { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [
الأنعام : 73] .

ينفخ في الصور تفيد الإيدان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت من كان حيّاً ، وبعد النفخة
الثانية يصحو الموتى ويقومون .

وكلمة { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أولى أنه يعلم
المشهود . وهذا تعبير دقيق ، وإنه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جزاء لا عن
تحكم ، ولكن عن حكمة .

ويذيل الحق الآية بقوله سبحانه : { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } والحكيم هو الذي يضع كل أمر في
مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شيء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أحداً ،
لأن من يظلم إنما يريد أن ينتفع بالشيء الموجود لدى المظلوم ، وربنا لا ينتفع بحاجة من هذه ،
بل ينفعنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان تجده كله عزّة ، وأنت تجد الناس تكره كلمة «
عبودية» ، وتقوم حروب من أجل تحرير البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها
مختلف؛ لأن العبودية للبشر ، نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها
أن العبد يأخذ خير سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزّة ، أما العبودية للبشر فهي ذلة .

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء : 1] .
فقد أخلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .
والحق سبحانه يوضح لكل عبد : نم ملء جفنيك؛ فأنا لا تأخذني سنة ولا نوم ، وأنا قيوم ، وإن

احتجت مني إلى شيء ما فادعني وسأمد لك يد العون بما يناسبك ، فهل في هذه العبودية لله شيء غير العزة؟!

ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً . . . }

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أراكِ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74)

والحق سبحانه وتعالى يعطي له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبره على مشقات الدعوة؛ لأن الدعوة للإسلام في أوله أرهقت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فيريد سبحانه أن يعطيهم مثلاً حدثت للرسول ، وهنا يأتي الحق بخبر عن أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً } [الأنعام : 74] .

وساعة أن تسمع « إذ » فافهم أن « إذ » ظرف ، أي واذكر جيداً الوقت الذي قال فيه إبراهيم لأبيه آزر « اتخذ أصناماً آلهة »؟ وما دمت تذكر هذه ، ففي التذكرة تسلية لك عما يصيبك في أمر الدعوة . وهنا وقف العلماء وقفة طويلة ، وتساءل بعضهم : هل آزر هو أبو إبراهيم ، أو أن والده هو تارخ؟

وقلت من قبل : إن الأبوة تمثل ما هو أصل للفرد؛ فالأب ، والجد ، وجد الجد أب ، وأطلقت الأبوة على المساوي للأب ، مثل العم . وجاء مثل هذا في القرآن حين قال الحق سبحانه : { أُمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ } [البقرة : 133] .

وآباء هنا جمع ، وإذا ما عددنا هؤلاء الآباء نجدهم : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والكلام من يعقوب ، وأبوه إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم ، وبرغم ذلك جاء سيدنا إسماعيل وسط هؤلاء الآباء ، فكأنك إن وزعتها قلت : « إبراهيم أب ، ويبقى اثنان : هما إسماعيل وإسحاق .

وإسماعيل هو أخ لإسحاق ، كأن القرآن نطق بأن العلم يطلق عليه أب » .
وأقول ذلك لأضفي مسألة وقع فيها اللغط الكثير؛ فالبعض من العلماء قال : هل كان آزر أباً لإبراهيم؛ والحديث الشريف يقول :

« خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء » .

فكأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه من سلسلة نسب مؤحد لا يمكن أن يكون للشرك فيه مجال ، وآزر كان مشركاً ، وما دام الحق يقول في آية أخرى : { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } . فلو أن آزر الوالد الحقيقي لإبراهيم لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذريته . وأرى أنه عمه؛

لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما زلت أتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » ، وهو قول يدل على أن نسبة الشريف مطهر من الشرك من جهة الآباء ومن جهة

الأمهات ، إذن فلا يصح أن نعتقد أن أبا إبراهيم هو آزر؛ لأنه كان على هذا الوضع مشركا ، لكن كيف نفسر قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ } ؟ .
نقول : إننا نأخذ اللغة ، ونأخذ استعمالات القرآن في معنى الأبوة . والقرآن صريح في أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه تطلق كذلك على أخي الوالد أو عمه .

والدليل على ذلك أن القرآن الذي قال : { لِأَبِيهِ آزرَ } وهو بعينه القرآن الذي قال : { أُمُّكُمْ شُهَدَاءُ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ } [البقرة : 133] .

إذن آباء هي جمع أب ، وأقل الجمع ثلاثة : إبراهيم إذن وكذلك العم إسماعيل يطلق على كل منهما أب ، وأيضاً إسحاق وهو والد يعقوب ، هؤلاء هم الآباء المذكورون في هذه الآية .
وهنا نفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هي أبوة عمومة؛ لأن يعقوب بن إسحاق ، وإسحاق أخو إسماعيل . إذن فقد أطلق الأب وأريد به العم ، ويدلنا الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حينما أخذ عمه العباس أسيراً فقال : ردوا عليّ أبي؛ وأراد عمّه العباس .

وبعد ذلك نأتي لنقول : إننا حين نطلق كلمة الأب في أعرافنا نعلم أن اللغة التي نتكلمها لغة منقولة بالسمع ، مركوزة في آذاننا ، ينطق بها لساننا ، والعامية وإن كانت تحرف الفصحح إلا أن أصولها منقولة عن أسلافنا وآبائنا ، وهم حين يريدون الأب الحقيقي يقولون له أب ولا يأتون باسمه الشخصي؛ فإذا جاء لك إنسان وقال لك : أبوك موجود؟ . ولم ينطق باسم الوالد فهو يقصد والدك فعلاً . لكن افرض أن لك عمّاً ، فيقول لك السائل : أبوك محمد موجود؟

لقد جاء هنا بتحديد الاسم العلم حتى ينصرف الذهن إلى السؤال عن العم؛ لأنه لو أراد الأب الحقيقي لما ذكر اسمه واكتفى بالسؤال عنه بالأبوة فقط ، إذن فلو قال الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ } . ولم يحدد العلم لقلنا إن آزر هو والد إبراهيم وليس عمّه وبذلك يكون هو جد رسولنا ، ولكن القرآن حدد الاسم وقال : { لِأَبِيهِ آزرَ } أي ميّز اسم الشخص ليخرج الأب الحقيقي من كلمة أب ، وبذلك تنتهي الخلافة في هذه المسألة .

ولماذا يطلب الحق سبحانه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ } ؟ لأن رسول الله جاء على فترة من الرسل وجاء في الأزمة التي واجهت الدعوة أول مواجهة وهي أمة العرب وعلى رأسها قريش ، وهو صلى الله عليه وسلم إن كان قد جاء على فترة الرسل ، إلا أن إبراهيم يعيش في عقائد هؤلاء القوم؛ لأن كل أمور إبراهيم النسكية كانت في هذا المكان ، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السماء لابنه كانا في هذا المكان ، ورفع الكعبة كان في هذا المكان ، والكعبة هي مركز السيادة لقريش ، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل .

لقد أراد الحق أن يوضح لقريش أن السيادة التي أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة ، لكنتم قبيلة من القبائل ، لا مهابة لكم ولا سلطان ، ولا جاه ، ولكنكم تعلمون أن تجارتكم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ، ولا يتعرض لها أحد بسوء أبداً؛ لأن الذين يتعرضون لكم سواء منهم من كان في الشمال أو في الجنوب سيأتون في يوم ما إلى الكعبة هذه ليؤدوا مناسك الحج وستتمكنون منهم في أثناء وجودهم في البيت .

ولذلك قلنا حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى : { أَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَمْ يَجْعَلُ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 1-5]

إن الحق أتبعها بالقول : { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ } [قريش : 1-2]
إذن لو أن البيت تعرض للهدم من أبرهة الحبشي لسقطت مهابة قريش ، وقد نصرهم الله لتظل لقريش رحلة الشتاء والصيف ، ولذلك قال : { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 3-4]

إن رب هذا البيت هو الذي أعزهم وحماهم بوجود هذا البيت الذي رفعه إبراهيم .
إذن فالقوم وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أن لهم صلة عقديّة بإبراهيم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يدخل إلى قلوبهم بالحنان الذي يعرفونه لإبراهيم الذي هو سبب هذا العزّ وسبب هذا الجاه والسيادة وأيضاً لأن المواجهة العقديّة إنما جاءت أولاً لعبادة الأصنام ، والمسألة في سيدنا إبراهيم كانت كذلك في عبادة الأصنام ، فهناك - إذن - ارتباطات متعددة فأتى الحق هنا بقصة سيدنا إبراهيم ليرقق بها قلب هؤلاء .

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً } والأصنام هي شيء من الحجارة يصنع على مثال حي ، أما الوثن فهو قطعة من حجر خام لم يشكل أو يعالج أو يصنع كانوا يقدسونه ، وهكذا نعرف الفارق بين الصنم والوثن ، وكيف دخلت فكرة الأصنام على عقول الناس؟ ومن أين جاءت؟ .

نعلم أن الناس لهم أسباب مباشرة في الحياة؛ فالإنسان حين يتطلب الضوء يرى الشمس قد أشرقت ، وفي الليل يرى القمر قد طلع ، ويرى الجبال تعطي له الصلابة والقوة ، وقيم فيها بيوتاً .

إذن فيه أشياء يرى الإنسان فيها السببية الظاهرة ، فيعتقد أنها الفاعلة . وحين يرى هذه الأشياء ويظن أنها الفاعلة يظن أن لها قداسة سواء أكانت الشمس أم القمر . إذن فقبل أن توجد أصنام وجدت كواكب وكانوا يعبدونها . بدليل أن الحق يقول : { اتَّخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً . . . } [الأنعام

[74 :

وبعد ذلك يأتي في النقاش ولا يأتي بسيرة الأصنام : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا . . . } [

الأنعام : 76]

إذن فقد كانت هناك علاقة بين الأصنام وبين الكواكب ، والأصل فيها أن الأنسان حينما يرى شيئاً ينفعه ، ينسب إليه كل نفع يحصل عليه ويرى له قوة يحترمها فيه ، ولم ينتبه الإنسان إلى أن خالق هذه الأشياء غيب ، فَعَبَدَ الشيء الظاهر له ، وعندما وجد الإنسان أن الكواكب تأفل وتغيب قال بعض الناس : لنقيم أصناماً نذكرنا بها ، وصار هناك صنم يمثل الشمس ، وصنم يمثل القمر ، وآخر يمثل النجم الفلاني ، أي أن الأصنام إنما جعلت لتذكر بالأصل من الكواكب ، ولذلك أقول دائماً : يجب على الناس ألا تغفل عن المسبب لأنه سبحانه - هو وراء الأسباب ، وكلما ارتقى العقل يسلسل الأسباب ، إلى أن تنتهي إلى مسبب ليس وراءه سبب ، وإذا انتهت يد المخلوق وعجزت في الأسباب تبدأ يد الخالق؛ فالذين يفتنون بالأسباب هم الذين ينظرون إليها على أنها الفاعلة بذاتها .

ولذلك حينما أغفلت وستررت قضية الدين في أذهان الناس بدأوا ينظرون إلى ما حولهم وما يفهمهم ، فتوجهوا بالعبادة له ، وكانوا قبل الرسالة يحجون إلى الكعبة ويحجون الكعبة ، وحين يغتربون في كثير من الرحلات يأخذون قطعة من حجر من نوعية أحجار الكعبة في الرحلة الطويلة ، وحين يراها أحد من هؤلاء يطمئن ، ولكن بطول الزمن انفردت هذه الأشياء بتقديس خاص يعزلها عن الأسباب .

وهكذا عرفنا أن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن كانت له عند العرب هذه المكانة ، وكذلك عند أهل الكتاب حتى أنهم ادعوا انتسابه لهم فبعضهم قال : إن إبراهيم كان يهودياً ، وقال الآخرون : إنه كان نصرانياً ، وجاء القرآن وهو يواجه كفار قريش ، وكذلك أهل الكتاب فيأتي الله بقصة سيدنا إبراهيم ليعطينا قضية العقائد ويوضحها توضيحاً يؤنسهم بمن له في نفوسهم ذكر .

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [الأنعام :

[74

والضلال أن تريد غاية فتضل الطريق إليها ، وكان الناس عندهم غاية في ذلك الزمان أن يقصدوا ، ويقدرُوا من ينعم عليهم بالنعم . إلا أنهم أخطأوا الطريق ووقفوا عند السبب ، ولم يذكروا ولم يدركوا ما وراء السبب ، ومن هنا جاء الضلال المبين . فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالخضوع وبالشكر لمن يرى نعمة منه عليه ، لكنهم ضلوا الطريق؛ لأنهم ساروا في النعمة في حلقات الأسباب ، ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبب . وهذا ضلال مبين لأنه فتنة خَلَقَ في خَلْقٍ؛ فالإنسان الأول الذي جاء وأقبل على عالم مخلوق له ، وأقبل على أرض وأقبل على شمس ،

وأقبل على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحب يمطر له الماء ، وأقبل على جبال تمده بالأقوات كان من الواجب عليه أن يلتفت لهذه المسألة؛ لأنه لم يصنعها ولا ادعى أحد أنه صنعها ، أما كان من الواجب أن يفكر تفكيراً يسيراً فيمن خلق له هذه الأشياء؟! إن أنفه الأشياء تحتاج إلى صانع ، مثال ذلك الكوب الذي نشرب فيه الماء لا يكون كوباً أمام أي واحد فينا إلا بعد أن انتقل وتقلب في مراحل متعددة ممن اكتشف المادة ومن صهرها كيميائياً ومن أنفق عليها إلى أن وصل إلى الكوب ، وكذلك المصباح ، إن نظرنا إلى الأجهزة التي خُلقه وأسهمت في إيجادها لوجدناها أجهزة كثيرة من إمكانيات مالية إلى قدرات علمية ، من ماديات موجودة في الأرض إلى أن وصل إلى هذا المصباح الذي يتغير كل فترة ، فما بالنا بالشمس التي تدير نصف الكون في وقت ، ونصف الكون الآخر في وقت آخر وليس لها قطع غيار ، ولم تقصر يوماً في أداء مهمتها .

وكثيراً ما درسنا في المدارس قصة من اخترع المصباح « أديسون » وكانت قصة هذا الاختراع تفيض بإعجاب من يكتبون عنها ولم نجد من يدرس لنا - بإعجاب وإيمان - دقة الشمس التي تدير الكون ، فالآفة أننا نقف فقط عند حلقات الأسباب ، والوقوف عند حلقات الأسباب هو وقفة عقلية سطحية ، ومن أجل أن نزيد من عمق الفهم لا بد أن نسلسل السبب وراء السبب وراء السبب إلى أن نصل إلى مسبب ليس وراءه سبب . وأن نرهف آذاننا لمن يأتي ليحل لنا هذا اللغز ويقول لنا : لقد خلق الله كل الكون من أجلكم وصفاته سبحانه أنه لا مثيل له في قدرته ومطلق حكمته ، ومطلوبه هو منهجه .

إذن فالرسل قد جاءوا رحمة لينقذونا ويبينوا لنا هذا اللغز . فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأوضح : أنا الذي خلقت السموات ، وأنا الذي خلقت الأرض ، وأنا الذي سخرت لك كل ما في الكون ، فهذه دعوة ، والدعوة إما أن تكون حقيقية فتعلن الإيمان به وسبحانه ، وإما غير حقيقية ، فنسأل : من خلق الكون - إذن - غير الله؟ . ولماذا لم يقل لنا صفاته ، ولم يرسل لنا بلاغاً عنه؟ . ولأن أحداً لم يفعل ذلك إذن فالألوهية تثبت لمن أبلغنا عن ذاته وصفاته وصنعتة عبر الرسل ، فلم يوجد معارض له ، وحين قال سبحانه : أنا إله واحد ، وأنا خلقت الكون ، وسخرته لكم فنحن نصدق هذا البلاغ .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا ألا نقف عند الأسباب فقط حتى لا نقع في ضلال مبين ، ومن الواجب أن نبحث عما وراء الأسباب إلى أن تنتهي إلى شيء لا شيء بعده ننتهي إلى مسبب السباب ومالك الملك - جلت قدرته .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ . . . }

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

أي كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين فسيريه الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهاً حقاً ، فالإله الحق يبين له أسرار الكون :

والملكوت صيغة المبالغة في الملك ، مثلها مثل « رحموت » . وهي صيغة مبالغة من الرحمة ، وملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة ، فالذي يمشي وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملك؛ لأن ما يشهده ويحسّه هو أمامه ، وملكوت هو ما يغيب عنه ، إذن ففيه « ملك » ، وفيه « ملكوت » ، الملك هو ما تشاهده أمامك ، وملكوت هو ما وراء هذا الملك .

والمثال هو ما قاله سيدنا إبراهيم حينما تكلم على الشركاء لله قال سبحانه : { فَآهَمُّ عَدُوًّا لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء : 77-81]

ولنلاحظ هنا أن الأساليب مختلفة ، فهو يقول : { الَّذِي خَلَقَنِي } ولم يقل « الذي هو خلقي » ، ثم قال { فَهُوَ يَهْدِينِ } لأن أحداً لم يدع أبداً خلق الإنسان ، وهي قضية مسلمة لله ولا تحتاج إلى تأكيد ، أما هداية الناس فهناك من يدعي أنه يهدي الناس . وما يدعي من البشر يؤكد ب « هو » وما لا يدعي من البشر كخالق والإماتة والإحياء لا يؤتى فيه بكلمة هو .

ويتابع سيدنا إبراهيم : { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } وهنا قفز سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقة ، وعرف الغيب { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء المعالجون والشافي الأعظم وهو الله - تبارك وتعالى - لأن الناس قد تفتن بالأسباب وتقول : إن الطبيب هو من يشفي ، ولذلك ينتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور ، وينتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملكوت حتى نعرف أن الطبيب يعالج ولكنه لا يشفي ، بدليل أننا كثيراً ما رأينا من يذهب للطبيب ويعطيه الطبيب حقنة فيموت المريض ، وبذلك يصير الطبيب في مثل هذا الموقف من وسائل الموت :

سبحان من يرث الطبيب وطبه ... ويرى المريض مصارع الآسين

إذن ، { فَهُوَ يَشْفِينِ } أي أن الشفاء من الله والعلاج من الطبيب .

وبذلك جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في قصة العقيدة نجده قد أخذ سلطاناً كبيراً يعترف به جميع الأنبياء؛ لأن ربنا قال فيه : { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى } .

وكذلك قال سبحانه : { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } [

البقرة : 124]

أي أنك يا إبراهيم مأمون أن تكون إماماً للناس ، وببشرية إبراهيم وبظاهر الملك . سأل الله أن تكون الإمامة في ذريته ، وقال : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } .

أي اجعل من ذريتي أئمة ، فيقول الحق :

{ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين { [البقرة : 124] .

لأن مسألة الإمامة ليست وراثية دم ، ولا يأخذها إلا من يستحقها . وقلنا : إن سيدنا إبراهيم جاء بهاجر وابنه إسماعيل منها وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند البيت الحرام ، ويقول القرآن على لسانه : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم : 37] .

أي أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعى مسألة تعليم الحق له لأسرار الملكوت ، وظل في ذهن سيدنا إبراهيم ، أن الحق سبحانه - لا يعطي الإمامة من ظلم ثم أوضح له أنه يجب أن تفرق بين خلافة النبوة ، وعطاء الربوبية في الطعام ويتمثل ذلك في دعاء سيدنا إبراهيم : { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [البقرة : 126]

فكان إبراهيم حين طلب الرزق من الثمرات لمن آمن بالله واليوم الآخر لم يفرق في دعائه بين عهد النبوة والإمامة ، ومطلوبات الحياة ، فيقول له الحق : { وَمَنْ كَفَرَ . . . } .
أي أنه سبحانه سيرزق بالطعام من آمن ومن كفر؛ لأن الطعام ومقومات الحياة من عطاءات الربوبية ، أما المناهج فهي من عطاءات الألوهية ، والله سبحانه وتعالى رب لجميع الناس؛ لأنه هو الذي استدعاهم جميعاً : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وما دام هو الذي استدعاهم إلى الوجود فهو لا يمنعهم الرزق .

{ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام : 75] .
وكل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام يرتبط ويتعلق بذات الحق سبحانه وتعالى ، وفيه فرق بين الارتباط والتعلق بالذات ، والارتباط والتعلق بالصفات؛ والذي يعبد الله لأنه رزاق ، ولأنه مُغْنٍ هو من يرتبط بالصفات . أما من يرتبط بالله لأنه إله فقط وإن أفقره فهو من يرتبط بالذات ، وحين صفى سيدنا إبراهيم نفسه من كل العقائد السابقة أوضح له الحق : أنت مأمون على أسرار كوني ، وأعطاه الحق الكثير كما يعطي لكل من يخلص في الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه . ويضرب الحق سبحانه لنا كثيراً من المثل في القرآن فيقول : { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } [البقرة : 282]

أي أنك ما دمت مأموناً على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتنفذه فإن الحق يعتبرك أميناً على أسراره ، ويعطيك المزيد من الزيادة .

ومعنى « تتقي » أي أن تلتحم بمنهج الحق ، وإذا التحمت بالمنهج الحق كنت في الفيوضات الدائمة التي لا تنقضي من الحق؛ لأن الذي في معيته لا بد أن يخلع الحق عليه من واردات وعطاءات صفاته ما يجلي صلته بربه ويطمئنه عليه ، ومثال ذلك ما حدث في « قصة الهجرة » تجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبا بكر في الغار ، ويقول أبو بكر لرسول الله : لو نظر

أحدهم تحت قدمه لرآنا ، وهذه قضية كونية مؤكدة ، ويرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بما نقله من القضية الكونية الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الخالص ، ويقول :

« يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »

أي أنه يقول له : اطمئن ، لن يرانا أحد؛ لأننا في معية الله ، وسبحانه لا تدركه الأبصار . وحين يكون الضعيف في معية القوي فقانون القوي هو الذي يتغلب ، فلا يصبح الضعيف ضعيفاً ، فحين يكون هناك ولد بين الأطفال الذين في مثل سنّه ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذنه ، ثم يروونه في يد أبيه لا يجروُ أحد منهم أن يأتي إلى ناحيته ، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا انفلتوا من معية الله ، ومَن في معية الله لا يجترئ عليه أحد أبداً . ولذلك يرسل لنا ربنا قضايا الملك وقضايا الملكوت ، ويمثلها في رسول الله من أول العزم من الرسل مع عبد صالح آتاه الله شيئاً من علمه وفيضه لأنه اتقاه .

يقول الحق سبحانه : { فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا } [الكهف : 65] .

إن هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذي جاء به واتبعه ، فأداه حق الأداء فاتصل بالحق فأعطاه الحق من لدنه علماً . وحين ننظر في هذه القضية نتعجب لأننا نجد سيدنا موسى - ينظر في عالم الملك بينما ينظر من آتاه الله من لدنه رحمة ومن عنده علماً ينظر من عالم الملكوت ، وموسى معذور؛ لأنه ينظر في دائرة الأسباب ، والعبد الصالح معذور هو الآخر لأنه ينظر في دائرة ثانية ، ولذلك سيقول العبد الصالح : { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } .

أي أن المسألة ليست من ذاته ، بل هو مأمور بها . وحين ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للآخر نجد العبد الصالح يقول : { إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } . أي أن العبد الصالح يعذر موسى ، ويضيف : { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا } [الكهف : 68]

فيقول القرآن على لسان موسى : { قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا } [الكهف : 69]

فها هوذا الرسول الذي جاء ليبليغ المنهج يطيع عبداً صالحاً طبق المنهج من رسول سابق ونفذه كما يحب الله ، والتحم بالمنهج ، وجاء لنا ربنا بهذه القصة مع رسول من أولي العزم . ويتلقى موسى عليه السلام الأمر من العبد الصالح : { قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا } [الكهف : 70]

لماذا؟ لأن العبد الصالح يعلم أن موسى سيتكلم عن عالم الفلك ، وهو يتكلم من عالم الملكوت . وحين ركبا السفينة ، وخرقها العبد الصالح ، والخرق إفساد ظاهري في عالم الملك . يوضح سيدنا موسى للعبد الصالح أن هذا الفعل إخلال بالقانون ، وكيف يعتدي على السفينة بالإفساد؟ فيرد

العبد الصالح : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ، وليست لك طاقة على مثل هذه المسائل ،
فيتذكر موسى ، ثم تأتي حكاية الغلام ، وحكاية الجدار .

وحين ندقق النظر في هذه الأمور نجد عالم الملكوت يصحح الأمور الشاذة في عالم الملك؛ فخرق
السفينة إفساد ظاهري لكن إذا علم موسى أن هناك ملكاً يأخذ السفن السليمة الصالحة
ويستولي عليها غصبا وهذه السفينة لمساكين يعملون في البحر ، ويريد العبد الصالح أن يحافظ
لهم على السفينة فيخرقها حتى لا يأخذها المعتصب؛ وحين يقارن الملك المعتصب بين سفينة
سليمة وسفينة مخروقة . فلن يأخذ السفينة غير السليمة ، ويمكن لأصحابها إصلاحها .
إذن لو علم موسى بهذه المسألة ، ألا يجوز أن يكون موسى هو الذي كان يقوم بخرق السفينة؟ إنه
كان سيخرقها ، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما في نظرية الملكوت من أسرار ، لفعل هو
الفعل نفسه . وحين تأتي لقتل الغلام ، لا بد من التساؤل : وما ذنب الغلام؟ فيفسر العبد
الصالح الأمر : { وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا } [الكهف
: 80]

والأبوان قد يدللان هذا الابن ، ويطعمانه من مال حرام ، ويكون فتنة لهما ، فقتل الغلام ليظلا
على الإيمان ، وعجل ربنا بالولد إلى الجنة مباشرة .

وفي مسألة الجدار تجد الخلاف بين رؤية عالم الملك ، ورؤية عالم الملكوت ففي ظاهر الأمر حين
أتيا أهل القرية طلباً للطعام ، وطلب الطعام شهادة صدق على الضرورة ، لأنه ليس طلباً للنقود
، فقد يطلب أحد النقود ليدخرها ، لكن من يقول : « أعطني رغيفاً لآكل » فهذه آية صدق
الضرورة في طلب الطعام . ولكن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما ، إذن هم لئام لا كرام . ويرى
العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض ، وآيلاً للسقوط فأقامه ، وغضب سيدنا موسى ، سبب
غضبه أنه والعبد الصالح استطعما هؤلاء فلم يطعموهما ، فكيف تبنى جداراً لهم؟! وكان يصح أن
تأخذ عليه أجراً ، وغضب سيدنا موسى سببه ظاهر ، لكن العبد الصالح يشرح المسألة :

لقد أقام الجدار لأن أهل القرية لئام ولم يعطونا طعاماً ، ولو وقع الجدار وظهر الكنز تحته أمام لئام
بهذا الشكل لسرقوه من أصحابه ، وهم أطفال ، وقد بناه العبد الصالح بهندسة إيمانية أهمه الله
بما بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار . أي أنه بناء موقوت ، مثلما تضبط المنبه على وقت
محدد ، كذلك الجدار بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار ويأخذان الكنز .

وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم الملك وبين عالم الملكوت؛ فعالم الملكوت هو الذي يغيب عنا
وراء الأسباب . وكثير من الناس يقف عند الأسباب ، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر
، إلى أن ينتهي إلى مسبب ليس بعده سبب .

{ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام : 75] .

فهل تيقن أو لم يتيقن؟ .

و « موقنين » جمع « موقن » والجمع أقله ثلاثة ، واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل : يقين بعلم من تثق فيه لأنه لا يكذب؛ ويقين بعين ما تخبر به ، ويقين بحقيقة المُخْبِر به .

وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في سورة التكاثر قال : { أَهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ } [التكاثر : 5-1]

إذا أخبرتكم فهذا الخبر هو الصورة العلمية ، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين . { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } [التكاثر : 5-7] .
لأننا سوف نرى النار في الآخرة ، لكن لم تأت حقيقة اليقين ، وجاءت حقيقة اليقين في سورة الواقعة : { وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ } [الواقعة : 90-95]

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقا من الموقنين في كل أدوار حياته؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء؛ وعواقبها . فمثلا عندما أخذ ليطرح في النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة؟ قال سيدنا إبراهيم : أما إليك فلا .

ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن هذا ظاهر الملك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا ابراهيم يعلم أن الذي خلقها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفى الله النار بظواهر الأسباب ولكن جعلها الله ليأ لأعناق خصومه ، فأوضح الحق : يا نار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقني . { قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69]

إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المختفية وراء الملك الظاهر ، وهذا من الابتلاءات الأولى في حياته ، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة أن سأله قبل أن يلقوا به في النار : ألك حاجة؟ فيقول إبراهيم : أما إليك فلا .

ثم يأتي له الابتلاء في آخر حياته بذبح ولده . ونعلم أن الإنسان تمر عليه أطوار تكوين ذاتيته ، وأحيانا تكون الذات هي المسيطرة ، وفي طور آخر تبقى ذاتية أولاده فوق ذاتيته ، أي أنه يجب أولاده أكثر من نفسه . يتمنى أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصياً . فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه إنه ابتلاء شديد قاس ، وهو ابتلاء لا يأتي بواسطة وحي بل بواسطة رؤيا . وكلنا نعلم أن رؤيا الأنبياء حق . لكن إبراهيم يعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه ، ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه قضاء ربه في أي

شيء؛ في مرض ، في مصيبة ، في مال ، أو غير ذلك فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضي لانتهى القضاء . فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولا يستطيع أحد أن يلوي يد خالقه .

إذن فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء .

ولذلك عرف سيدنا إبراهيم هذه القضية : قضية فهمه لعالم الملكوت . فلما قيل له : « اذبح ابنك » لم يرد أن يمر ابنه بفترة سخط على تصرف أبيه؛ لأنه إن أخذه من يده وفي يده الأخرى السكين فلا بد أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط ، فيحرم من الجزاء ، فيبين له المسألة . ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم : { يَا بَنِي آدَمَ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } [الصافات : 102] وهذا القول يريد به إبراهيم أن ينال ابنه ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده ، فماذا قال إسماعيل : { قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات : 102]

قال إسماعيل ذلك ليأخذ عبودية الطاعة . ويؤكد القرآن رضا إبراهيم وابنه بالقضاء فيقول : { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [الصافات : 103]

وهذا القبول بالقضاء هو ما يرفعه . لذلك يقول القرآن بعدها : { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ * قَدْ

صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [الصافات : 104-105]

ويفدي الله إسماعيل بذبح عظيم ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم بولد آخر؛ لأنه فهم ملكوت السموات والأرض ، وعرف نهاية الأشياء . فإذا ما أصيب الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ويقول : ما دامت هذه المصيبة لا دخل لحركتي فيها ، وأجراها عليّ خالقي فهي اختبار منه - سبحانه - ولا يوجد خالق يفسد ما خلق . ولا صانع يفسد ما صنع ، ولا بد أن لذلك حكمة عنده لا أفهمها أنا ، لكنني واثق في حكمته .

إن طريق الخلاص من أي نائبة من النوائب أن يرضى المؤمن بها ، فتنتهي . ومن تحدث له مصيبة بأن يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن في البيت ، وتبكي الأم كلما رأت من في مثل سنّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً ، وإن أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا . وليعلم كل مؤمن أن ما أخذ منه هو معوض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذي قبضه الله إليه وتوفاه معوض بجزء خير مما يترك في الدنيا ، ولذلك يقال : المصاب ليس من وقعت عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب من حُرم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس . ويقول الحق بعد ذلك : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ . . . }

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76)

و « جن » تفيد الستر والتغطية ، ومنها « الجنون » أي ستر العقل ، و « جن الليل » أي أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك . و « الجنة » كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التي تستر من يمشي فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .
 وكلمة « كوكب » تفيد أنه يأخذ ضوءه من غيره ، ونفهم من الآية أن إبراهيم كان في ظلمة ثم طلع الكوكب فرآه ، ثم غاب الكوكب أي انتقل من بزوغ وطلوع إلى أفول ، وقديماً كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ، فجاء لهم إبراهيم من جنس ما يعبدون ، وقال : { لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } .
 ويتابع الحق بعد ذلك : { فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا . . . } {

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ
 (77)

وهنا قال إبراهيم عليه السلام : هذا ربي ، ووقف العلماء هنا وتساءلوا : كيف يقول إبراهيم هذا ربي ، وهي جملة خبرية من إبراهيم ، وكيف يجري إبراهيم على نفسه لفظ الشرك ، وأراد العلماء أن يخلصوا إبراهيم من هذه المسألة . ونقول لهؤلاء العلماء : جزاكم الله كل خير ، وكان يجب أن تؤخذ هذه المسألة من باب قصير جداً؛ لأن الذي قال : إن إبراهيم قال : هذا ربي ، هو الذي قال في إبراهيم : { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } [البقرة : 124]
 إذن فقوله { هذا رَبِّي } لا تخدش في وفائه الإيماني ، ولا بد أن لها وجهاً . ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ، فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم : يا كذابون ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم السبب لما اهتموا به ولا سمعوا له . لكن إبراهيم استخدم ما يسمى في الجدل ب « مجازاة الخصم »؛ ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .
 مثال ذلك في حياتنا ، تجد رجلاً له ابنة وجاء لها خطيب ، وهذا الخطيب قصير جداً ، بينما البنت - ما شاء الله - طويلة ، وحين جاء الخطيب ليراها وتراه تقول لأُمها : هذا خطيبي؟! وهذا القول يعني أنها تنكر أن يكون هذا القصير عنها هو خطيبها ، وحين قال إبراهيم : { هذا رَبِّي } معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هي الرب .
 ونلاحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب ، فقال : { لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } ، وفي هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ، ويكون قوله : { هذا رَبِّي } لونا من التهكم؛ لأنهم قالوا بما جاء به القرآن على لسانهم : { أهذا الذي يَدُّكُرُ آهَتِكُمْ } .
 فكأنه قال : سلمنا جدلاً أنه ربكم ، لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وقوله : { لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } يعني أنه غير متعصب ضدهم .

وكذلك حين يقول الحق : { فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً . . . } {

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
(78)

وهكذا يثبت له أن كل كوكب - حتى الشمس - مصيره إلى أفول ، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح ، واستخدام المنطق الذي يحقق نيته في أن ينكر هذه الربوبية ، ويستأنس به آذان من يسمعه . وهناك أشياء يجعلها الحق سبباً مبرراً لارتكاب أشياء كثيرة ، إلا أننا نعقد مقارنة بين بعضهم البعض مثلما قال الحق : { وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا } [النحل : 106]

وقد جاءت بعد قوله سبحانه : { إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } [النحل : 106] فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن لينجي حياته وهو فرد ، أفلا يصح لإبراهيم أن يقول لهم : { هَذَا رَبِّي } بما تختمل من أساليب حتى ينجي أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام؟ .

إذن فيقول إبراهيم { هَذَا رَبِّي } يؤخذ على محملين : ألم يقل الله سبحانه وتعالى بنفسه عن نفسه : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آئِينَ شُرَكَائِي } [فصلت : 47] وسبحانه يعلم أنه لا شركاء له ، ولكن الشركاء هم من زعم المشركين .

« ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينادي في بعض القوم : يا إله الآلهة لأنه يعلم أن حقاً قد ألهوا ظواهر طبيعية في الكون لما يرون من الخير فيها ، فأراد أن ينبههم إلى أن هناك إلهاً حقاً » .

ويوضح القرآن عدم جدوى الشرك حين يقول : { إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [المؤمنون : 91]

ويقول سبحانه : { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } [الإسراء : 42]

والحق سبحانه وتعالى يقول للكافر الذي كان يعتز بجاهه في دنياه : { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } [الدخان : 49]

فهل هذا القول اعتراف بأن الكفر عزيز كريم أو هو قول تهكمي؟ . إنه تهكم؛ لأن الكافر لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولما استقر في الجحيم .

وكان المنطق في اللغة أن يقول : فلما رأى الشمس بازغة قال هذه ربي؛ لأن الشمس مؤنثة ، ولكنه قال : { هَذَا رَبِّي } كما قال في القمر وفي غيره من الكواكب ، فجعل الأمر على سياق أو حالة واحدة ، أو هو بهذا القول يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيهاً مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث؛ لأن علامة التأنيث فرع التذكير ، وأيضاً لأن الشمس ليست مؤنثاً حقيقياً ، بل هي

مؤنث مجازي ، ولذلك يفتن العلماء إلى هذه المسألة فيقولون : إنك إذا أعطيت واحداً صفة العلم ، وقلت : فلان عالم ، أما إذا صار علمه ملكة عنده فنقول : « فلان عليم »؛ ولذلك يقول الحق : { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76]
وإذا كان العالم متمكناً من علمه بشكل غير مسبوق نقول عنه : « علّام » . والحق سبحانه يصف نفسه فيقول : { عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [المائدة : 116]
ولم يقل العلماء في وصف الله علامة ، وإن كان هذا الوصف أبلغ احترازا من أن تلحق علامة التأنيث صفة من صفات الله - عز وجل - .

وحين تأفل الشمس يقول سيدنا إبراهيم : { فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } [الأنعام : 78]

وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التي قالها ، وحين يسمعه أي عاقل فلا بد أن يعلن اتفاقه في هذا الأمر ، ولذلك قال : { إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } . ولأنه كإنسان مؤمن لن يغش نفسه ، وبالتالي لن يغش قومه ، وهذا ما ينبه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .
والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، والتخلية تعني أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد ، وبعد ذلك تدخل في العمل المصلح . . العمل الإيجابي .
ويقول الحق بعد ذلك : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ . . . }

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

والسماوات والأرض هما المظهر الأول للكون الذي طرأ عليه الإنسان؛ لأن الكون طرأ عليه الإنسان - الخليفة في الأرض - ووجد كل الخيرات والمسخرات ، ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى : إياكم أن تقولوا إني خلقتكم فقط ، بل خلقت لكم الكون . { خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } [غافر : 57]
ويقدم سيدنا إبراهيم برهانه لقومه ، إنه يعبد الله وحده الذي خلق السماوات والأرض ، رافضاً كل فساد في الكون ، ويتمثل هذا في قوله : { حَنِيفًا } ، و « الحنف » في اللغة هو ميل القدمين ، ونجد القدم مقوسة إلى الخارج . وهذا يعني أنه لا يسير على طريق الفساد الموجود في الكون؛ لأن السماء تتدخل بالرسالات حين يطم الفساد في الأرض ، وحين يأتي الرسول مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً؛ لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ . . . }

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80)

وحاجه أي حاججه بإدغام الجيمين في بعضهما . أي أن كل طرف يقول حجة والطرف الآخر
يرد عليه بالحجة ، فإذا كنت في نقاش وكل واحد يدلي بحجته ، فهذا اسمه الحجاج ، أو الجدل
المبطل ، أي أنك تبطل كلامه وهو يبطل كلامك .

{ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } [الأنعام : 80]

وإذا كان إبراهيم قد جادلهم بمجاراة أفكارهم وأثبت بطلانها ، فكيف يجادلونه إذن؟ . كأن
الغرض من الحجاج صرف إبراهيم عن دينه الحنيف الذي ارتآه في قوله سبحانه : { إِنِّي وَجَّهْتُ
وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 79] .
ويرد عليهم : { أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } [الأنعام : 80] .

أي أن مسألة الإيمان قد حُسمت . فقد آمن إبراهيم بالله ويعلم للقوم { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ
بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا } وهذا القول يدل على أنهم قد هددوه؛ لأن كلمة « الخوف » جاءت
ونفاها عن نفسه . ويعلمها إبراهيم قوية : { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } أي لا أخاف من
الكواكب التي تأفل سواء أكانت نجماً أم قمراً أم شمساً أم تلك الأصنام التي تعبدونها فليس لها
نفع ولا ضرر ، والضرر والنفع هما من صنع الله فقط .

ولذلك تتجلى الدقة في الأداء العقدي فيقول الحق على لسان إبراهيم عليه السلام : { وَلَا
أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } [الأنعام :
80] .

فإن شاء الحق أن يُنزل على عبدٍ كوكباً يصعقه أو يحرقه فهذا موضع آخر لا دخل لمن يعبد
الكواكب به ، ولا دخل للكواكب فيه أيضاً؛ لأن النافع والضرار هو الله ، فحين يشاء الله الضرر
، يأتي الضرر وحين يشاء النفع يأتي النفع .

{ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا } [الأنعام : 80]

أي اذكروا جيداً ، وافرخوا بين فعل يقع من فاعل ، وفعل يقع من آلة فاعلها غير تلك الآلة ،
فحين يشاء الله أن يوقع على إنسان كوكباً ، أو صخرة فليست الصخرة هي التي صنعت وقوعها
، ولا الكوكب هو الذي أسقط نفسه ، إنما الفاعل هو الله : { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ } [الأنعام : 80]

وقوله { أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } يدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، وإقبال النفس على
الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة
عقدية بل المطلوب منك أن تتذكر فقط ، والتذكر أمر فطري طبيعي؛ لأن الإنسان الخليفة في

الأرض هو الذي تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا؛ فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوي ينظم به حركة الحياة ، ولقن آدم المنهج لأولاده ، وكذلك فعل أبناء آدم مع أولادهم ، ولكن المناهج تنطمس؛ لأن المناهج تتدخل في أهواء الناس وتثنيهم عن شهواتهم وتصدهم عن المفسد فيعرضون عنها أو يتجاهلوها ، إذن فهي عرضة أن تُنسى ، والرسالات إنما تذكر بالمنهج الأصلي الذي أخذناه عن الحق سبحانه وتعالى ، لذلك يعلنها إبراهيم : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ . . . } {

وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

يقول لهم سيدنا إبراهيم : أنا لا أخاف إلا الله ، ولا أخاف ما أشركتم أنتم به مما لا يضر ولا ينفع . و « كيف » هنا تأتي للتعجب؛ لأن المنطق أن نخاف من الله وحده الذي يضر وينفع . وحين تدور مجادلة تستيقظ في كل طرف ذاتية الجدل ، وهناك من يستنكفون من الحق ، ليس لأنه حق لكن لخوفهم أن ينهزموا أمام واحد مثيل لهم ، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة بدون استعلاء لا يعطي الحكم بما يحرك الذاتية في الخصم الجدل؛ لذلك لم يقل سيدنا إبراهيم : أنا أم أنتم أحق بالأمن؟ بل قال : { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ } مثلما علم ربنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] . وهذا منتهى الحيدة في الجدل ، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه صلى الله عليه وسلم على هدى وأنهم على ضلال . وهذا هو الجدل الارتقائي ، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه : { قُلْ لَأَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] . هل يفعل الرسول جرائم؟ حاشا لله أن يفعل ذلك فهو المعصوم .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم : اسألوا عني إن كنت أجرتهم؛ ولم يقل لهم وصفا لأعمالهم : « ولا نسأل عما تجرمون » بل قال « { وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } . فلم يأت بمسألة الإجماع بالنسبة لهم؛ وجاء بها بالنسبة له ، لأنه واثق أنهم إن أعادوا دراسة القضية فكرياً وعقدياً وعاطفياً فسينتبهون إلى الإيمان بمنهجه . وهذا منتهى اللطف في الجدل .

ويتجلى اللطف في الجدل في قوله الحق : { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنعام : 81] .

والعلم هو أن تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أن تدلل عليها ، وإن اختلف شرط فيها فهذا خروج عن العلم ، ومثال ذلك ألفاظ اللغة؛ كل لفظ وضع لمعنى ، وساعة تسمع اللفظ وأنت تعرف اللغة تفهم المعنى؛ فحين أقول : الشمس . تتصور أنت الشمس في ذهنك ، وكذلك

الأرض والماء والجبل . فأنت عرفت مدلول هذه الألفاظ بدون أن تكون هناك نسبة . ونعلم أن هناك فرقاً بين معنى اللفظ مفرداً ، وما يعطيه ويفيده اللفظ إذا جاء في نسبة . فإذا جاء اللفظ في نسبة فلا بد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محجوبة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشيء ، ولكننا قبل أن نأتي بالقضايا النسبية لا بد أن يكون للفظ معنى في ذاته ، وهذه اسمها معاني اللغة ، وتضم من خلالها لفظاً إلى لفظ فتنشأ نسبة أو قضية شريطة أن نعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك نعرف النسب ، وهي ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أي أمر منسوب إلى أمر .

والعلم - كما قلنا - هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن اختلف أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد في قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب . وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أولاً؟ . وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن لم يكن الشيء متيقناً وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راجح عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المرجوح هو ما يسمّى بالوهم . وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه .

وقول إبراهيم : { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أي تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها .

ويقول الحق بعد ذلك : { الَّذِينَ آمَنُوا . . . }

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82)

حينما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشفقوا على أنفسهم؛ لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين في { أولئك لهم الأمن } . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح لهم صلى الله عليه وسلم مطمئناً : إن ذلك الظلم هو الذي قال الله فيه : { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل؛ لأننا نعلم أن التقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة ، وهي أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله؛ ومعناها؛ لا معبود بحق إلا الله ، أولاً أمر لأحد في خلق الله إلا الله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد قدرة وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هي دائرة الإيمان العقدي .

ويقول الحق : { وَمَنْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } فكأن هذه المسألة هي منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصل لنا بين إيمان ينفجر عنه العمل وعمل تنفجر عنه الطاقات فقال سبحانه : { والعصر * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . . } [العصر : 1-3]

والعطف في قوله : { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } يقتضي المغايرة ، فالإيمان شيء وعمل الصالحات شيء آخر ، إذن فالإيمان عمل ينبوعي في القلب ، ولكن العمل ناشئ عن الالتزام الذي شرعه الإيمان فيه ، وعلى المؤمن أن يتنبه إلى أن الله واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله ، لا ند له ولا شريك معه ، فإن وجدت صفة في الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة في الله في دائرة { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } . في قدرة كقدرته ، ولا ذات كذاته ، ولا فعل كفعله . فإن اختل شيء من ذلك في اليقين فهذا ظلم واقع في الإيمان .

فمثلاً : أنت تقبل على الأشياء بالطاقات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقبل أن تفعل أي فعل لا بد أن يمر على بالك نسبة ذهنية ، قبل أن تكون نسبة قولية أو فعلية . هذا هو العمل المنوط بك والمطلوب منك ، أما العمل الذي لا يمر ببالك فلست مسئولاً عنه ، مثال ذلك : هب أنك سائر في الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تسقط فيها ، فهناك أمر غريزي لحفظ الإنسان فيبعد رجله ، وهو لا يستطيع في هذه المسألة أن يمررها بباله . وتلك أعمال نسميها الأعمال الاضطرارية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمر ذي بال لا يبدأ بيسم الله الرحمن الرحيم أقطع » « حديث شريف »

وقال صلى الله عليه وسلم : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع » « حديث شريف »

و « ذي بال » أي كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله . ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فنقول لهم : منطقياً لا بد أن تضعوا هذا الأمر في بالكم لأن الفعل الذي لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك - بدون أمر - أن تفعله . ومثال ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شيء في قصبته الهوائية غير الهواء؛ نجده يسعل بلا شعور حتى يخرج هذا الشيء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذي تمر ببالك نسبته الذهنية ثم يمر بالفعل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله؛ فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمى الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها .

فأنت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطيها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . ألك في ذلك شيء؟ . إنه ليس لك إلا تجميع فعل؛ فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التي وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والعناصر الموجودة في الأرض لتغذي النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة في

البذرة لتمتص شيئاً ينمي جذيرها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب ليس لك فيها شيء أبداً .

ولكن الله احترم فعلك فقط فقال سبحانه : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ } [الواقعة : 63]

ثم قال سبحانه : { أَأَنْتُمْ تَنْزِعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ } [الواقعة : 64]

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أي شيء ذي بال ألا تنسى من سخر لك هذا ، فليس في قدرتك أن تفعل لنفسك وبنفسك أي شيء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من سخر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

ونحن في قوانيننا الوضعية ساعة يجلس القاضي ليحكم بين الناس حكماً وهناك سلطة تنفذ هذا الحكم فهو يقول : « باسم الشعب » أو « باسم القانون » ، إذن الشعب أو القانون هو الذي أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هي القدرة التي جعلتك تحكم على الأشياء أن تفعل لك؟ لا بد أن تقول إذن : باسم الله الذي سخر لي هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون مفتاتاً ومختلقاً ومدعيّاً أمراً لا تستطيعه؛ لأنه ليس في سلطتك ولا في قدرتك أن تسخر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذي سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتنفعل لك تلك الكائنات ، ومن يغفل عن ذلك فقد لبس وخلط إيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : { أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } بل اذكر وقل : « ما شاء الله »؛ لأنك إن قلت : { أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ } فالحق قد قال في شأن قارون :

{ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ } [القصص : 81]

أين ذهب علم قارون الذي جاء به؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله ، فإن اختل شيء فيك من هذه المسألة فاعلم أنك لبست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها ، ولا ينشأ من العمل الذي تعمله مبتدئاً ب « بسم الله » إلا ما يعينك على طاعته ، ويعينك على بر ، ويعينك على خير ، ولا تصرفه إلا في عافية .

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء في كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا؛ إنك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

إذن { أولئك همُ الأمن } أي الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل دائماً بمنهجه؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، ورحماته وتجلياته لا تنقطع عن خلقه أبداً؛ لأنه قيوم أي إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه باقتدار وحكمة على كل أسباب مخلوقاته ، فكان دائماً في صحبة القيوم؛ ليتجلى عليك بصفات حفظه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكيمته فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : « يا بلال حدثني

بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دفّ نعليك بين يديّ في الجنة . قال : ما عملت عملاً أرجى عندي من أنّي لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي »

ويقول - صلى الله عليه وسلم - : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليه بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطرة الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب »

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقاً؛ ليعطينا ، لا ليأخذ منا؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده ، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفذ ، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

{ أولئك همُّ الأمن في الدنيا؛ والأمن بمجموع ما كان في الدنيا مع الأمن في الآخرة . ولقائل أن يقول : هناك اناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون في طاقات الأرض ومادتها ، وينعمون بها ويسعدون ، وقد يسعدون بابتكارات سواهم .

ونقول : نعم هذا صحيح؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة في عطاء الفعل . إذا زرع الكافر فالأرض تعطى له ، وإذا قام بأي عمل يأخذ نتيجه ، لكن لا يأخذ البركة في العطاء . وما هي البركة في العطاء؟ البركة في العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينك على معصية ، بل دائماً يعينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا { فإياك أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : { بسم الله الرحمن الرحيم { ومع ذلك فهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه في الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشياءهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات وهم في الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن { أولئك همُّ الأمن { أي إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك هم الأمن في جزئيات أعمالهم والأمن المتجمع من جزئيات أعمالهم يعطي لهم الأمن في الجنة . { وَهُمْ مُهْتَدُونَ { والهداية هي الطريق الذي يوصل إلى الغاية . ولا يقال إنك موفق في الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة في ذهنك من نجاح بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته ، فاترك لله تحديد مهتمك ، فسبحانه هو الذي خلقك ، وفي عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً ، بل إن الصانع هو الذي يحدد لها الغاية منها؛ فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة ،

وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذي يشقى بالتجارب إذن؟ .
في الابتكارات العلمية العملية المادية التي تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذي يشقى
بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة ، والمسائل النظرية
التي تتعب العالم يأتي التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية ، ولا
بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية . فمن المهتدي إذن؟

إن المهتدي هو من يعرف الغاية التي يسعى إليها ، والوسيلة التي تؤهله إلى هذه الغاية . وإذا
حدث له عطب في ملكات نفسه ، يستعين في إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات
، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان الآلة التي تتعطل لصانعه . ونجد كثيراً من الشعراء
يسرحون في خيالهم فيقول الواحد منهم :

ألا من يريني غايي قبل مذهبي ... ومن أين للغايات بعد المذهب؟
ونقول له : من خلقك أوضح لك الغاية .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ . . . }

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ ذُرَّجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)

والحجة هي البرهان القائم لإثبات القضية المطلوب إثباتها . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد منا
حين نحاجج أن تكون لنا غاية في الحجاج ، ونحن نعلم أن الغاية في الحجاج إن تعدت موضوع
الحجاج نفيًا أو إثباتًا فهي تهريج ، وينحصر الأمر في أنك تريد الانتصار على خصمك وأن يحاول
خصمك الانتصار عليك ، لكن عليك إذا ما دخلت الحجاج أن تجعل الغاية الأصلية هي
الأساس ، وكما يقولون تحديد وبيان محل النزاع؛ لأن الحق لا بد أن يكون أعز منك ومن
خصمك عندك ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تتناظروا في قضية تناظرًا
جماهيريًا ، لماذا؟ لأن الصوت الجماهيري يلتبس فيه الحق مع الباطل ، والله سبحانه وتعالى يريد
من كل صوت أن يكون محسوباً على صاحبه ، ومثال ذلك عندما يقوم تظاهر كبير ويهتف فيه
بسقوط أحد لا يتعرف أحد على من بدأ الهتاف .

والذي جعل العرب يخسرون أنهم حين استقبلوا الدعوة كانوا يعقدون اجتماعات جماهيرية ،
ينقدون فيها أقوال رسول الله فتاهت منهم القدرة على الحكم الموضوعي .

ولذلك يقول ربنا : { قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنى وفردى ثُمَّ تَنَفَّكُرُوا مَا
بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ } [سبأ : 46] .

أي أن تجتمعوا وفي وجهتكم الله ، ومن عنده قوة فليناقش بالحجة أقوال رسول الله موضوعاً ،
وتاريخاً ، ومنطقاً . ولا يمكن أن يجتمع اثنان لبيحثا مسألة وفي بالهما الله فقط - إلا وينتهيان فيها
إلى رأي موحد . ولذلك جاء التفاوض السري في العصر الحديث مستمداً من تلك القاعدة

الإيمانية .

{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [الأنعام : 83] .

وأول قوم إبراهيم أبوه آزر ، إنه حاجتهم في الكواكب والقمر والشمس والتمثيل ، وبعد ذلك انتصر بالحجة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان ، وهو النمرود حين أراد أن يناظره في قوة الإحياء والإماتة .

ويريد الحق أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم ، إنك إذا رأيت خصمك يدخل فيما لا يمكن أن ينتهي فيه الجدل فانقله إلى المستوى الذي لا يستطيع منه خلاصاً ولا فكاً ، فلا يغلبك؛ فالملك النمرود قال له : { أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ } [البقرة : 258] .

وكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول : أنت لا تميت بل تقتل ، والقتل غير الموت؛ لأنك تنقض البنية ، لكنه لم يرد أن يطيل الجدل ، وأراد أن يكون الجدل مقتضباً ، ويسقطه على الحجة ويلزمه بما من أقصر طريق ، فقال الله : { قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ } [البقرة : 258] .

فماذا كانت نتيجة الجدل؟ يقول الله سبحانه : { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } [البقرة : 258] . وكل هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [الأنعام : 83] . لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أي كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع؛ لأن إقامة الحجة على الغير انتصار ، والانتصار رفع لدرجة موضوعك ، ورفع أيضاً لموضوع عمك .

وسبحانه لا يشاء إلا عن حكمة ، ولا يشاء إلا عن علم؛ لأنه إن أطلقنا المشيئة لواحد من البشر فقد يفعل الفعل بدون حكمة وبدون علم ، أما الحق فينبئنا بأن مشيئته هي عن حكمة وعلم لصالح الخلق؛ لأن مشيئته مبنية لا على هوى ، ولا على نفع من أحد ، فالله سبحانه له كل صفات الكمال والجلال والجمال قبل أن يخلق الخلق .

إن خلق الخلق وإيمانهم لا يزيد في ملك الله ، وإن عصوا لا ينقص من ملك الله شيء ، ولكن الحكمة قد تفوت عن بعض الخلق فلا يهتدون إليها ، وسبحانه حين يجري أمراً على خلقه ثم يقبلونه وإن لم يعلموا علتهم يريدونهم جل وعلا الحكمة في الفعل الذي كان غير مقبول لهم؛ لأنه سبحانه خلق الخلق ويعلم أولاً أن للخلق أهواء ومرادات ، ولو أعطى كل مخلوق مراده لأعطاء على حساب غيره ، والحق سبحانه عادل فلا ينفع واحداً ويتعب الآخر .

والحق بحكمته يعلم ما يصلح أمر خلقه ، فلا يستجيب لدعوة حمقاء من عبد ، فسبحانه يعلم أنه ليس في صالح العبد أن يلبي له هذا الطلب . ولذلك يقول الحق : { وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ

دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا { [الإسراء : 11] .

إن العبد يقول : يا رب اصنع لي كذا ، يسّر لي هذا الأمر ، وهو خير في عرفه ، وقد يكون هو الشر ؛ لأن الإنسان عجول . لذلك يقول سبحانه : { سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37] .

إن الحق جل وعلا يضبط مرادات الخلق؛ فالصالح يجزيه عليهم .
{ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } وكلمة « رب » حينما ترد لا بد أن نفهم منها معنى الخلق والتربية ، وساعة تأتي كلمة « الألوهية » فلنعلم أنها للتكليف؛ لأن الله هو المعبود المطاع إن أمر أو نهي ، ولكن الرب هو من خلق وربّي ، وتعهد ، وأعطاك مقومات حياتك . إذن عطاء الربوبية شيء ، وعطاء الألوهية شيء آخر ، وعطاء الربوبية يأخذه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي؛ لأن الله هو الذي استدعاهم للوجود ، وجعل الكون مسخرًا لهم ، لكن عطاء الألوهية يتمثل في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، وهذا يدخل في منطقة الاختيار . فالذي يكفر بالله ويحسن الأخذ بالأسباب يأخذ نتائجها ، ومن يؤمن بالله ولا يحسن الأخذ بالأسباب لا يأخذ النتائج؛ لأن الاستنباط في الكون من عطاء الربوبية .
ويقول الحق : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . . . }

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)

إننا نعرف أن إسحاق هو الابن الثاني لسيدنا إبراهيم بعد إسماعيل ، ويعقوب ابن إسحاق ، وساعة ترى الهبة افهم أنها ليست هي الحق ، فالهبة شيء ، و « الحق » شيء آخر . الهبة . إعطاء معطٍ لمن لا يستحق؛ لأنك حين تعطي إنساناً ما يستحقه فليس ذلك هبة بل حقاً . والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تعتقدوا أن أحداً من خلقي له حتى عندي إلا ما أجعله أنا حقاً له ، ولكن كل شيء هبة مني . والقمة الأولى في الهبات والعطايا هي قمة السيادة الأولى في الكون للإنسان ، ثم التكاثر من نوعية الذكر والأنثى ، حيث الذرية من البنين والبنات . يقول سبحانه : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذكور } [الشورى : 49] .

فهبة الأولاد لا تأتي من مجرد أنه خلق الرجل والمرأة ، وأنّ اللقاء بينهما يوجد الأولاد بل يقول سبحانه : { أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا } [الشورى : 50] .

فلو أن المسألة مجرد إجراء ميكانيكي لجاء الأولاد ، لكن الأمر ليس كذلك؛ فمن يفهم في الملكوت تطمئن نفسه أن ذلك حاصل عن حكمة حكيم يعرف أنها هبة من الله ، حتى العقم هو هبة أيضاً؛ فالذي يستقبله من الله على أنه هبة ويرضاه ، ولم ينظر إلى أبناء الغير بحقد أو بحسد

سيجعل الله كل من تراه أبناء لك بدون تعب في حمل أو ولادة ، وبدون عناية ورعاية منك طول عمرك . ومن يرض بهبة الله من الإناث سيجد أنهن رزق من الله وبيعت له من الذكور من يتزوج الإناث ويكونون أطوع له من أبنائه؛ لأنه رضي . إذن لا بد أن تأخذ الهبة في العطاء ، والهبة في المنع .

والحق يوضح : أنا وهبت لإبراهيم إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، والإنسان منا يعرف أن الإنسان بواقع أقضية الكون ميت لا محالة ، وحين يكبر الإنسان يرغب في ولد يصل اسمه في الحياة وكأنه ضمن ذلك ، فإن جاء حفيد يكون الجدد قد ضمن نفسه جيلاً آخر . ولكن لنعرف قول الحق : { المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً [الكهف : 46] .

وبقاء الذكّر في الدنيا لا لزوم له إن كان الله يحط من قدر الإنسان في الآخرة!!
ونلاحظ أن الحق قال في موقع آخر : { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِيئِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله ربّ رَضِيًّا } [مريم : 5-6] .

وامتن الله على إبراهيم لا بإسحاق فقط بل يعقوب أيضاً ، وفوق ذلك قال : { كُلاًّ هَدَيْنَا } أي أهما كانا من أهل الهداية . { وَتُوحَاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ } أي أن الهداية لا تبدأ بإسحاق ويعقوب ، بل بنوح من قبل : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } .

ويتابع الحق : { وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ . . . }

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَأَلْيَسَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87)

{ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ }

ولم يأت الحق بالثمانية عشر نبياً متتابعين بل قسمهم بحكمة ، فيقول :

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَأَلْيَسَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ }

ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يقول سبحانه :

{ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين

رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلاً . وقد جمعوا في قول الناظم :

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار وقد ختموا

والحق سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكاً إلا اثنين : داود وسليمان حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقاً على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث ملكاً رسولاً؛ لأن الملك لا يقدر عليه عبد لأن القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان في حاجة إلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف والرهبوت إنما يريد بالاختيار ، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكاً .

وفي الحديث « أفمليكا نبيا يجعلك أو عبداً رسولاً » فاختر أن يكون عبداً رسولاً؛ لأن الملك يأتي بسلطانه وماله ، وقد يطغى .

وأراد الحق أن يكون سليمان وداود من الأنبياء وهما ملكان ، وتمثل فيهما القدرة وسعة الملك والسلطان . أما أيوب فقد أخذ زاوية أخرى من الروايات وهي الابتلاء والصبر مع النبوة ، وكل نبي فيه قدر مشترك من النبوة ، وفيه تميّز شخصي . وكذلك يوسف أخذ الابتلاء أولاً ، ثم أخذ الملك والسلطان في النهاية . وموسى وهارون أخذ شهرة الاتّباع ، ونكاد لا نعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية ، أما زكريا ويحيى وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد .
وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً فقد أخذوا ما زخرت به حياتهم من عظيم الفعال وكريم الخصال والسلوك القويم والقُدوة الطيبة وبقي لهم الذكر الحسن .
إذن فهناك زوايا متعددة للأنبياء .

وعندما وقف العلماء عند « عيسى » هل يدخل في ذريتهم ، وجدوا من يستنبط ويقول : من ذريتهم من ناحية الأم .

وإنما أمهات القوم أوعية ... مستحدثات وللأحساب آباء .

والعنصر البشري في عيسى هو الأم . وبمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام الحجاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن رسول الله ليس له ذرية!
قال له الإمام الباقر رضي الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأي شيء في القرآن؟

قال اقرأ : « ومن ذريته » إلى أن تقرأ : « وعيسى » فعيسى من ذرية نوح ، من أب أم من أم؟ .

قال له : من أم . فقال له : نحن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك : { ذلك هدى الله . . . } .

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا حَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88)

« ذلك » إشارة إلى شيء تقدم ، والمقصود به الهدى الذي هدينا به القوم ، وهو هدى الله . ونجد كلمة « هدى » تدل على الغاية المرسوم لها طريق قصير يوصل إليها ، وربنا هو الذي خلق

، وهو الذي يضع الغاية ، ويضع ويوضح ويبين الطريق إلى الغاية ، وحين يضاف الهدى إلى الله ، فهو دلالة على المنبع والمصدر أي هدى من الله . وكلمة « هدى » مرة تضاف إلى الواهب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء . يقول الحق : { فَبِهْدَاهُمْ اقْتَدِهْ } . وذلك إشارة إلى المنهج الذي أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدي الناس جميعاً بدلائلهم على الخير ، والذي يقبل على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه يعينه الله ، ويزيده هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، فإن اخترت أي شيء فأنت لم تختره غصباً عن ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً . ولا يوجد فعل في الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهديين لما استطاع واحد أن يعصي ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أي واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنه قد يكون مراداً غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كوناً ، ومراداً شرعاً . وما دام الشيء في ملك الله فهو مراد الله ، والمراد الشرعي هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كوني ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - أنت تعطي ابنك جنيهاً ، والجنية قوة شرائية . فأخذ الجنيه ونزل السوق وهو حر ليتصرف به ، وتقول له : اسمع . إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك وسأكافئك مكافأة طيبة ، وإن اشتريت « كوتشينة » ، أو صرفت الجنيه فيما لا أرضى عنه فسوف أغضب منك ولن أعطيك نقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشترى « كوتشينة » فهو لم يفعل ذلك قهراً عنك لأنك أنت الذي أعطيت الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب منه أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جعل الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهداية أجزل له العطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى؛ وذلك بأن يعشقهم في العمل ويحب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه :
إياكم أن تظنوا أن هناك من يفلت مني؛ لأنهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق الخلق مرغمين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين في التكليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله ولو أشركوا لحبط عملهم و « لو » حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، و « الحبط » هو الإبطال للعمل .

ويقول الحق بعد ذلك : { أولئك الذين آتَيْنَاهُمْ . . . } .

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنَّ يَكْفُرُ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا
بِكَاْفِرِينَ (89)

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والغلبة ، والنبوة؛ أي أنه جعلهم نماذج سلوكية للبشر .

{ فَإِنَّ يَكْفُرُ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَاْفِرِينَ } وسبحانه وتعالى أعطانا نماذج من المهديين في الرسل ، والأنبياء؛ وفيمن اجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم؛ فهؤلاء القوم الذي جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن امتنع بعض الناس عن الهداية فسيوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر الخير الباقي إلى أن تقوم الساعة .

وَمَنْ الْقَوْمُ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم قريش ، والمقصود من قوله : { فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَاْفِرِينَ } هم أهل المدينة أي الأنصار . أو المقصود من النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وطائع له أي إن يكفر بها طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها؛ لأن الله لا ينزل قضية الخير في الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لا بد أن يبقيها كحجة على الخلق .

{ فَإِنَّ يَكْفُرُ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا } وهذا يدل على أن أهل الخير دائماً وكلاء عن الله؛ لأن الذي يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لرَبنا؛ لأنه يقوم بالمطلوب له - سبحانه - وجعل من نفسه سبباً له؛ لأن الله رب الجميع ، ومربي الجميع ، وراعِي الجميع ، ورزَّاق الجميع ، وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه وكيلاً عن الله في أن يشيع الخير في خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف أضعاف ما أعطى .

ويقول الحق من بعد ذلك : { أولئك الذين هدى . . . }

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)

و « هدى الله » هنا أيضا هو هداية دلالة ، وهداية معونة؛ بدليل أنه قال : { فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ } والخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن « أولاء » أي المشار إليهم هم المتقدمون ، و « الكاف » خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

{ أولئك الذين هدى الله فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ } وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول « اقتد » ولا نقول « اقتده » ولا تنطق الهاء إلا في الوقف ويسمونها « هاء السكت » ، لكن إذا جاءت في الوصل لا ينطق بها ، وكل واحد من هؤلاء الرسل السابق ذكرهم له خصلة تميز بها ، وفيه قدر مشترك بين الجميع وهو إخلاص العبودية لله والإيمان بالله وأنه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ،

وكلهم مشتركون في هذه الأصول ، وتميّز كل منهم بخصلة في الخير؛ فسيدنا سليمان وداود أخذوا القدرة والسلطان والملك ، وأيوب أخذ القدرة في الصبر على البلاء ، ويوسف أخذ القدرة في الصبر والتفوق في الحكم ، وسيدنا يونس أخذ القدرة كضارع إلى الله وهو في بطن الحوت ، وإسماعيل كان صادق الوعد .

والمطلوب إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مُقتدياً بهم جميعاً ، أي أن يكون كسليمان وكداود وكإسحاق وكيعقوب وكأيوب وكإيوسف وكينون . وأن يأخذ خصلة التمييز من كل واحد فيهم وأن يشترك معهم في القضية العامة وهي التوحيد لله . وبذلك يجتمع كل التمييز الذي في جميع الأنبياء في سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وإذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً من ربه فلا بد أن نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم قد نفذ الأمر ، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء فحق له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين .

{ قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [الأنعام : 90] .

ولماذا يُطلب الأجر؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أو له عملاً إلا إذا كان العمل الذي فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطي وتُمنح عليه أجراً ، فكأن ما يؤديه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة كان يستحق عليه أجراً ، لكنه صلى الله عليه وسلم يبلغ عن ربه : قل لهم : إنك نزلت عن هذا الأجر .

وقارنوا بين من يقدم لأي واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة في جزئية من جزئيات الحياة ، ومن يقوم بعمل ينفعكم في مدى يتعدى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول : أنا لا أريد منكم أجراً .

وعدم طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين؛ فلم يرد في القرآن أن قالها ، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى ، وتكلم عن إبراهيم ، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر في قصة إبراهيم وكذلك في قصة موسى عليهما السلام .

لكن جاء ذكر الأجر في غيرهما ، يقول سبحانه : { إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِيَّيْكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 106-109] .

وقال جل شأنه : { إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِيَّيْكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 177-180] .
وعندما تستقري سورة الشعراء تجد الأنبياء كلهم ، وتجد مع قول كل منهم { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

مِنْ أَجْرٍ } ، إلا سيدنا موسى ، وسيدنا إبراهيم . لماذا؟ ونقول : إن من ينزل عن الأجر ، هو من يقدم لهم منفعة .

وفي موسى عليه السلام نجد أنه قد وجهت وقدمت وسيقت له المنفعة من فرعون الذي قام بتربيته ، كأنه قد أخذ الأجر مقدماً ، لذلك لم يقل موسى لفرعون « لا أسألك أجراً؛ لأن القرآن جاء بقول فرعون : { قَالَ أَمْ نُؤْتِكُ فِينَا وَلِيْدًا } [الشعراء : 18] .

وكذلك لم تأت مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم لأنه خاطب أباه آزر ، ولم يكن من المقبول أن يقول له : « لا أسألك أجراً » . وهكذا انطمست مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا موسى ، وبقيت فيما عداهما ، مما يدل على أن القرآن موضوع بأدق تفاصيله بحكمة؛ لأن من يتكلم هو ربنا . ويمتاز سيدنا رسول الله أيضا ويقول : « لا أسألكم أجراً » إلا آية واحدة استثنى فيها هذا النفي : { قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوْدَةَ فِي الْقُرْبَى } [الشورى : 23] . والمودة هي فعل الخير الناشئ عن محبة قلب ، أما فعل الخير الذي لا ينبع من محبة في القلب فهو فعل معروف؛ لأن المعروف يضعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . ولذلك قال ربنا : { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } [لقمان : 15] .

المعروف - إذن - هو عمل امتداده خير سطحي . والرسول حين يطلب المودة في القربى فهل هي قرباه صلى الله عليه وسلم أو المودة في قرباكم؟ هي القربى على إطلاقها ، وهي القربى أيضا للمتكلم وهو الرسول الذي يبلغ عن الله .

وإن صُنِّتْ عَلَىٰ أَهْلِهَا « إِلَّا الْمُوْدَةَ فِي الْقُرْبَى » أي القربى للمتكلم وهو سيدنا رسول الله لما استطعنا أن نُوفيه أجراً . أما حين يتحمل كل واحد منا مجالاً من الخير والمعروف في قومه ، هنا تتلاحم دوائر الخير في الناس جميعاً .

ويذيل الحق الآية بقوله : { إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } وهي ما تعطينا اجتماع الدوائر وبصير كل واحد مُهْتَمًّا بِأَقَارِبِهِ وَيَتَنَازَعُ النَّاسَ وَيَتَنَافَسُونَ فِي مُوْدَةِ الْقُرْبَى ، وكل منهم يحرص على أن يوسع دائرة القربى . هنا يعم الخير ويدوم الود ويقول الحق بعد ذلك : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ . . . } .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّوْنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

الكلام عن الذين رفضوا وتأبوا عن الإيمان بالله . فيأتي الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوضح لهم بأنهم لم يعطوا الله حق قدره ، ومعنى القدر معرفة المقدار ، وحق قدره سبحانه لا نقدر عليه نحن البشر ، لذلك نقدره على قدر طاقتنا أو على قدر ما طلب منا ، وكما قال رسول الله

: « سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

والإنسان منا حين يثني على واحد فهذا دليل أنه قد قِيم قدره بقيمة الثناء ، وحين نقيّم قدر الله فعلياً أن نعرف أن صفات الكمال كلها فيه وهي لا تتناهى ولا يمكن أن تحصى . ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى أنه تحمّل عنا صيغة الثناء عليه : كي لا يوقعنا في حرج ، فليس لبشر من قدرة أن يحيط بجمال الله أو بجلاله حتى يثني عليه بما يستحقه ، وإن أحاط عبد بذلك - ولن يحيط - فمن أين له العبارة التي تؤدي هذا الثناء؟ ولا يوجد بليغ أو أديب يستطيع أن ينمق العبارات التي تكفي لتقدير هذا الثناء على الله ، فأوضح لنا الحق من خلال رسوله : أنا حملت عنكم هذه المسألة حتى تكونوا كلكم سواسية ، قال رسول الله :

« سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

وفي كلمة « الحمد لله » وحدها يتساوى الناس جميعاً . ومن رحمته سبحانه أن سوى بين الناس في معرفة صيغة الثناء عليه . ويأتي الحق هنا بالزاوية التي نفى فيها أنهم ما قدروا الله حق قدره . لماذا يارب لم يقدروك حق قدرك؟ وتأتي الإجابة : { إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ } [الأنعام : 91] .

أي أنهم أنكروا أن يكون الله قد اختار من بعض خلقه من يجعلهم أهلاً لتلقي منهجه لإبلاغه إلى خلقه . ويأتي الرد من الحق لرسوله رداً عليهم : { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ } [الأنعام : 91] .

إذن لا بد أن يكون القائلون هذا يؤمنون بأن موسى نُزِّل عليه كتاب لتكون الحجة في موضعها . وكفار مكة كانوا غير مؤمنين بأي رسول ، لكنهم يعلمون أن هناك من هم أهل كتاب ، بدليل أنهم قالوا : { لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام : 157] . ونقول : لو دققت النظر في السورة فقد ينطبق الأمر على واحد مخصوص من الذين غلبتهم الحجة . « وفي تاريخ السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائب الخوض في الإسلام ، وكان اسمه « مالك بن الصيف » فلقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحبر هو عالم اليهود والمفترض فيه أن يكون من الزهاد فيهم منقطعاً للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أن من عادة المنقطعين للعبادة وإلى العلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ، ويقِيم الأود لأنه قد جاء في التوراة : « إن الله يبغض الحبر السمين » .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالك بن الصيف - وهو من أحبار اليهود - يخوض كثيراً في الإسلام قال له : أفي توراتكم : « إن الله يبغض الحبر السمين » فبهت الرجل ، وقال : « ما أنزل الله على بشر من شيء »

يعني ما أنزل الله على بشر من شيء من الذي أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثل هذا القول قد يأتي من أهل كتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قام عليه رجال من اليهود وقالوا له : كيف تقول : « ما أنزل الله على بشرٍ من شيء » فقال لهم : أغضبني محمد ، فرددت على الغضب بباطل .

وهنا قال من سمعه من اليهود : إذن أنت لا تصلح أن تكون حبراً لأنك فضحتنا . وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولّوه مكانه .

{ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام : 91] .

الكتاب إذن هنا هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى وهو التوراة وقد جعلوه قراطيس ، أو جعلوه أوراقاً منفصلة يظهرون منها ما يريدون ، ويخفون منها ما لا يريدون مثلما فعلوا في مسألة الرجم كعقاب للزنا . إذن فقد سبق لهم كتمان ما أنزل الله عليهم ، وبين الحق ذلك في آيات متعددة : { فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ } [المائدة : 14]

والذي لم ينسوه كتموا بعضه وأظهروا بعضه ، والذي لم يكتموه حرّفوا ولوا به ألسنتهم ، إذن فهناك نسيان ، وكتمان ، وتحريف . وليتهم اقتصروا على هذا ووقفوا عنده بل جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا هي من عند الله : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشَرُّوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } [البقرة : 79]

ويتابع الحق سبحانه : { وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام : 91] .

فإن كلام الكلام في كفار مكة فقد جاءهم القرآن بما لم يعلموا لا هم ولا آباؤهم؛ لأن الإسلام جاء على فترة من الرسل . وإن كان في أهل الكتاب فهو قول صدق؛ لأنهم لما كتموا أشياء فضح القرآن ما كتموه وما حرفوه . وجاء القرآن فعدل لهم ، فكأنهم علّموا الحق ، لينسخوا به الباطل الذي غيروه وحرفوه ، وقوله الحق : { قُلِ اللَّهُ } أي أن الذي أنزل الكتاب هو الله .

وساعة يأتي الحق سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام نعلم أن الاستفهام الحقيقي بالنسبة لله محال ، لأنه يعلم كل شيء ، وإنما يجيء باستفهام يقال له : « الاستفهام الإنكاري » أو « الاستفهام التقريبي » وهو يأتي بهذه الصيغة لأنه يريد جواباً فيه الإقرار من المعاندين ، فإن لم يقولوا واحتاروا أو خجلوا أن يقولوا فقل أنت لهم يا محمد : { قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام : 91] .

و « الخوض » هو الدخول في الماء الكثير ، الذي لا تستبين العين فيه موضع القدم ، وربما نزل في هوة ، ثم استعمل واستعير للخوض في الباطل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } أي أن هذا لعب منهم ولن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة في طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذي يصنعونه هو خوض في باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد . ولكن هل معنى هذا أن يتزكهم محمد؟ لا؛ لأنه حين يجد آذانا منهم يبنههم ويذكرهم ، ثم بعد أن يفتح الأمر للإسلام ، فالذي يقيم في جزيرة العرب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف؛ لأن المعجزة جاءت مباشرة بقرآن يعلم الكل إعجازه ، وسبحانه قد أنزل التوراة من قبل وأنزل القرآن مباركا ، فالحق يقول بعد ذلك : { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ . . . } .

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)

وكلمة « أنزلنا » الأصل فيها نون وزاي ولا م ، وتستعمل بالنسبة للقرآن استعمالات متعددة؛ فمرة يقول سبحانه : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } [القدر : 1] .
ومرة يقول عز وجل : { وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } [الإسراء : 106] .
ومرة يسند النزول للقرآن : { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ } [الإسراء : 105] .
ومرة يسند إلى من جاء به : { نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينِ } [الشعراء : 193] .
هذه إذن تعابير متعددة ، وما دواعي هذا الاشتقاق ونحن نعلم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ليباشر القرآن مهمته في الوجود الجديد ، وكان ينزل كل نجم من النجوم حسب الأحداث . و « أنزل » هنا للتعدية أي نقل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ليباشر مهمته ، ولذلك يقول سبحانه : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } .
ونعلم أن القرآن نزل في ليلة القدر وفي غير ليلة القدر ، ولكنه نزل في ليلة القدر جميعه إلى سماء الدنيا ، ثم نزل منجماً ومفصلاً في بقية أيام الثلاث والعشرين سنة التي عاشها صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي ، فإذا ما أراد أنه أنزله من اللوح المحفوظ يأتي ب « همزة التعدية » وإذا أراد النزول والمواولة يقول : « نَزَلَ » لأن فيها التتابع ، وإذا نسبة لمن نزل به يأتي ب « نَزَلَ » لأن القرآن لم ينزل وحده بل نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، إذن فكلها مُلتقبة في أن القرآن نَزَلَ أو أَنْزَلَ ، أو نَزَّلَ . وكلمة « نَزَلَ » تعطينا لمحة ، وهو أنه جاء من أعلى ، ويستقبله الأدنى . وساعة يطلب الحق منا أن ننصت لإنزال حكم يقول لنا عز وجل : { قُلْ تَعَالَوْا أَنزَلْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ } [الأنعام : 151] .

ومعنى « تَعَالَوْا » أي ارتفعوا؛ لأننا نعيش على الأرض ، وإياكم أن تشرع الأرض لكم؛ لأن تشريع الأرض إذا لم يكن في ضوء منهج الله فهو حضيض . والله يريد تشريعاً عالياً . ، ولا بد لكم من أن تتلقوا من السماء أحكامكم؛ حتى لا تتيهوا ولا تضلوا في باطل تشريعات لا تدور في إطار منهج الله .

والحق يقول هنا : { وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } وهو قول صادق يصدق على القرآن فقط برغم أن كل الكتب السماوية السابقة كانت كتب منهج ، وكانت المعجزة منفصلة عن المنهج؛ فمعجزة موسى عليه السلام - كما نعرف - هي العصا ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميز بأن معجزته عين منهجه ، لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزم محدود ، في مكان محدود . وجاء صلى الله عليه وسلم بالدين الجامع المانع ، لذلك جاءت المعجزة هي المنهج ، فلو أن معجزته صلى الله عليه وسلم كانت من جنس معجزات الأنبياء السابقين إلا لأن القرآن قالها وصارت خبراً ، وكل منها تليق بالزمن المحدود والمكان المحدود .

لكن الإسلام جاء ليعم كل الأزمنة وكل الأمكنة ، ولذلك لزم أن تكون المعجزة مستصحية للمنهج؛ حتى يستطيع من يأتي بعد عصر النبوة إلى قيام الساعة أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزته .

والقرآن مُبارك ، ونحن في أعرافنا حين نتكلم بالعامية نأتي بالكلمة التي هي من نَفْح ونضح الاستعمالات الفصيحة التي سمعناها ، فنجد من يقول : والله هذا الأكل فيه بركة؛ فهو مصنوع لاثنين وأكل منه أربعة وفاض وزاد . « . إذن ، « البركة » أن يعطي الشيء أكبر من حجمه المنظور .

وبركة القرآن غالبية ومهيمنة ، ولو قاس كل إنسان حجم القرآن بحجم الكتب الأخرى لوجد حجم القرآن أقل ، ومع ذلك فيه من الخير والبر والبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به الكتب ، ونجد من يؤلف ويفسر في أجزاء متعددة ، ومع ذلك ما استطاع واحد أن يصل إلى حقيقة المراد من الله؛ لأن القرآن لو جاء وأفرغ عطاءه في القرن الذي عاش فيه الرسول فقل لي بالله : كيف تستقبله القرون الأخرى؟! إنه يكون استقبالا خاليا من العناية به لأنه سيكون كلاماً مكرراً .

إذن فقد بين فيه كل شيء ومنه أخذ كل إنسان وزمان قدر ذهنه ، ولو أن القرآن يراد تفسيره لما فسره أحد غير من انفع له نزولاً عليه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيستطيع واحد بعد ذلك أن يقول شيئاً في التفسير؟! إذن لو فسره الرسول صلى الله عليه وسلم لجمده لأنه لا يجرو أحد أن يأتي بتفسير بعد الرسول .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن عطاءات القرآن لا تنتهى ، لذلك لم يفسره . بل أوضح بما تطيقه العقول المعاصرة حتى لا ينصرفوا عنه . ولو كان القرآن قال : إن الأرض كرة وتدور حول الشمس ، أكان يصدقه أحد؟ إن هناك حتى الآن من ينكر ذلك . ونجد القرآن يشير ويلمح إليها إلماحا خفيفاً إلى أن تتسع العقول لها . فيقول الحق : { يُكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ } [الزمر : 5] .

وما دام الليل يأتي وراء النهار ، والنهار يأتي وراء الليل في شبه كرة؛ فالذي يأتي عليه الليل والنهار شكل الكرة . فكأن كلاً من الليل والنهار دائر وراء الآخر حول كرة ، إذن فالحق يعطي اللمحة بميزان حتى تتسع العقول للفهم . ويقول القرآن : { قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ } [البقرة : 142] .

وهذا قول واضح؛ لأن كل واحد منا يعرف المشرق والمغرب . لكن حين يقول الحق : { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } [الرحمن : 17] . أكان يفهمها المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعم ، لأنه ساعة ما يقول : إن الشمس أشرقت من المكان الفلاني ، وغابت عن مكان آخر ، فساعة شروقها عندك تغرب عندي ، وساعة تغرب عندك تشرق عندي ، وهكذا يصير كل مشرق معه مغرب ، إذن فقد صدق قول الله { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } .

ونعلم أن الشمس لها مشرق كل يوم ، ومن زار في الصعيد المعبد الذي توجد به 365 طاقة – فتحة – وتطلع الشمس في كل يوم من طاقة معينة ولا تطلع من الطاقات الأخرى يتأكد من أن الشمس لها في كل يوم مشرق . إذن هناك مشارق ومغارب ، وصدق الله القائل : رب المشارق والمغارب .

إن القرآن يخاطبنا بأسلوب يحتمله العقل المعاصر ، وإذا ما جدّ جديد نجد الأمر مكنوزاً في القرآن ، ونجد تأويلاً جديداً لا ينسخ التأويل الآخر ولكنه يرتقي به .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يفسر القرآن التفسير الكامل؛ لأنه كان لا بد أن يفسره بما تطيقه العقول المعاصرة له ، وإن فسره بما تطيقه العقول المعاصرة له فمعنى ذلك أنه لن يعطي العقول التي تأتي بعد غداء من القرآن؛ لذلك ترك صلى الله عليه وسلم القرآن دون تفسير إلا في النزر اليسير . وتجد ذلك في آيات الكون ، أما في الأحكام فالأمر محدد .

لكن في الأشياء التي يتجدد فيها العلم فقد تركها . ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام عن القرآن : « لا تنقضي عجائبه » وكأنه يلفتنا إلى أن عجائبه لا تنقضي ولا تنتهي ، وكل يوم يعطي عجائب جديدة . إذن فالقرآن مبارك بحكم ما هو مكنوز فيه إلى قيام الساعة . وأنت تلتفت إلى الناس فتجدهم يتعبون في اكتشاف أسرار الكون ، وتجد القرآن قد مسّ ما يبحثون عنه مساً

خفيفاً .

{ وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [الأنعام : 92] .

وساعة تقول : « بين يدي الشيء » أي الشيء الذي يسبق ، والكتب السابقة هي التي نزلت بين يدي القرآن أي قبله ، والمقصود بها الكتب المعروفة المشهورة وهي التوراة والإنجيل إذ هما الكتابان الباقيان إلى الآن .

والقرآن يصدق الذي بين يديه ولا يعني ذلك تصديق المحرّف بل تصديق « الأصيل » . ولذلك نجد عبد الله بن سلام وغيره حينما جاءوا للإسلام اعترفوا بذلك ، ويقول عبد الله بن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انشرح صدري للإسلام ، ولكني أعلم أن اليهود قوم بهت - أي أنهم مكابرون - فأنا أريد أن تسألهم عني قبل أن أسلم ، فقال رسول الله لهم : ما تقولون في عبد الله بن سلام؟ قالوا : حبرنا وابن حبرنا وشيخنا ورئيسنا . . . إلخ .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . هنا بدأوا في كيل السباب لسيدنا عبدالله بن سلام فقال : ألم أقل لك يا رسول الله إنهم قوم بهت؟ وقوله الحق : { مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } أي أنك إذا ما أردت أن تعرف صدق هذه القضية فهات ما لا حاجة لهم فيه إلى تكذيبه ، وستجد القرآن قد جاء موافقاً له .

مثال ذلك حين جاء القرآن بالرّجم . هم حاولوا أن يخففوا حكم الرّجم؛ لأن امرأة زنت وأرادوا أن يجاملوها . فرفعوا أمرها للنبي وقال بعضهم لبعض : إن حكّم بعدم الرّجم فهذا خير لنا ولها ، ومن العجيب أنهم غير مؤمنين بمحمد بينما يريدون الحكم منه ، فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : هاتوا الكتاب ، ويأتون بالصحف الموجودة عندهم ، فوجدوا آية الرّجم؛ إذن فالقرآن مُصدق الذي بين يديه من غير المكتوم ، ولا المحرّف ، ولا المؤوّل .

وإذا ما نظرت إلى القضايا التي يلتفتون إليها ، ولكنها تكرر أمامهم خاطفة ، تجد أنت هذه القضايا وسيلة يريد الله بها أن يكشف الفساد والكذب والتجبر ، حتى لا يطمس أهل الباطل معالم الحق . ومثل هذه القضايا تحتاج إلى المحقق اللبّ . ونجده سبحانه جاء في التوراة بمثل للأمة الحمديّة ، ويكرر هذا المثل في القرآن حين يقول سبحانه : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح : 29] .

وحين ننظر إلى كلمة « أشداء » ، وكلمة « رحماء » ، نجد في ظاهر الأمر تناقضا في الطباع ، أما المدقق المحقق فيعلم من هذا القول أن الإسلام لا يطبع المسلم على لون واحد؛ لأنه يريد منه كل الألوان ، فلو خلقه شديداً لفقدته مواطن الرحمة ، ولو فطره وخلقه رحيماً لفقدته مواطن الشدة . والإسلام يطلب من المسلم الالتزام بالقيم الروحية والمادية لتحرس كل منهما الأخرى؛ لأن

المسلمين لو راحوا للمادة فقط لصارت حضارتهم شرسة ، ولو راحوا للقيم لما استطاعوا أن

يقيموا حضارة تبقى وتدوم ، والحق يريد حضارة تجمع بين الاثنين؛ الروح والمادة ، لذلك يجمع الإسلام بين الاثنين؛ الروح والمادة؛ لأن اليهود في فهمهم لما افتقدت الروح ، والنصرانية في فهمهم لها غرقت في الروحانيات وافتقدت المادة ، وجاء القرآن مُصدّقاً لما بين يديه ، وهكذا جاءت الآية بالبلاغ عن أهل الكتاب .

ويتابع البلاغ لأهل قريش قاطني مكة فيقول : { وَلْتُنذِرْ أُمَّ الْقُرَى } ، ونعرف أن أم القرى تعني مكة ، وقد حاول البعض أن يتخذ من هذه الآية حُجّة ليقول : إن القرآن قد نزل لجماعة العرب فقط ، وهؤلاء نقول : أنتم لم تحسنوا الفهم لمعطيات اللفظ ، ولنسأل : ما الحول أولاً؟ . الحول هو المحيط الذي حول النقطة ، أيّ نقطة وكل نقطة ، وحول كل نقطة قُطِرَ وقد يكون القطر 20 كيلومترا ، وقد يكون مائة كيلومتر ، وكلما بعدت المساحة فهي حول هذه النقطة ، إذن فكلمة الحول تشمل كل ما حوله ، وحول كل مكان يشمل كل مكان .

ولماذا سميت أم القرى؟؛ إما لأن « هاجر » لما نزلت بابنها الرضيع بوادٍ غير ذي زرع ، وبعد ذلك تكاثر الناس فصارت هي أم القرى ، أو لأن فيها الكعبة ، وكل الناس يؤمونها ، أو لأن الحاج يأتيها من كل صوب كما يهب ويسرع الأبناء ويلوذون بأهمهم : { وَلْتُنذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } والذين يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ [الأنعام : 92] .

من - إذن - الذي يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزل مُصدّقاً لما بين يديه لينذر به أم القرى ومن حولها ، ومن هم الذين يؤمنون بالآخرة؟ ولماذا جاء الربط بين أم القرى وما حولها وبين الذين يؤمنون بالآخرة؟ . لأن أحداً لن يذهب لتعاليم القرآن ليأخذها وينفذها إلا من يؤمن بأن هناك يوماً نذهب فيه جميعاً إلى الآخرة .

لذلك يخاف فيهرب من المعاصي ، ويرغب في الطاعة؛ لأن هناك ثواباً وعقاباً ، أما الذي لا يؤمن بالآخرة فلا يسمعك ولا ينصاع ولا ينقاد لك حين تأمره بالعفة؛ لأنه لا يرى ثواباً أو عقاباً ولا ينتهي عن السرقة أو الكبر أو الموبقات جميعاً؛ لأنه لا يخاف من الآخرة؟ .

إذا فالذي يملكنا جميعاً هو الآخرة والخوف منها ، ومن لا يؤمن بالآخرة يقول أنا غير مُلزم بشيء ، ولا شيء يقيّد حريتي . ثم لماذا أقيّد حريتي؟!

وهنا نقول : أنت تأخذ الأمر بسطحية ، فعلى فرض أن في قوانين السماء ما يقيّد حريتك ، لكنه لا يقيّد حريتك وحدك ، إنه يقيّد حرية الكل ، فإن قيد حريتك بالنسبة للناس ، فهذه القوانين السماوية تقيّد حرية الناس بالنسبة لك ، فحين ينهك الدين عن السرقة ، وعن النظر إلى محارم الغير فهو يقول للناس كلها : لا تسرقوا من فلان ولا تنظروا إلى محارم فلان ، وبذلك تأخذ حقل كاملاً ، وبهذا تعيش في نظام متساوٍ لا تتعب فيه؛ لأن الجاري والمطبق عليك جارٍ على غيرك مع جريانه عليك .

لكن من يؤمنون بالآخرة هم كل واحد يريد أن ينجي نفسه من العقاب ، ومن الوعيد . ويدخل نفسه في الوعد وفي الثواب . فمثلاً - والله المثل الأعلى - حين نقول للولد : اذهب لتلقى العلم ، قد يرد : أنا لا أريد شهادة ، فيجبره والده في البداية أن يستذكر ، ثم نجد الشاب بعد مشوار المذاكرة يخاف من الرسوب وأن عليه أن يجتهد وأن ينجح . أما إن لم يوجد امتحان في آخر العام فالمذاكرة وعدمها سواء لديه . فمن أقرب - إذن - إلى الاستجابة لنداء العدل والخير؟ إنه من يؤمن بالآخرة .

{ والذين يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [الأنعام : 92] .

ولماذا جاء بالحفاظ على الصلاة هنا؟ . نحن نعلم أن الصلاة ، هي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، وحين نحلل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنفر من الطاعات لأنها تأخذ زمناً يجبون أن يقضوه في اللعب ، وحين نقول لواحد مثلاً : اترك عملك وصل . قد يرد : لا؛ لأني حين أترك عملي يضيع عليّ كذا . ولو كان طبيياً لذكر عدداً من مرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لقال : إن توقف الآلة في أثناء الصلاة يجعلني أخسر كثيراً .

وهنا نقول : يا أخي تعال إلى الطاعة ، والبركة تعوض لك ما تظن أنك تخسره ، وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت؛ فشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله لا تحتاج منك إلا إلى أن تقوفاً مرة واحدة ، وهذا ركن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والزكاة لا تأخذ منك إلا ما تعطيه يوم الحصاد ، وهذا يستغرق وقتاً قليلاً ، وكذلك زكاة المال آخر العام ، والصوم شهر في السنة ، وإذا كان زمن الصوم أوسع قليلاً إلا أنه وقت لا يمر إلا كل عام . والحج مرة في العمر إن كنت مستطيعاً .

إذن أنت تجد التكاليف الركنية في الإسلام بالنسبة للأزمان وقتها يسير وقليل لمن يحرص عليها ، لكن الصلاة تؤدي في كل يوم خمس مرات ، وورقتها بالنسبة للزمن أوسع . وأداؤها يحتاج إلى طهارة من حدث أو جنابة وكذلك طهارة المكان؛ لذلك جاءت الصلاة ركناً أصيلاً في الإسلام . وأنت لا تعرف الإنسان إن كان مسلماً إلا إذا سمع الأذان وقام يصلي . لذلك هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم؛ لأن الأركان الأخرى أزمانها محصورة ، ومع أنها كذلك إلا أنها أخذت من التشريع حظها من الركنية الأصيلة .

إن كل تشريعات الإسلام أركاناً وفروعاً جاءت بالوحي إلا الصلاة؛ فقد جاءت بالمباشرة؛ لأن الصلاة دعاء الخالق خلقه لحضرتة؛ لذلك كان لا بد أن يكون تشريعها بهذه الصورة الفريدة ، تشريعاً جاء بالحضرة الإلهية .

وشيء آخر : ما دامت الصلاة هي العمدة في الدين فكأن الصلاة تقول للأركان الأخرى : أنا أجمعكم وأضمكم وأشملكم جميعاً؛ فالمسلم في أثناء الصلاة يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن

محمدًا رسول الله . والمسلم يصوم في أثناء الصلاة عن شهوتي البطن والفرج بل وتكون الصلاة صوماً لا عن الأكل والشرب ، وشهوة الفرج فقط بل هي إمساك عن كل حركة ، وفي الصلاة زكاة؛ لأن الزكاة تعني أن تخرج بعضاً من مالك ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الوقت . وأنت حين تصلي إنما تركي بالأصل وهو وقت العمل ، وأنت في الصلاة تتوجه إلى الكعبة كما يتجه الحاج والمعتمر ، إذن ففي الصلاة كل أركان الإسلام مجتمعة .

إذن فأهمية الصلاة أنها قد اندمج فيها كل ركان الإسلام ، وبها يتحقق الاستطراق الاجتماعي للخلافة في الأرض؛ لأن الخلافة في الأرض تقتضي مواهب متعددة ، وطاقات متعددة ، ولا يمكن لخليفة واحد في الأرض أن يكون مجمع هذه المواهب بل لا بد أن تنفرق المواهب في المتفرق والشثيت من الناس ، فلا يمكن أن يكون الإنسان الواحد مهندساً وطبيباً ومحامياً وصانعاً وحراراً وزارعاً وتاجراً . ولذلك وزع الله سبحانه وتعالى مقتضيات الخلافة في الأرض على الخلفاء في الأرض توزيعاً يجعل الالتقاء ضرورياً وليس تفضلياً ، بحيث تكون أنت في حاجة إلى مواهب ليست عندك فتذهب لصاحبها .

وصاحبها أيضاً يحتاج إلى مواهب عندك ليست عنده فيأتي إليك .

وانظروا إذا شاء واحد أن يستغني في بعض الأشياء التي يقوم بها الغير كم يتعب؟ ، فإذا ما أتعبه السباكون وآلموه في الأجور . وحاول تعلم السباكة ، ولا بد له أن يتعلمها من سباك . وكذلك حياكة الملابس . ومعنى ذلك أن الله أبقى المواهب متفرقة مشتتة في الخلق ليحتاج كل خلق إلى كل الخلق . والناس لا تنظر إلى جهة التميز إلا إلى شيء واحد هو : الغنى .

ونقول الغنى المالي أو العقاري هو نوع فقط من المواهب؛ لأنك مثلاً إذا نظرت إلى العالم الذي يظل عشرين عاماً يستوعب العلم ، ثم يقابله من يستفتيه في فتوى فيقولها له مجاناً ، ولو علم هذا السائل ماذا تكلف الأستاذ الذي أفتاه طوال عشرين سنة بحثاً في الكتب وسماعاً من الأساتذة واستنباطاً من الأحكام لدفع مكافأة لهذه الفتوى؛ لأن العالم كان مُسخرًا لمدة عشرين عاماً لتأخذ أنت الفتوى في نضجها النهائي في يسر وسهولة وتنتفع بها .

وحين نرى من يمسح الحذاء ، ونجد صاحب الحذاء وهو يمد وهو يمد رجله والآخر يمسح الحذاء تقول لنفسك : لماذا كل هذا الزهو لصاحب الحذاء ، ولماذا هذا الانكسار لماسح الأحذية؟ .

وأقول : أنت رأيت صاحب الحذاء وقت راحته ، ورأيت ماسح الأحذية وهو في وقت عمله . ولو عرفت كيف جاء صاحب الحذاء بالنقود التي سيدفعها لماسح الأحذية لعلمت أنه كان مسخرًا له ساعة كان يعمل ليحصل على النقود ليعطيها ماسح الأحذية ، ولذلك قال الحق :

{ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا } [الزخرف : 32]

والناس لا تنظر في التسخير إلا للغني والفقير ، ونقول : خذوا التسخير على أن كل واحد في

الكون مُسَخَّر في الموهبة التي عنده ، ومُسَخَّر له في المواهب التي ليست عنده . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يربط الناس بهذا ربطاً قسرياً وليس تفضلياً؛ لأن من عنده أولاد يريدون أن يأكلوا وامرأة تحتاج إلى أن تَطْعَم ولا يملك نفوداً ، وليس أمامه من عمل سوى نرح المجاري ، فيأتي بأدوات نرح المجاري ، ويؤدي العمل ليعول من يعولهم ، ولولا ارتباطه بضرورة الحياة له ولمن يعول لما عمل في مثل هذا العمل ، إذن فهو مربوط ربطاً ضرورياً ليؤدي خدمة في الكون . ولو كان كل البشر يعيشون في رغد العيش أكان هناك من يتطوع لينرح المجاري؟ لا يحدث ذلك أبداً ، لأنه عمل لا يأتي بالتفضل بل بالاحتياج .

وهكذا نرى أن الخلافة في الأرض تقتضي استطرافاً ، وهذا الاستطراف لا يدوم كثيراً؛ فمرة تكون القوة لإنسان ثم تذهب منه ، ومرة يكون الثراء لإنسان ثم ينحسر عنه هذا الغنى ، ولذلك أخبرنا الحق أنه جعل الأيام دُولاً بين الناس ليستقيم العالم بارتباط الضرورة في بعض الأعمال ، وإن بدا لنا أن هناك مواهب تميز بين الناس في شكلهم ، وفي هندامهم ، وفي مطيبتهم ، نجد الطبيب يعمل في أكثر من مكان ، وإن سار على رجليه لتعب ، لذلك يشتري سيارة ، ويظن من يراها أن السيارة امتياز لا مثيل له ، متناسياً أن هذه السيارة تقضي مصالح الرجل ليعخدم الآخرين .

مثال آخر : أنت إن نظرت إلى كوب الشاي الذي تشربه بمزاج وليس لضرورة حيوية ، وإن جاءك من يقدم لك الشاي ليقول : إن الشاي قد نفذ من المقهى ، فتعطيه جنيهاً وتقول : هات كيساً من الشاي من عند البقال ، ويذهب الغلام ليحضر علبة الشاي فيجد البقال وكأنه قد جهزها له ، وأنت لا تعرف أن علبة الشاي هذه قد أخذت وقتنا وعملا من اثنين أو ثلاثة لتصل إليك؛ لأن الحق قد كلف أناساً ليزرعوا الشاي في بعض البلاد ، وأناساً آخرين يستوردونه ، ثم تأتيك علبة الشاي لتصنع منها كوباً لتشربه .

إذن فمسألة كلها تسخيرات؛ لذلك توجد الفوارق الاجتماعية التي تقتضيها أعمالنا ، ويذيب الحق هذه الفوارق بأن جعل في الصلاة استطرافاً للجميع ، وتلتفت ساعة يقول المؤذن : (الله أكبر) أن الكل قد جاء ، الغني قبل الفقير ، والخبير مع الأمير ، ويخلع الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساووا في الصلاة ، ومن له رئيس يتكبر عليه يراه وهو ساجد مثله لله ، فترجحه لحظة استطراف العبودية .

ولنفرض أن كلاً منا سيصلي بمفرده في الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة ، يأمرنا الحق أن نَدْر ونترك كل شيء لنؤدي صلاة الجمعة معاً . ويرى الضعيف عظيمياً يتضرع مثله إلى الله ، ويرى القوي نفسه بجانب الضعيف ، وحين يعود كل منا إلى عمله تسقط أقنعة القوة والزهو؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكلنا سواء .

إن هذا هو الاستطراف الاجتماعي؛ لأننا حين نرقب بعضنا في أثناء الصلاة نجد أنفسنا في حضرة

الرَّبّ الذي أعد لنا الكون ، وسخّره لنا ، وأعطانا الطاقات ، وأعطانا المواهب ، وإذا تأملنا واحداً له وظيفة كبيرة جداً ، فأنت حين ترغب في لقائه تكتب التماساً ، ويُنظر في الالتماس ، فيما أن يوافقوا وإما لا يوافقوا على لقائك به . وإن وافقوا يسألوك : في أي أمر ستتكلّم؟ وسيحدد لك الوقت الذي ستجلس فيه معه وليكن ثلاث دقائق مثلاً ، وحين تجلس إليه وتنسى نفسك يقوم هو ليدلك على أن المقابلة انتهت ، لكن ربنا يقول لنا : تعالوا لي في أي وقت ، وكلموني في أي شيء ، وأنا لا أملّ حتى تملّوا ، وأنتم يا عبيدي منّ تنهون المقابلة ، وهذا عطاء كثير جداً . يغدقه المولى عزوجل على عباده .
فهل هناك ربوبية أفضل من هذه؟ .
إذن فالصلاة إذا نظرت إليها وجدت أنّها : جماع كل فضائل الدين وفيها كل الفضائل للمجتمع
«؛ لذلك جعلها الله عماد الدين .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى . . . }

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

ساعة يأتي الحق بأسلوب استفهامي فليس الهدف أن يستفهم . إنه - سبحانه - لا يريد ان يأتي الخبر من عنده ، وهو يقدر أن يقول : الذي يفترى ظالم ، لكنه هنا يأتي بالاستفهام الذي يؤكد أنه لا يوجد أظلم من الذي يفترى على الله كذباً ، ويعرض الله القضية على المؤمنين وكأنه يسأل ليعوض كل مؤمن القضية على ذهنه ويستنبط الجواب . إن الذي يفترى على زميله والمثيل له كذباً يُوقع به العقاب ، فما بالك بمن يفترى على الله؟ وحين تسمع أنت هذا الكلام : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } . وتستعرض الأمر فلا تجد أظلم منه ، وهكذا يستخرج الله الحكم من فم المقابل .

وكيف يفترى إنسان الكذب على الله؟ كأن يبلغ الناس ويدّعي ويقول : أنا نبي وهو ليس كذلك . هنا تكون الفرية على الله ، وإياك ان تظن أنه يكذب على الناس ، لا ، إنه يكذب على الله؛ لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثه .

و « الافتراء » : كذب مُتعمّد مقصود ، وينطبق ذلك على النبوات التي ادّعت؛ من مثل مسيلمة الكذاب ، سجاح ، طليحة الأسدي ، الأسود العنسي؛ كل هؤلاء ادّعوا النبوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدالة على نبوتهم؛ لأن كل واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يُخفّف عن الناس أحكام الدين .

فواحد قال : أنا أخفف الصلاة ، والزكاة لا داعي لها . لذلك تبعهم كل من أراد أن يتخفف من

أوامر الدين ونواهيها ، موهما نفسه بأنه مُتدين ، دون أن يلتزم بالتزامات التدين ، وهذا هو السبب في أن أصحاب النبوات الكاذبة ، والادعاءات الباطلة يجدون لهم أنصاراً من المنافقين؛ فالواحد من هؤلاء الأتباع قد يكون مثقفاً ثم يصدق نبياً دجالاً ، وتسأل التابع للدجال وتقول له : أسألت مدّعي النبوة هذا ما معجزتك؟ - وهذا أول شرط في النبوة - ولم نجد أحداً سأل هذا السؤال قط ، لماذا؟

لأن التدين فطرة في النفس ، ولكن الذي يصعب التدين هو الالتزامات التي يفرضها التدين ، وعندما يرى التابع الضعيف النفس أن هناك من يُرجع من الالتزامات الدينية ، ويفهمه أنه على دين ، ويقلل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضعاف النفوس ، وتصبح المسألة فوضى .

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ } [الأنعام : 93]

هناك من ادعى وقال : أنا نبي ، وقال : سأنزل مثل هذا القرآن ، فماذا قال هذا المدّعي وهو « النضر بن الحارث » يقول - في أمة أذنها أذن بلاغية ، تتأثر بموسيقى اللفظ - : « والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزنا »!! ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول : « والزراعات زرعاً والحارثات حرثاً » ثم يقول من ادعى أنه أوحى إليه : « والعاجنات عجنا والخابزات خبزنا » ، وكان عليه أن يتبعها أيضاً : « والآكلات أكلا والمأضمت هضما » .

وطبعاً كان هذا الكلام لوناً من هراء فارغ؛ لأن الحق إنما أنزل كلامه موزوناً جاذباً لمعانٍ لها قيمتها في الخبر ، ولذلك نزل القول الحق : { أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } ، « وقد جاء واحد هو عبدالله بن سعد بن أي سرح القرشي وكان أخا لسيدنا عثمان من الرضاة وكان كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد في حضرة النبي . فنزلت الآية : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * } ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ } [المؤمنون : 12-14] .

وانبهر بالأطوار التي خلق فيها الحق الإنسان فقال : { تبارك الله أحسن الخالقين } . فقال له رسول الله : اكتبها فقد نزلت . واغترّ الرجل وقال : إن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه؛ وإن كاذباً لقد قلت كما قال : فأهدر رسول الله دمه . وقال لصحابته : من رآه فليقتله . وفي عام الفتح جاء به عثمان رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ، اعف عن عبدالله ، فسكت رسول الله . قال عثمان رضي الله عنه : اعف عنه . فسكت رسول الله . وكررها ثالثاً : اعف عنه يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله ، وأشار الرسول لسيدنا عثمان بن عفان ، فأخذ الرجل وانصرف ، فلما انصرف قال الرسول لصحابته : ألم أقل لكم من رآه فليقتله؟ قال سيدنا عباد بن بشر : يا رسول الله لقد جعلتُ إليك بصري - أي وجّهت عيني لك - لتشير عليّ

بقتله ، فقال رسول الله لعباد بن بشر : « ما ينبغي لرسول أن تكون له خائنة الأعين » وأسلم ابن أبي سرح وحسن إسلامه .

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ما هي عقوبات هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ، ويجاولون التغيرير بالناس مدّعين أن الله أنزل عليهم وحياً؟

يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الموتِ والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أَنفُسَكُمْ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحقِ وَكُنْتُمْ عَن آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } [الأنعام : 93] .

وساعة تسمع « لو » هذه تعرف أنها شرطية ، وأنت تقول - مثلاً - لو جاءني فلان لأكرمه . وحين تقرأ القرآن نجد كثيراً من « لو » ليس لها جواب ، لماذا؟ لأن الإتيان بالجواب يعني حصر الجواب الذي لا يمكن للفظ أن يحصره فأنت تتركه للسامع مثلما تجد شاباً يلعب دور الفتوة في الحارة ويتعب سكانها ، ثم وقع في أيدي الشرطة وأخذوه ليعاقبوه ، فيقول واحد ممن رأوه من قبل وهو يرهق أهل الحارة : آه لو رأيتم الولد الفتوة وهو في يد الشرطة! أين جواب الشرط هنا؟ إنه لا يأتي؛ لأنه يتسع لأمر عجيب يضيق الأسلوب عن أدائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الموتِ } ولم يقل لي : ماذا ترى؟ لأنك ستري عجباً لا يؤديه اللفظ . و « الغمرات » هي الشدة التي لا يستطيع الإنسان منها فكاكاً ولا تخلصاً .

ويتابع الحق : { والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أَنفُسَكُمْ } فهل هم ملائكة الموت الذين يقبضون الروح؟ أو الكلام في ملائكة العذاب؟ إنها تشمل النوعين : ملائكة قبض الروح وملائكة العذاب .

{ والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أَنفُسَكُمْ } كأن ملائكة قبض الروح تقول لهم : إن كنتم متائبين على الله في كثير من الأحكام لقد تائبتم على الله إيماناً ، وتائبتم على الله أحكاماً ، وتائبتم على الله في تصديق الرسول ، فهاهو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم ، فهل أنتم قادرون على التمرد على مرادات الحق؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته في التأيي على قبض روحه ، أو أن الملائكة يبالغون في النكاية بهم كأن نقول لواحد : اخنق نفسك وأخرج روحك بيدك أو : أخرجوا أنفسكم من العذاب الذي يجيق بكم .

« وعذاب الهون » هو العذاب المؤلم وفيه ذلة . وأساليب العذاب في القرآن متعددة ، فيقول مرة : « من العذاب المهين » أو وأعد لهم « عذاباً مهيناً » أو ولهم « عذاب أليم » فمرة يكون العذاب مؤلماً لكن لا ذلة فيه ، ومرة يكون العذاب مؤلماً وفيه ذلة . وكما أن النعمة فيها تعظيم فالنقمة فيها ذلة . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فالله سبحانه منزه عن أي تشبيه -

: قد نجد حاكماً يعتقل إنساناً ويأمر بأن يجلس المعتقل في قصر فخم وله حديقة ، لكن حين يأتيه الطعام ، يقول له الحارس : خذ اتسمم ، وفي ذلك إهانة كبيرة .
ولماذا يذيقهم الحق العذاب المهين؟ تأتي الإجابة من الله : { بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } . كأن يقول واحد : أوحى إلي ولم يوح إليه شيء . وهم أيضاً يستكبرون على الآيات التي يؤمن بها العقل الطبيعي ، ويقول الحق : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : 14] .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى . . . } .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

وقوله الحق : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى } أي أن كلاً منكم يأتي إلى الله فرداً عما كان له في دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، جاء كل منهم لله وليس معه الأصنام التي ادعى أنها شركاء لله ، واتخذهم شفعاء له . و « فرادى » جمع « فردان » أو « فريد » مثل « سكارى » جمع « سكران » و « أسارى » جمع « أسير » ، إنهم يأتون إلى الله زُمراً وجماعات ، ولكن كل منهم جاء منفرداً عما كان له في الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع ، بدليل أنه قال : { وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } .

و « خَوْلَهُ » أي جعل له خدماً من الأتباع ومن المرئيين ، ومن المقدر والمضيق عليهم في الرزق ومن العائشين في نعمته ، جاء كل منهم منفرداً عما له في الدنيا كما خلقكم الله أول مرة ، أي كما دخلتم في الدنيا! { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [الأنعام : 94] .
وقوله الحق : « جئتمونا » أي كأن الإنسان الذي أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب معترفاً أنه يستحق هذا العذاب إقراراً منه بالذنب ، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله والتوبيح لنفسه التي انصرفت عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب .

{ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ } [الأنعام : 94] .

و « البين » هو ما يفصل أو ما يصل . فعندما نجد اثنين قاعدين وبينهما « بين » فهذا البين فاصل وواصل . فإن اعتبرته واصلًا ، أقول : تقطع هذا ، أي وقع التقطع بينكما ، وانفصمت الروابط بينكم وتشتت جمعكم ، وإن كان البين فاصلاً فقد وصلوا أنفسهم بالأصنام .
وماذا كانت صلة هؤلاء بالأصنام التي يشركونها في العبادة؟ كانوا يقدمون لها القرابين ، وغير ذلك . وهذه الأصنام وكل من جعلوه شريكاً مع الله سيفر منهم يوم القيامة . وهكذا يتحقق قوله الحق : { لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ } .

ويواصل سبحانه : { وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْغُمُونَ } ، و « صلَّ » أي تاه وغاب ، ما كنتم تبحثون عنهم فلا تجدونهم مصداقاً لقوله الحق : { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة : 166] .

ويقول الحق من بعد ذلك : { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ . . . } .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكَ اللهُ فَأَنِّي تُؤفِكُونَ (95)

بعد ما تكلم الحق عن التوحيد والنبوات ، ومن كانوا يعاكسون ويعارضون ويناثون تلك النبوات ويكذبونها وقالوا فيها الإفك أراد الله أن يلفت خلقه إلى ما أعده لهم استبقاءً لحياتهم ، وكيف سخر لهم كل الكون بما فيه . . جماداً ونباتاً وحيواناً ، وكأنه سبحانه يوضح : إن كنت لا ترى أن الخالق يستحق عبادتك فانظر إلى ما انعم عليك به من النعم ، وما دام العبد المخلوق له كل نعم الخالق الأعلى فلماذا لا يسمع كلمته سبحانه؟ أيها المخلوق أنت تترى على مائدة الرحمن وهو خالقك فانظر وتأمل واعرف .

{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى } وساعة تسمع لفظ الجلالة : أي علم واجب الوجود وهو الله ، فعليك أن تأخذ لفظ الجلالة بكل ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ما عرفته وما لم تعرفه؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله وهو قيوم عليه ، وهذا الخلق وتلك القيومية فعل يقتضي صفات متعددة تقتضي قدرة ، وحكمة ، وعلماً واسعاً ورحمة ، وبسطاً وقبضاً وغير ذلك ، وبدلاً من أن يأتي لك بصفات القدرة ، وصفات الجمال ويذكرها ويعددتها لك يقول سبحانه عن نفسه : « الله »؛ لأنه الاسم الجامع لكل صفاته . ونحن نقول في بدء كل عمل : بسم الله ، وفي ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أي عمل ، لأن أي عمل يحتاج إلى قدرة ، فتقول : باسم القادر ، ويحتاج إلى علم فتقول : « باسم العليم » ويحتاج إلى حكمة فتقول : « باسم الحكيم » ويحتاج عزة فتقول : « باسم العزيز » وقد تحتاج إلى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فتقول : « باسم القاهر » إذن كل عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أن يقول باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض ، يوفر عليك سبحانه كل ذلك فتقول : بسم الله ، لأن اسم الجلالة وهو « الله » هو الجامع لكل صفات الكمال .

{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى } ، فالق أي شاقق ، جاعل الحب والنوى كل منهما فلقين . « الحب » ما لا نواة له مثل الشعير والقمح والأرز . وهناك ما له نوى مثل البلح والخوخ ، وتجذ في قلب النواة شيئاً آخر . وهناك نوع آخر له بذور مثل البطيخ ، وفي كل بذرة تجذ فيها شيئاً ، فيوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن عظمتي تتجلى في أنني أخلق الحب وأخلق النوى ، وهناك حبوب مفلوكة جاهزة ، مثل حبة الفول مثلاً وحبّة العدس .

وأنت إذا ما نظرت إلى هذه العملية وجدت شيئاً عجباً!!

فحين تأتي لنواة البلح أو حبة الشعير ، وتضعها في الأرض في بيئة استخراجها ، وبقليل من الرطوبة ، تجد الفلقتين قد خرج منها نبتة وتكاد النواة أن تنفلق ليخرج منها الزبان الضعيف بين الفلقتين ، وإن نزعت هذا الجذير تنتهي الحياة .

ولذلك وجدنا من يتعجب حين اقتحم أعشاش النمل ووجد في العش قطعاً صغيرة مفتتة بيضاء بجانب العش ، واكتشفوا أن هذه هي زبانات الحب الذي يدخله النمل للعش ، فلو أن النمل أدخل الحبوب كاملة فقد تأتي لفحة من رطوبة فتكبر هذه الحبة ، وتنمو وتصير شجرة تفتك بالعش ، فمن الذي هدى النمل إلى أن تفعل هكذا؟ إنه الله . ونجد النمل يفلق حبة نبات « الكزبرة » إلى أربع قطع لأنه لو قطعها إلى اثنتين قد تنبت ، من الذي علمه؟ إنه سبحانه : { الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 2-3] .

والعجيب أنك حين ترى النبتة الضعيفة ساعة أن تخرج إلى الحياة وهي التي ستكون من بعد ذلك جذراً إنها هشّة وضعيفة إن أمسكتها بيدك تسحقها ، لكنها تخترق قلب الأرض الصلبة التي لو ضربتها بسكين لانكسرت السكين ، لكن الجذير الضعيف يدخل في قلب الصخر والأرض ، فأى قوة أعطته ذلك؟ أي قوة تخرق له الأرض؟ وهل الجذير هو الذي خرق الأرض أو خُرِقَتْ له؟ لقد خرق الحق الأرض للبذرة لتستخرج منها غذاء للزرع ، إنها قدرة الحق سبحانه { فَالِقُ الحَبِّ } الذي ادخر في فلقتين اثنتين قوتاً للنبات إذا مسته رطوبة تتغذى عليها الزريعة إلى أن تربي الجذور ، ويستمد النبات غذاءه من الفلقتين إلى أن يثبت ويتمكن في الأرض ثم تتحور الفلقتان إلى ورقتين خضراوين .

ويتابع الحق سبحانه : { يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ } . وحين تأمل العلماء هذا القول وأرادوا أن يوضحوا لنا ما الحي؟ وما الميت؟

فات الجميع أن يعرفوا ما هي الحياة؟ الحياة هي قيام الموجود بما يؤدي به مهمته ، فحياة الإنسان فيها حركة وحس وجري ، ثم هناك حياة ثانية في الحيوان ، وحياة ثالثة في النبات ، وحياة ذات طابع مختلف في الجماد . مثلما علمونا في المدارس حين كان المدرس يمسك بقضيب ممغنط ليجذب برادة الحديد ، حتى الحديد الصلب فيه لون معين من الحياة . وكلنا رأينا في المدارس الأنبوية الزجاجية التي وضعوا فيها برادة الحديد وكيف تتأثر بقضيب المغناطيس . وتعتدل وتصير في مستوى واحد ، وهكذا نعرف أن الحياة هي الطاقة الموجودة في كل كائن ليؤدي مهمته حتى الأحجار تختلف فيها أشكال الحياة ، فهناك حجر يأخذ شكل الرخام ، وآخر المرمر ، وكل لون من الأحجار له شكل من أشكال الحياة .

ونقرأ في القرآن : { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } [الأنفال : 42] .

وجاء الحق بمقابل الهلاك وهو الحياة؛ فالهلاك ضد الحياة والحياة ضد الهلاك ، ويقول سبحانه في آية أخرى : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } [القصص : 88] .
إذن ما دام كل شيء هالكاً ، فكل شيء فيه حياة ، والخطأ أن تظن أن كل حياة تتشابه في الحس والحركة مع الإنسان ، لا ، إن الحياة في كل شيء بحسبه ، إلى أن تقوم القيامة ، فكل شيء حي له حياة تناسبه ، وحين نسمع :

{ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .
نقول : نعم كل من يسبح بحمده يقول قولاً ، وإياك أن تقول إنه تسبيح دلالة؛ لأن بعضهم يقول : إن هذا تسبيح دلالة على الخالق ، ونقول : لو أن الذي يقصده الله تسبيح دلالة على خلق لما قال : { وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } .

إذن : فلا أحد منا يفهم لغة التسبيح ، وعرفنا من قبل حين سمع سليمان عليه السلام قول النملة وتبسم لها ضاحكاً ، وكذلك ما سمعه من الهدهد ، وكذلك تسخير الجبال لتسبح مع داود عليه السلام .

{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيِّ مِنَ الحَيِّ وَهُجْرُ الحَيِّ مِنَ الحَيِّ ذَلِكَ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [الأنعام : 95] .

إن كل كلمة لها دلالتها ومعناها . فكلمة العلم تدلنا على إحاطة علمه بكل شيء في الوجود ، وكلمة الحكمة تدلنا على أن كل شيء منه يصدر عن حكمة . وكلمة الرزاق تدلنا على أن كل مرزوق في الوجود إنما أخذ من فيضه وخيره ، وهكذا إلى ما لا نهاية لكماله من صفات ذاته .
وكلمة « الله » تدل على كل صفات الجلال والجمال والكمال ، فإذا قال : « الله » فهذا الاسم : يشمل القادر ، العالم ، الحكيم ، القدير ، وكل صفات الحق ما علمت منها وما لم تعلم ، ما دامت ذاته سبحانه وتعالى متصفة بكل صفات الكمال ، فالواجب أن يكون كل فعل يصدر عن ذاته المتصفة بالكمال له مطلق القدرة والجمال والكمال .

إذن فحين يقول الحق ذلك فإنما يلفتنا إلى أن كل شيء كائن في الوجود إنما هو من خلق الله ، وأن له حياة تناسب مهمته؛ فالإنسان له حياة تناسب مهمته . والحيوان له حياة تناسب مهمته . والنبات له حياة تناسب مهمته . والجماد له حياة تناسب مهمته . وإذا نظرت إلى الأشياء كلها بهذا المعنى وجدت أن كل موجود فيه حياة ، ولكن الحياة الكاملة بكل مقوماتها وجدت في الأعلى من المخلوقات وهو الإنسان ، والله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الحياة حساً وحركة ، ثم أعطاه حياة أخرى هي التي تُصعد حياته وتجعل حياته قيمة؛ لأن حياتنا التي نعيشها إنما يتمتع بها المؤمن والكافر ، وقصارى ما فيها أن تعطينا الحس والحركة قدر عمرنا في الحياة ، ولكن حياة الإيمان بما يبعثه الله لنا من منهج على يد الرسول . تعطينا حياة أوسع ، وأخلد ، وأرغد ، وهذه

هي الحياة الحققة ، ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .

وهذه هي الحياة الحقيقية وقول الحق : { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى } هو المقدمة الأولى للحياة ، ثم تكلم عن الحياة وأنه يخرج حياً من ميت ، وهو هنا قد خاطبنا على مقدار أوليات علمنا بالأشياء؛ فالشيء إذا لم يكن له حس وحركة نعتبره ميتاً لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شيء في الوجود له حياة .

مصداق ذلك قوله جلت قدرته : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } .

وما دام كل شيء هالِكاً فكل شيء قبل أن يهلك كان فيه حياة .

والله سبحانه القائل : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 26-27] .

ولماذا جاء في هذه الآية ب « تخرج » وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قوله : « ومخرج الميت من الحي »؟ إن الذين بحثوا هذا البحث نظروا نظرة سطحية في المقابلة الجزئية في الآية ، وهي : { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } وقال : { وَخُجِرُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ } نسوا أنه سبحانه قال : إنه يخرج الحي من الميت؛ لبيان أن الله فالق الحب والنوى ليخرج الحي من الميت أي أن الله فلق وشق الحب والنوى لأجل أن يخرج الحي من الميت . .

ثم قال : { وَخُجِرُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ } هو مقابل لفالق فلا تأخذها مقابلة للجزئية في الآية؛ ولأن الاسم يدل على الثبوت ، والفعل يدل على الحدوث؛ فالحق سبحانه وتعالى له صفة في ذاته ، وصفة في متعلقات هذه الذات؛ فهو سبحانه وتعالى رزاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه . وهو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق؛ لأنه هو الخالق ، والخالق صفة للذات وإن لم يوجد المتعلق ، وهو سبحانه المحيي قبل أن يوجد من يحييه؛ لأن صفته في ذاته أنه يحيي ، وميت قبل أن يميت من يريد أن يميته؛ لأن الصفة موجودة في ذاته .

وسبحانه فالق الحب والنوى أي قبل أن يوجد الحب والنوى الذي يفلقه ، ومخرج الحي من الميت هو صفة ثابتة في ذاته قبل أن يوجد متعلقها . وله صفة - أيضاً - بعد أن يوجد المتعلق ، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلق جاء بالاسم : « فالق ومخرج » . وإن كان يريد الصفة بعد أن توجد ، يقول : « يخرج » ، « يخرج » .

ويذيل الحق الآية : { ذَلِكَمَ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [الأنعام : 95] .

و « ذا » اسم إشارة لما تقدم ، وهو سبحانه فالق الحب والنوى ومن يخرج الحي من الميت ومخرج

الميت من الحي وهو الله . والكاف في قوله : { ذلكم } لمن يخاطبهم وهم نحن ، أما اللام من { ذلكم } فهي للبعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أن يخاطب رسوله ، يقول : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ }

[البقرة : 2] .

ولكنه هنا يخاطبنا فيقول : { ذلكم } إشارة إلى قول الحق سبحانه وتعالى : الله ، وفالق ، ومخرج ، والخطاب لجمهرة المخاطبين بالقرآن . فإذا كان الله بهذه الصفات فكيف ينصرفون عن الإيمان به وتوحيده؟ وذكر لنا أول مقوم من مقومات الحياة وهو النبات وهو ما نأكله ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الحب وخلق النوى ليخرج الحي من الميت وهو مخرج الميت من الحي فهو أولى بأن يكون إلهاً معبوداً فكيف تصرفون عنه؟! وإلى من تصرفون؟! إلى من توجد فيه صفات أرقى من هذه الصفات؟! لا يوجد من فيه صفات مثل هذه ، ولا أرقى من هذه الصفات .

وإذا سمعت كلمة : « أَيْ » فافهم منها أنها تأتي للتعجب ، تأتي وتطلب أن يدلنا واحد على كيفية انصرافهم عن الله وتوحيده مع وضوح الدلالات والبراهين .

ومرة يقول الحق سبحانه : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ } [البقرة : 28] .

هو سبحانه يخاطب الناس ويقول لهم : كيف تكفرون بالله فالله في ذاته يستحق ألا يكفر به ، لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمد من عدم ، ولم يشاركه أحد أو ينازعه في هذا الأمر ، وإليه نرجع جميعاً ، فكيف تكفرون به؟ وهذا تعجب كبير؛ لذلك يقول سبحانه هنا : { فَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ } أي فكيف تصرفون عن الحق وتعطلون عنه إلى الباطل فتعبدون - مع الله - إلهاً آخر بعد أن تعلموا أن هذه الصفات له - سبحانه - وليست لغيره؟ وكل تعجب يأتي في « أَيْ » مثل قوله الحق : { أَيْ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا } [البقرة : 259] .

أي كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟

ويقول سيدنا زكريا لسيدتنا مريم : { أَيْ لَكَ هَذَا }

إذن فالتعجب ملازم لكلمة « أَيْ » فكأن الصفات التي تقدمت صفات موجبة للإيمان بالله واحداً قهاراً مريداً عالماً حكيماً نرجع إليه جميعاً ، فقولوا لنا : كيف تكفرون بهذا الإله؟ وإلى من تذهبون إذا كان هذا الإله يُكفر به؟ أهنالك شيء ادعى أنه خلق وأنه رزق؟ لو أن شيئاً ادعى أنه خلق أو رزق كنا نعدركم ، لكن لم يدع شيء في الوجود بأنه خلق أو رزق ، والدعوة تثبت لصاحبها ما لم يقم لها معارض .

{ فَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ } وكلمة « أَيْ تُكْفِرُونَ » تعني كيف تُصرفون انصرافاً كذباً؛ لأن « الإِفْكَ » .

معناه الكذب المتعمد .

ويقول الحق من بعد ذلك : { فَالِقُ الْإِصْبَاحِ . . . } .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

وسبحانه يأتي بآية أخرى من الآيات المعجزة كما جاء بالآية الأولى في أنه هو الذي خلق لنا ما يقيم حياتنا .

{ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا } . ومعنى « فالق » أي جعل الشيء شقين ، وهما نعمتان متقابلتان لا تكفي واحدة عن الأخرى ، إذ لا بد أن يوجد إصباح ويوجد الليل سكيناً؛ لأن الإصباح هو زمان وضوح الأشياء أمام رؤية العين؛ لأننا نعلم أن الظلمة تجعل الإنسان يضطرب مع الأشياء ، فإن كنت أقوى من هذه الأشياء حطمتها ، وإن كانت أقوى منك حطمتك . إن السير في الظلمات التي لا يوجد فيها نور يهدي الإنسان إلى مرائبه قد يؤدي إلى خسارة الأشياء .

إننا في الصباح نعمل ونسعى في الأرض ، ونملأ الدنيا حركة . فإذا ما أصابنا الكد والتعب والنصب من الحركة فالمنطق الطبيعي للكائن الحي أن يستريح ويهدأ ويسكن لا بحركته فقط ولكن بسكون كل شيء حوله؛ لأنك إن كنت ساكناً ويأتي لك ضوء فهو يؤثر في تكوينك ، ولذلك يقولون الآن : إن « الأشعة » التي يكتشفون بها أسرار ما في داخل جسد الإنسان تترك آثاراً . إذن فالإشعاع الصادر عن الشمس يمنعه عنك الله ليلاً حتى يستريح الجسم من كل شيء ، من كل حركة ناشئة فيه ، ومن حركة وافدة عليه ، وهكذا تكون نعمة سكون الليل وظلمته مثل نعمة الصباح ، وكلاهما تتمم الأخرى ، ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى في أول السورة قدّم الظلمات على النور : { الحمد لله الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام : 1] .

لأنك لا تستطيع أن تنتفع بحركتك في النور إلا إذا كنت نشيطاً ومرتاحاً أثناء الليل . فإن لم ترتح كنت مرهقاً ولن تستطيع العمل بدقة في حركة النهار . إذن فالظلمة مقصودة في الوجود . ولذلك فالحضارة الراقية هي التي تنظم حياة الإنسان ليعمل نهاراً ويستريح ليلاً ، حتى لا يستأنف عمله في الصباح مكدوداً . ومن يزور ريف مصر هذه الأيام يفاجأ بأن أهل الريف قد سهروا طوال الليل مع أجهزة الترفيه ، ويقومون إلى العمل في الصباح وهم مكدودون مرهقون . ونقول : لنأخذ الحضارة من قمتها ، ولا نأخذ الحضارة من أسفلها؛ فحين تذهب إلى أوروبا تجد الناس تخلد وتسكن ليلاً ، ومن يسير في الشارع لا يسمع صوتاً ولا يجد من يخرج من بيته ، ولا تسمع صوت ميكروفون في الشارع؛ حتى ينال كل إنسان قسطه من الهدوء ، ويختلف الأمر في بلادنا : فالشوارع تمتلئ بالضجيج ، والمريض لا يستطيع أن يرتاح ، ومن يذاكر لا يجد الهدوء

اللازم ، ومن يتعبد تخرجه الضوضاء من جو العبادة ، ونجد من يصف ذلك بأنه نقلة حضارية!!
ونقول : لتأخذ كل نعمة من نعم الله على قدر معطياتها في الوجود النافع لك ، وحين يأتي الليل
عليك أن تطفئ المصباح حتى تمجع ولا تتشاغب فيك جزئياتك وتكوينك .

وسبحانه يقول : { فَالِقُ الإصباح } و { فَالِقُ } - كما قلنا - تعني شاقق ، فهل الإصباح
ينفلق؟ . وماذا؟ . ونقول : إن { فَالِقُ } هي اسم فاعل ، مثلما نقول : « قاتل الضربة » أي أن
الضربة من يده قاتلة .

و { فَالِقُ الإصباح } معناها أن الصباح ينفلق عن الظلمة؛ لأن الظلمة متراكمة وحين يأتي
الإصباح فكأنه فلق الظلمة وشقها ليخرج النور ، وتعني { فَالِقُ الإصباح } أيضاً أن الفلق واقع
على الإصباح فيأتي من بعده الظلام ، وهذه من دقة الأداء البياني في القرآن؛ لأن الذي يتكلم
إله .

وامرؤ القيس قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
والصبح والإصباح معناهما واحد .

هل الصبح من طلوع الشمس؟ أو الصبح من ظهور الضوء قبل أن تشرق الشمس؟ يأتي
الإصباح أولاً وهو النور الهادئ ، ونجد أطباء العيون بعد إجراء جراحة ما لإنسان في عينيه
يقومون بفك الأربطة التي تساعد الجرح على الالتئام ، يفكونها بالتدريج حتى لا يخطف الضوء
البصر فوراً ، ومن رحمة الله أن خلق فترة الصبح بضوئها الهادئ قبل أن تطلع الشمس بضوئها
كله دفعة واحدة . فكأن الصبح جاء ليفلق ظلمة الليل فلقاً هادئاً ، ثم جاءت الشمس ففلقت
الصبح .

إذن الإصباح فالق مرة لأنه شقّ الظلمة وفلقها ومفلوق مرة أخرى؛ لأن الظلمة جاءت بعده .
إذن فاسم الفاعل قد أدى مهمتين . . المهمة الأولى : فالق الإصباح . أي دخل بضوء الشمس
 . وإن قلنا : إصباحه فالق ، أي ظلمة الليل الأوى انفلقت . إذن فالإصباح فالق مرة ، ومفلوق
 مرة أخرى . وسبحانه حين يقول : { فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَنًا } يريد أن يعطي شقين
 اثنين؛ لأنه هو في ذاته فالق الإصباح . فيأتي بالاسم ليعطي لها صفة الثبوت ، ثم جاء ب {
 وَجَعَلَ الليل سَكَنًا } صفة الحدوث بعد وجود المتعلق . فإذا أراد الصفة اللازمة له قبل أن يوجد
 المتعلق يأتي بالاسم . وإن أراد الصفة بعد أن وجد المتعلق يأتي بالفعل .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور الثبات في قوله الحق : { وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد } [
الكهف : 18] .

الكلب هنا على هذه الصورة الثابتة ، وحين يريد القرآن أن يأتي بالصفة التي تتغير ، يأتي بالفعل

{ أَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً } [الحج : 63] .
وكان القياس أن يقول : فأصبحت الأرض مخضرة؛ لأنه قال : « أنزل » لكنه يأتي بالتجدد الذي يحدث { فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً } .

ويتابع الحق : { والشمس والقمر حُسْبَانًا } ونحن نعرف الشمس والقمر وجاء بعد ذلك بكلمة { حُسْبَانًا } ، على وزن فُعْلَان ، وهذا ما يدل عادة على المبالغة مثلما تقول : فلان والعياذ بالله كفر كفراناً . ومثلما تدعو : غفر الله لك غفراناً . فحين تحب أن تبالغ تأتي بصيغة فُعْلَان . وجاء القرآن بكلمة « حسابان » في موضعين اثنين فيما يتصل بالشمس والقمر جاء بها هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها { والشمس والقمر حُسْبَانًا } ، وفي سورة الرحمن يقول الحق سبحانه :

{ الشمس والقمر بحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] .

وما الفرق بين التعبيرين؟ « حسابان » هنا تعني أن تحسب الأشياء ، فنحن نحسب السنة بدورة الشمس ب 365 يوماً وربع اليوم وهي تمر بالبروج فيها خلال هذه المدة ، والقمر يبدأ بروجه كل شهر في ثمانية وعشرين يوماً وبعض اليوم ، ونحن نحسب بالشمس اليوم ، ونحسب بها العام ، ولكننا نحسب الشهر بالقمر ، وأنت لا تقدر أن تحسب الشهر بالشمس ، بل تحسب الشهر بالقمر لأنه يظهر صغيراً ثم يكبر ويكبر ويكبر . ولذلك يثبت رمضان عندنا بالقمر لا بالشمس . واليوم نثبتته بالشمس .

وهكذا عرفنا أن الشمس والقمر ويعملان في حسابنا للأيام والشهور ، والاتنان حسابان : الشمس لها حساب ، والقمر له حساب وإذا ما نظرت إلى كلمة « حسابان » تفهم أن الشمس والقمر ، كليهما مخلوق ليحسب به شيء آخر؛ لأنهما خلقتا بحسبان ، أي أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق ، لأن الشمس مخلوقة بحساب ، وكذلك القمر .

وتعال إلى الساعة التي نستعملها ، ألا يوجد بها عقرب للساعات ، وآخر للدقائق ، وثالث للثواني؟ . وهذا أقل ما قدرنا عليه ، وإن كان من الممكن أننا نقسم الثانية إلى أجزاء مثلما عملنا في المساحات؛ فهناك المتر ، والسنتيمتر ، والمليمتير ، ثم بعد ذلك قلنا الميكرومليمتير . إذن ، كلما نرتقي في التقدم العلمي نحسب الحساب الأدق . ولم تكن الشمس والقمر حساباً لنا نحسب بهما الأشياء إلا إذا كانت مخلوقة بحساب .

إنك حين تنظر إلى ساعتك تدرك قفزة عقرب الثواني ولكنك لا تدرك حركة عقرب الدقائق ، وكذلك لا تدرك حكة عقرب الساعات ، وكل من العقارب الثلاثة يدور « بزملك » وترس معين . إن اختلت الحركة في زمبلك أو ترس ، ينعكس هذا الخلل على بقية العقارب ، والثانية محسوبة على الدقيقة ، والدقيقة محسوبة على الساعة .

وهكذا فإن لم تكن الساعة مصنوعة بهذا الحساب الدقيق فهي لن تعمل جيداً . وهكذا لا نعتبر الساعة معياراً لحساب أزماننا إلا أنها في ذاتها خلقت بحساب . والحق سبحانه يقول : { الشمس والقمر بحسبان } أي لنحسب بهما لأنهما مخلوقتان بحسبان . أي بحساب دقيق ، ولماذا لم يقل الحق حساباً وجاء بحسبان هنا ، وحسبان في آية سورة الرحمن؟ . ذلك لأن الأمر يقتضي مبالغة في الدقة . فهذا ليس مجرد حساب ، لكنه حساب .

ويذيل الحق الآية بقوله : { ذلك تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } ، وكلمة « العزيز » تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أن يعلو عليه؛ فهذه الأجرام التي تراها أقوى منك ولا تتداولها يدك ، إنها تؤدي لك مهمة بدون أن تقرب منها؛ فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها ، مثلما تفعل في الساعة التي اخترعها إنسان مثلك ، والشمس لها قوة قد أمدها الله خالقها بما ولا شيء في صنعته ولا في خلقه يتأبى عليه . فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو سبحانه يعطينا حيثيات الثقة في كونها حساباً لنحسب عليها . فهو جل وعلا خالقها بتقدير عزيز لا يغلب ، وهو عزيز يعلم علماً مطلقاً لا نهاية له ولا حدود . ويقول الحق من بعد ذلك : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ . . . }

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(97)

وبعد أن أوضح سبحانه أنه قد خلق الشمس والقمر بحسبان لتكون حساباً بتقدير منه ، وهو العزيز العليم ، إنه - سبحانه - يصف لنا مهمة النجوم فقال : { لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، والنجوم هي الأجرام اللامعة التي نراها في السماء لتهتدي بها في ظلمات البر والبحر؛ ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خلقه ستضطربهم حركة الحياة إلى الضرب في الأرض؛ والسير ليلاً في الأرض أو البحر مثل من يجرسون ويشيعون الأمن في الدنيا ولا يمكن أن يناموا بالليل . بل لا بد أن يسهروا لحراستنا ، كل ذلك أراد الله بتقدير عزيز حكيم عليم ، ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدي بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون في الأرض أو يمشون في البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم؛ يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلاني أمام عينيك ، وسر فوق الحي الفلاني . واجعل النجم الفلاني عن يسارك وامش تجد كذا ، أو اجعل النجم الفلاني خلفك وامش تجد كذا .

إذن لو طمّت الظلمة لمنعت الحركة بالليل ، وهي حركة قد يضطر إليها الكائن الحي ، فجعل الحق النجوم هداية لمن تجرهم الحياة على الحركة في الليل . وعلى ذلك فالنجوم ليست فقط للاهتداء في ظلمات البر والبحر؛ لأنه لو كان القصد منها أن تهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، لكانت كلها متساوية في الأحجام ، لكننا نرى نجماً كبيراً ، وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر في الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة

أكبر ، وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها في حركة الإنسان براً وبحراً ، فليست هذه هي كل الحكمة ، هذه هي الحكمة التي يدركها العقل الفطري أولاً؛ لذلك يأتي الحق في أمر النجوم بقول كريم آخر ليوضح لنا ألا تحصر الحكمة في الهداية بها ليلاً براً وبحراً فيقول : { وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } فلم يقل - سبحانه - يهتدون في ظلمات البر والبحر . إذن - النجوم - لها مهمة أخرى ، إنه جلت قدرته يقول : { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّئَلَّا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة : 75-76] .

وكل يوم يتقدم العلم يبين لنا الحق أشياء كثيرة ، فهذا هو ذا المذنب الذي يقولون عنه الكثير ، وها هي ذي نجوم جديدة تكتشف تأكيداً لقول الحق : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [الذاريات : 47] .

أي أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً . وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قدر إدراكاتك وامتداداتك في النظر الطبيعي الذي لا تستخدم فيه آلة إحصار ، وأخذت منه بالنظر المعان الذي تستخدم فيه التليسكوب والميكروسكوب ، وغير ذلك من اقمار صناعية ولذلك يقول الحق سبحانه : { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّئَلَّا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } وبعض العلماء يقول : إن كل إنسان يوجد في الوجود له نجم ، وترتبط حياته بهذا النجم ، وحين يأفل النجم يأفل قريته على الأرض ، وهناك نجوم لامعة ندرك خفقاتها ، ونجوم أخرى غير لامعة وبعيدة عنا ، ويقال إنها تخص أناساً لا يدري بهم أحد لقلّة تأثيرهم بأعمالهم في الحياة .

ويتقدم العلم كل يوم ويربط لنا أشياء بأشياء وكأن الحق يوضح : إنني خلقت لكم الأشياء ممّا قَدَرْتُمْ بعقولكم أن تصلوا إلى شيء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا هذه منتهى الحكمة ، بل وراءها حِكْمٌ أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانباً يسيراً من حكم الله ، ولكن عليك أن تعلم أن كمال الله غير متناه ، ولا يزال في ملك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته إلى أن ينهي الله الأرض ومن عليها .

ويقول الحق سبحانه في تذييل الآية : { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } والآية هي الشيء العجيب ، وتطلق على آيات كونية : { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } [فصلت : 37] .

وتطلق كلمة « آية » على الطائفة من القرآن التي لها فاصلة . إذن هناك آيات قرآنية ، وآيات كونية ، والآيات الكونية تعتبر مفسرة للآيات القرآنية؛ فتفصيل الآيات في الكون ما نراه من تعددها أشكالاً ولواناً وحكماً وغايات . وتفصيل الآيات في القرآن هو ما ينبهنا إليه الحق في قرآنه وليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل في آيات الكون وذلك الخلق العجيب الحكيم الذي لا يمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهاً موحّداً ، ويستحق أن يكون إلهاً معبوداً

ويقول الحق بعد ذلك : { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ . . . } .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)

وقد تكلم سبحانه لنا - أولاً - عن الآيات المحيطة بنا والتي بها قوام حياتنا من فلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تكلم عن الشمس والقمر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حولنا ، ثم يتكلم عن شيء في ذواتنا ليكون الدليل أقوى ، إنه - سبحانه - يأتي لك بالدليل في ذاتك ونفسك؛ لأن هذا الدليل لا يحتاج منك إلى أن تمد عينيك إلى ما حولك ، بل الدليل في ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه : { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21] .
أي يكفي أن تجعل من نفسك عالماً ، هذا العلم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقيته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه - أيضاً - استقراء في الوجود ، الذي نسميه التنازل للماضي؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالم في هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم في القرن الذي مضى تجده نصف هذا العدد ، وإذا نظرت إليه في القرن الذي قبله ، تجده ربع تعداد السكان الحاليين . وكلما توغلت في الزمن الماضي وتذهب فيه وتبعد ، يقل العدد ويتناهي إلى أن نصل إلى { نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } ، وهذا ما ذكره الله لنا ، ولقائل أن يقول : كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل : { وَمَنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } [الذاريات : 49] .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى خلق النفس الواحدة ، وأوضح أيضاً أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر . إذن فالاستقراء الإحصائي في الزمن الماضي يدل على صدق القضية . وكذلك كل شيء متكاثر في الوجود من نبات ومن حيوان . تجدها تواصل التكاثر وإن رجعت بالإحصاء إلى الماضي تجد أن الأعداد تقل وتقل إلى أن تنتهي إلى أصل منه التكاثر إنه يحتاج إلى اثنين : { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا } [يس : 36] .

ولماذا جاء الحق هنا بقوله : { مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } ولم يقل زوجين؟ أوضح العلماء أن ذلك دليل على الالتحام الشديد؛ لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا - كل الخلق - فيها أبعاض من النفس الواحدة ، وقلنا من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتر مكعب من مادة ملونة حمراء مثلاً ثم وضعناها في قارورة ، ثم رججنا القارورة نجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحمراء قد ساح في القارورة وصار في كل قطرة من القارورة جزء من المادة الملونة ، وهب أننا أخذنا القارورة ووضعناها في برميل ، ثم رججنا البرميل جيداً سنجد أيضاً أن في كل قطرة من البرميل جزءاً من المادة الملونة ، فإذا أخذنا البرميل ورميناه في البحر فستنساب المادة الملونة ليصير في كل قطرة

من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة .

إذن ما دام آدم هو الأصل ، وما دمنا ناشئين من آدم ، وما دام الحق قد أخذ حواء من آدم الحي فصارت حية ، إذن فحياتها موصولة بآدم وفيها من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جزء حي ، وبذلك يردنا الحق سبحانه إلى أصل واحد؛ ليثير ويحرك فينا أصول التراحم والتواد والتعاطف .

ويقول سبحانه : { فَمُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدَعًا } والمستقر له معان متعددة يشرحها الحق سبحانه وتعالى في قرآنه . وفي قصة عرش بلقيس نجد سيدنا سليمان يقول : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا } [النمل : 38] .

وأجاب على سيدنا سليمان عفريت من الجن ، وكذلك أجاب من عنده علم من الكتاب . ويقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ } [النمل : 40] . مستقر هنا إذن تعني حاضراً؛ لأن العرش لم يكن موجوداً بالجلس بل أحضر إليه . وفي مسألة الرؤية التي شاءها الحق لسيدنا موسى عليه السلام : { قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } [الأعراف : 143] . ونعلم أن جبريل كان له استقرار قبل الكلام ، إذن ف « استقرار » تأتي بمعنى حضر ، وتأتي مرة أخرى بمعنى ثبت .

والحق يقول : { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ } [الأعراف : 24] . وذلك بلاغ عن مدة وجودنا في الدنيا ، وكذلك يقول الحق : { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا } [الفرقان : 24] . إذن فالجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار مستقر للكافرين ، يقول عنها الحق : { إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } [الفرقان : 66] .

إذن فمستقر تأتي بمعنى حاضر ، أو ثابت ، أو كتعبير عن مدّة وزمن الحياة في الدنيا ، والجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار . ولذلك اختلف العلماء ونظر كل واحد منهم إلى معنى ، منهم من يقول : « مستقر » في الأصلاب ثم استودعنا الحق في الأرحام . ومنهم من رأى أن « مستقر » مقصود به البقاء في الدنيا ثم نستودع في القبور .

ونقول : إن الاستقرار أساسه « قرار » حضور أو ثبات ، وكل شيء بحسبه ، وفيه استقرار يتلوه استقرار يتلوه استقرار إلى أن يوجد الاستقرار الأخير ، وهو ما يطمع فيه المؤمنون . وهذا هو الاستقرار الذي ليس من بعده حركة ، أما الاستقرار الأول في الحياة فقد يكون فيه تغير من حال إلى حال ، لقد كنا مستقرين في الأصلاب ، ثم بعد ذلك استودعنا الحق في الأرحام ، وكنا مستقرين في الدنيا ثم استودعنا . في القبور . حتى نستقر في الآخرة . إن كل عالم من العلماء

أخذ معنى من هذه المعاني . والشاعر يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

ونلاحظ أن هناك كلمة « مُسْتَقَرَّ » وكلمة « مستودع » ، و « مستودع » هو شيء أوقع غيره عليه أن يودع . ولكن « مُسْتَقَرَّ » دليل على أن المسألة ليست خاضعة لإرادة الإنسان . فكل واحد منا « مُسْتَقَرَّ » به .

ويقول الحق : { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } والتفصيل يعني أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة؛ لأن الأفهام مختلفة ، وظروف الاستقبال للمعاني مختلفة ، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل تفصيل حالة من حالات النفس البشرية؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً في ألا يفقه ، ولم يترك لأحد مجالاً في ألا يتعلم ، ونلاحظ أن تذييل الآيتين المتتابعين مختلف؛ فهناك يقول سبحانه :

{ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأنعام : 97] .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } [الأنعام : 98] . و « الفقه » هو أن تفهم ، أي أن يكون عندك ملكة فهم تفهم بها ما يقال لك علماً ، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية .

وأراد الحق بالتفصيل الأول في قوله : { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } الدعوة للنظر في آيات خارجة عن ذات الإنسان ، وهنا أي في قوله سبحانه : { لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } لفت للنظر والتدبر في آيات داخلية في ذات الإنسان .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ . . . } .

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

كان السياق يقتضي أن يقول سبحانه : أنزل من السماء ماء « فأخرج » .

لكنه هنا قال : « فأخرجنا »؛ لأن كل شيء لا يوجد لله فيه شبهة شريك؛ فهو من عمله فقط ، ولا يقولن أحد إنه أنزل المطر وأخرج النبات لأن الأرض أرض الله المخلوقة له والبذور خلقها الله ، والإنسان يفكر بعقل خلقه الله وبالطاقة المخلوقة له . وأنت حين تنسب الحاجات كلها إلى صانعها الأول ، فهو إذن الذي فعل ، لكنه احترام تعبك ، وهو يوضح لك : حين قال : « فأخرجنا » أي أنا وأسبابي التي منحتها لك ، أنا خلقت الأسباب ، والأسباب عملت معك . فإذا نظرت إلى مسبب الأسباب فهو الفاعل لكل شيء . وإن نظرت إلى ظاهرية التجمع والحركة

فالأَسباب التي باشرها الإنسان موجودة؛ لذلك يقول : « فأخرجنا » .

وسبحانه جل وعلا قد يتكلم في بعض المواقف فيثبت للإنسان عملاً لأنه قام به بأسباب الله الممنوحة له ، ولكنه ينفي عنه عملاً آخر ليس له فيه دخل بأي صورة من الصور؛ مثل قوله الحق : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ } [الواقعة : 63-64] .

سبحانه هنا ينسب لنا الحرث لأننا قمنا به ولكن بأسباب منه - سبحانه - فهو الذي أنزل لنا الحديد الذي صنعنا منه الحراث وهدانا إلى تشكيله بعد أن ألانه لنا بالنار التي خلقها لنا ، وبالطاقة التي أعطانا إياها ، أما الزراعة فليس لأحد منا فيها عمل ولذلك يقول سبحانه : { لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } [الواقعة : 65] .

هنا - سبحانه - أتى باللام في قوله تعالى : (لجعلناه) للتأكيد؛ لأن الإنسان له في هذا الأمر عمل ، إنه حرث وتعهده ما زرعه بالريِّ والكد حتى ثما وأثمر ، لكن قد تصيبه آفة تقضي عليه ، فالأسباب وإن كانت قد عملت إلا أنها لا تضمن الانتفاع بثمره الزرع ، ذلك لأن الأسباب لا تتمرد ، ولا تتأبى على الله ولا تخرج عليه ، إنها تؤدي ما يريد منها الله ، وقد يعطلها سبحانه . أما في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا } ، إنه سبحانه لم يقل لجعلناه ، لأنه ليس لأحد فيه عمل لذلك لم يؤكد باللام .

ويقول سبحانه : { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَاقًا لِلْمُقِيمِينَ } [الواقعة : 71-73] .

إن كل شيء يذكره الحق يذكر معه أيضاً ما ينقضه ، ذلك حتى لا يُفْتَنَ الإنسان بوجود الأشياء ، وعليه أن يستقبل الأشياء مع إمكان إعدامها . وإذا ما كان الإنسان هو الذي يحرق فالحق بطلاقة قدرته قد يجعل النبات حطاماً ، ومن قبل قال عن مقومات الحياة : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } [الواقعة : 73-74] .

[الواقعة : 58-59] .

ثم جاء سبحانه بما ينقضه فقال : { نَحْنُ قَادِرُونَ بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ } . أما عن النار فلم يقل - سبحانه - إنه يقضي عليها ويحدها ويطفئها ، إنه - جل شأنه - أبقاها ليعلمنا ويذكرنا بنار الآخرة { نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا } أي لا بد أن نتركها أمامكم حتى لا يغيب عنكم العذاب الآخروي { وَرَمَاقًا لِلْمُقِيمِينَ } أي ونتركها - جون نقض لها وذلك لأمر آخر هو المنفعة في الدنيا للذين ينزلون أماكن خالية قفراء أو للذين خلت بطونهم وأوعيتهم ومزاودهم من الطعام لأن النار تنفعهم وتساعدهم على إعداد طعامهم استبقاءً لحياتهم : { فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام : 99] .

والشيء هو ما يُجَبَّر عنه؛ الهباءة شيء ، والذرة شيء وكل حاجة اسمها شيء ، ومعنى نبات كل شيء : أن كل حاجة مثل النبات تماماً . رأينا الحجارة التي يقول عنها العلماء هذه جرانيت ، وتلك الرخام وتلك مرمر ، ولو نظرت إلى أصلها وجدتها أعماراً للحجارة ، طال عمر حجر ما فصارا فحمًا ، وطال عمر آخر فصار جرانيتًا ، وهكذا . وكل حاجة لها حياة لتثبت لنا القضية الأولى ، وهي : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } [القصص : 88]

أو نبات كل شيء ترون فيه نمواً وحياة ، والعقل الفطري يأخذها هكذا ، لكن العقل المستوعب يأخذ منها قضايا كثيرة ، ويتغلغل في الكون ويجد الآيات ساجدة معه وهو سابع معها . ويتابع سبحانه : { فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا } وإذا قلت كلمة « خَضِر » فقد تعني اللون المعروف لنا وهو الأخضر ، لكن « خضر » فيها وصف زائد قليلاً عن أخضر؛ لأن « أخضر » يجبر عن لون فقط ، واللون متعلقة العين ، لكن « خضر » يعطي اللون ، ويعطي الغضاضة ونعرفها « بالحس » . وحين تلمسه تجد النعومة .

إذن « خضر » فيها أشياء كثيرة؛ « لون » متعلق العين ، و « غضاضة » نعرفها بالحس وفيها نعومة نعرفها باللمس . وهذا اللون الأخضر يكون داكنًا جداً أي أن خضرته شديدة حتى أنها تضرب إلى السواد؛ لذلك نسمع من يقول : « سواد العرق » أي الأرض الخصبية التي في العراق ، ويسمونها سواد العرق لأنها خضراء خضرة شديدة ولذلك تكون مائلة إلى السواد ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَتَانِ } [الرحمن : 62-64] .

و « مدهامة » أي مثل دهمة الليل؛ كأنها من شدة خضرتها صارت كدهمة الليل . ويتابع الحق { خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا } والحب هو ما ليس له نواة مثل حبة الشعير وحبة القمح وحبة العدس وحبة اللوبيا . و « متراكبا » تعني أنه حب مرصوص متساند . { وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ } والنخل عند العرب له مكانة عالية لأنه يعطي لهم الغذاء الدائم فيذكرهم به { وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ } .

و « الطلع » هو أول شيء يبدو من ثمر النخل ، وهو ما نسميه في الريف « الكوز الأخضر » وهو في الذكر من النخل الذي يسمى « الفحل » ويوجد أيضاً في الأنثى ، وأول ما يبدو من ثمر النخل يسمى الطلع ، ثم ينشق الطلع ويخرج منه القنو أو العزق أو العرجون ، وهو الجزء الذي توجد فيه الشماريخ التي يتعلق بها البلح . والطلع إذن هو الثمرة الأولى للنخلة قبل أن تنشق ويطلع منها القنوان وهو « السباطة » كما نسميها في الريف .

« قنوان دانية » ويصفها الحق بأنها دانية لأنك حين تنظر طلع النخيل أول ما يطلع تجده ينشق

ويحمي نفسه بشوك الجريد حتى لا تأكله الحشرات ثم يثقل وينحني ويكاد ينزل على الأرض فيكون دانياً قريباً ، فإن كانت هناك « سباطة » شاذة تجد من يجنيها يدخل يده بين الشوك ليصل إليها . وسبحانه يترك لنا فلتات لنعرف نعمة الله في أنه جعلها تتدلى لأنها لو كانت كلها دانية . قد لا يلتفت إليها ، لذلك يترك واحدة بين الشوك ليتعب الإنسان حتى يحصل عليها لنعرف أنه سبحانه قد دنى لك الباقي وهذه نعمة من الله .

ويطلق الطلع مرة على الأكام و « الكم » هو ما توجد في قلبه الثمار ، ومرة يطلق على الثمر نفسه : { والنخل بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ } [ق : 10] .

وأنت ترى البلح نازلاً من « الشماريخ » ، وكل شروخ به عدد من البلح ، ثم ترى « الشمروخ » متصلاً بالأم ، وفي ذلك ترى عظمة الهندسة العجيبة في ترتيب الثمار . وكل شيء محسوب في هذا الأمر بهندسة عجيبة وعندما ننظر إلى ما تعلمناه في حياتنا حين نصمم شبكة توصيل المياه وشبكة الصرف الصحي ، إن شبكة المياه التي تعطينا الذي نستخدمه ، وشبكة الصرف الصحي التي تأخذ الزائد من المياه والفضلات . عندما ننظر إلى هذه الشبكة أو تلك تجد هندسة كل منها دقيقة؛ لأن أي غفلة في التصميم تسبب المتاعب . فحين تريد توصيل المياع إلى حارة؛ فأنت تستخدم ماسورة قطرها كذا بوصة ، وفي الحارة هناك عطفات فتحضر لكل عطفة ماسورة أقل قطراً من الأولى ، ثم ماسورة أقل للبيوت ، وماسورة أقل بكثير لكل شقة ، لقد قام المهندسون بحساب دقيق لهذه المسائل .

فإذا كانت هذه هي هندسة البشر ، فما بالنا بهندسة الخالق؟ أنت تجد العزق : وهو حامل الرطب يأخذ من النخلة ، وكل نخلة فيها كذا « سباطة » وفي كل « سباطة » هناك « الشماريخ » ، ثم هناك البلح وكل بلحة تأخذ شعرة لغذائها . وهكذا نجد كل شيء محسوباً بدقة بالغة . إنها هندسة كونية عجيبة مصنوعة بقول الحق : كن ، وصدق الله القائل : { الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى }

[الأعلى : 2-3] .

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } وكلمة { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } لم تكن تعرف ما وراءها ، كنا نعرف فقط أن السماء هي كل ما علاك فأظلللك ، والماء يأتي من السحاب ، وكلنا نرى السماء تمطر . وكلنا نعرف التعبير الفطري الذي يقول : غامت السماء ، ثم أمطرت ، وهناك من قال : تضحك الأرض من بكاء السماء لأنها تستقبل الماء الذي يروي ما بها من بذور . لكن ما وراء عملية الإنزال هذه؟

إن هناك عملية أخرى تحدث في الكون دون شعور منا ، عرفناها فقط حين تقدم العلم وحين قمنا بتقطير المياه ، فأحضرنا موقداً ووضعنا فوقه قارورة ماء ، وحين وصل إلى نقطة الغليان خرج

البخار ، وسار البخار في الأنابيب ومرت الأنابيب في أوساط باردة فتكثفت المياه ونزلت ماء مقطراً ، ومثل ذلك يحدث في المطر ، وانظر كم يكلفنا كوب واحد من الماء المقطر الذي نشتره من الصيدلية؟ وقارن ذلك بالسماء التي تنزل بماء منهمر ، ولا ندري كيق صنع . ولذلك يقول الحق : { أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمَنْزِلُونَ } [الواقعة : 69] .

هكذا ينزل الماء من السماء ، ولم نكن نعرف كيف يحدث ذلك وسبحانه يقول هنا : { وَمَنْ النخْل مِنْ طَلْعِهَا فَنَوَّانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرٌ مُّتَشَابِهٍ } [الأنعام : 99] .

وحين يقول سبحانه { مُشْتَبِهًا وَغَيْرٌ مُّتَشَابِهٍ } نصدق ، مثال حبة الخوخ ، هناك حبة من نوع نسميه « الخوخ السلطاني » ، حين تمسك بالثمرة الواحدة تنفلق لتخرج البذرة نظيفة ، وحبة أخرى نفلقها نحن فتجد البذرة فيها بعض لحم الفاكهة ونجد فيها أيضاً بعضاً من الألياف . وهذه لها لون والأخرى لها لون ، هذه لها طعم وتلك لها طعم مختلف . { يسقى بماءٍ واحدٍ ونُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ } [الرعد : 4] .

هذا ليعرف الإنسان أن طلاقة القدرة تحقق ما يريد الخالق ، وبعد ذلك تلتفت فتجد الفصائل ، فهذا يرتقال منه بسرة ، ومنه يرتقال بلدي . ويرتقال بدمه ثم اليوسفي . ولذلك سنجد في الجنة ما يحدثنا عنه سبحانه فيقول : { كَلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَّزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا } [البقرة : 25] .

وحين يأكل منه ساكن الجنة يكتشف أن لفاكهة الجنة طعماً مختلفاً . ومن طلاقة القدرة أنه بعد التحليلات التي قام بها العلماء المعمليون - جزاهم الله عنا خيراً - ل « حبة العنب » وجدوا أن القشرة التي تغلفها لها طبيعة « البارد » و « اليباس » ، واللحم لحبة العنب طبيعته مختلفة « حار رطب » ثم البذرة « بارد يابس » ، وهذه ثلاث طبائع في الحبة الواحدة ، وهذا شيء عجيب التكوين . وكذلك « الأترجة » وهي فاكهة كالنارنج تجد القشرة « حارة يابسة » ، واللحم فيها « بارد رطب » ، والسائل الذي في اللحم « بارد يابس » والبذرة « حار يابس » ، طبائع أربعة في الشيء الواحد ، كيف؟ وبأية قدرة؟

إن العلماء قد تعبوا حتى عرفوا تكوينها ليظهروا لنا المسألة ، وتلتفت لتجد ثمرة تأكل ظاهرها ، وباطنها بذرة ، وثمرة ثانية تأكل ما في داخلها كالجوز أو اللوز ، وتقشر القشرة وتلقيها ، والخواخة تأكل لحمها وتترك بذرتها ، وذلك لتعرف أن المسألة ليست آلية خلق بل إبداع خالق .

وتجد الشيء له اللون ، واللون بلا طعم ، ثم الرائحة المميزة وكل ذلك دليل على طلاقة القدرة . وهذا هو السبب في أن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن ثمار الجنة يأتي بثمار مثلها في الدنيا؛ لأنه لو أحضر ثماراً ليس لها مثل في الدنيا لقال الإنسان : هذه طبيعة الثمار ، ولو

وجدت في الدنيا لكان لها طعم مماثل . لكن هاهي ذي تتشابه ، وطعومها مختلفة . . إنها طلاقة القدرة .

ويقول الحق : { انظروا إلى ثمره إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } الحق سبحانه وتعالى لا يعطي الإنسان حتى يملأ بطنه فحسب لا ، ولكنه يغذي كل الملكات في النفس الإنسانية حتى ملكات الترف ، وملكات الجمال ، وملكات الحسن ، فيوضح لك قبل أن تأكل : انظر للثمر وشكله! لتغذي عينيك بالمنظر الجميل حين ترى الثمرة طالعة وتتبعها حتى تنضج ، إنَّها مراحل عجيبة تدل على أن الصانع قيوم ، وكل يوم لها شكل مختلف وحجم مختلف ، وإن أكلتها اليوم فستجد طعمها يختلف عما إذا أكلتها بعد ذلك بيوم ، وهذا دليل على أن خالقها قيوم عليها . ما دامت كل لحظة من اللحظات فيها شكل ، وفيها لون وفيها طعم وفيها رائحة جديدة .

{ انظروا إلى ثمره إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } ، و « ينعه » أي وصلت إلى النضج وذلك إشاعة للتمتع بنعم الكون لأن النظر إلى الثمر لا يعني أنني أملكه ، فقد أراه في حقل جاري وأنظر له وأتمتع بشكله . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يشيع الانتفاع بنعم الله حتى عند غير واجدها ، لأن أحداً لن يمنعني من أن أنظر ، فأنبسط ، فمن ناحية الكمال الإنساني هناك غذاء لملكات النفس؛ لأن النفس ليست ملكات جوع وعطش فقط بل هي ملكات متعددة ، وكل ملكة لها غذاؤها .

ولذلك فقبل أن يقول لي : إن الخيل والبغال تَحْمِلُ الأثقال . . قال سبحانه : { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 6-7] .

إذن فهو يعطيني فائدة حمل الأثقال؛ لأن حمل الأثقال لمن يملكها ، إنما الذي لا يملكها فهو يرى الحصان يسير بجمال ، فيسعد برؤيته فيتمتع بما لا يملك ، هذه إشاعة لنعم الله على خلق الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : { إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

أي يؤمنون بأن الإله الذي آمنوا به يستحق بصفات الجلال والجمال فيه أن يُؤْمَنَ به ، وكلما رأى الإنسان خلقاً جميلاً قال : الله ، إذن أنا إيماني صحيح والآيات تؤكد صدق إيماني بالإله الذي خلق كل هذا ، وكل يوم تبدو لي حاجة عجيبة تزيدني إيماناً ، وعقلي الذي وهبه الله لي هدايني إلى الإيمان بهذا الإله .

ومن العجيب ان هناك من جعلوا لله شركاء!! إله له كل هذه الصفات من أول فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح ، وجعل الليل ساكناً ، والشمس ، والقمر ، حسابناً وبحسبان ، والنجوم نتهدي بها في ظلمات البر والبحر ، وأنزل لنا من السماء ماء ، وأخرج لنا النبات منه خضر ، كل هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس إلى أن الله وحده هو الخالق المستحق للعبادة ، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان بغيره ، لكن هناك من جعلوا لله شركاء ، وجاء بها

سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويغضبنا عليهم لنحذرهم ونتقيهم .
وإذا أحفظنا عليهم استحمدنا أي استوجب علينا حمد إذ أنه هداانا إلى الإيمان ، فنقول : الحمد
لله الذي هداانا إلى الإيمان .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ . . . } .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ
(100)

ومادة الجن هي « الجيم » و « النون » وكلها تدل على الستر والتغطية والتغليظ ، ومنها الجنون ،
لأن العقل في هذه الحالة يكون مستوراً ، ونحن لا نرى الجن ، فهم مستورون ، والملائكة كذلك ،
والمادة كلها مادة « الجيم » و « النون » تدل على اللف والتغطية .

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } و « الجن » هو الخفي من كل شيء ، والجن - كما تعلمون - هم
خلق من خلق الله فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن مستوراً حتى لا نعتقد أن خلق
الله لحي كائن ، يجب أن يتمثل في هذا القالب المادي ، بل سبحانه يخلق ما شاء وكما شاء ،
فيخلق أشياء مستورة لا ترى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها :
كل ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية؛ لأن عقولنا قد تقف في بعض
الأشياء التي لا تدرك ولا ترى؛ لأننا لا نعلم وجوداً لشيء إلا إذا أحسنناه .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فإياك أن تظن أنك تستطيع أن تدرك كل ما خلقه الله ، فليس
حسك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك لأن حسك له قوانين تضبطه ، فأنت ترى ، ولكنك ترى
بقانون ، بحيث إذا بعد المرئي عنك امتداداً فوق امتداد بصرك فلا تراه وكذلك أذنك تسمع ،
فإن بعد الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك ، فلا تسمع ، كذلك
عقلك ، قد تفهم أشياء ولا تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا في وجودنا المادي أمثالاً تقرب لنا
ذلك الخلق الخفي من الجن ومن الملائكة .

لقد وجدنا العقل البشري قد هداه الله الذي قدر فهدي ، إلى أن يكتشف شيئاً اسمه «
الميكروب » و « الميكروب » كائن حي دقيق جداً بحيث إن البصر العادي لا يدركه ، ولكنه
كان موجوداً ، وفعل الأفاعيل في الناس ودخل في أجسامهم دون أن يشعروا كيف دخل وعمل
فيهم وفي صحتهم ما عمل من الهلاك والموت مثل أمراض الطاعون والكوليرا وغيرها ، ومع ذلك
فالميكروب كان موجوداً ومن جنس وجودنا ، أي هو مادة وله حياة وله فعل ، وله نفوذ في
الهيكل الذي يدرك وهو الإنسان .

وهكذا رأينا أن شيئاً خفياً لا يدرك ويهدد إنساناً ضخماً يدرك ، فهل معنى اكتشاف الميكروب
أنا أوجدناه؟ لا ، إن وجود الميكروب شيء ، وإدراك وجوده شيء آخر ، وإذا حللنا »

الميكروب « نجد أنه مادة الإنسان ولكنه دقيق جداً حتى إن العين المجردة لا تراه ، فلما اكتشف الجهر وكبرناه عرفناه ، وهذا الكائن الحي إن كنت لا تراه ، فعدم رؤيتك له سابقاً لا تعني أنه غير موجود ، بل هو موجود ولكنك لم تدركه ، ثم اكتشفت - أيها الإنسان - آلة جعلتك تدركه ، ولنعرف أن وجود شيء لا يعني أنك من الضروري أن تدركه ، فإذا قال الله لك : لي ملائكة من خلقي ، ولي جن من خلقي ، ولكنكم لا ترونهم وهم يرونكم ، نقول : صدقت يا ربي ، لأن شيئاً من جنس مادتنا كان موجوداً ولا نراه ثم بعد ذلك رأيناه .

إذن فالأشياء التي نكتشفها الآن هي دليل على صدق البلاغ القرآني بما أخبر به من الأمور الغيبية ، الجن مستور ، والمادة كلها - كما بينا - تدل على الستر ، فالجنون غياب العقل ، وجن الليل ، أي ستر وغطى ، والجنة لأن فيها أشجاراً وغير ذلك بحيث لا يظهر الذي يسير فيها فتكون ساترة لمن يدخلها .

إذن المادة كلها تدل على الستر ، وهل الذي نتعجب منه أنهم جعلوا الجن شركاء ، أو أن التعجب ليس من جعل الجن شركاء بل من اتخاذ مبدأ الشركاء ، سواء أكان جنأ أم غير جن ، إن التعجب هنا من المبدأ نفسه ، فنحن لا نعترض فقط على أن الجن شركاء ، بل نحن نعترض على المبدأ نفسه ، أن يكون لله شريك من جن أو من ملائكة أو من غير ذلك ، ولهذا قدم الجعول - وهو الشريك - على الجعول منه - وهو الجن - مع أن العادة أن يقدم الجعول منه على الجعول ، فتقول جعلت الطين إبريقاً أي : أن الطين كان موجوداً ، وأخذت منه الذي لم يكن موجوداً وهو الإبريق .

ثم هل كان الشركاء موجودين وطراً الجن عليهم؟ أو كان الجن موجوداً وطراً الشركاء عليهم؟ في هذه الحالة كان يجب القول : وجعلوا الجن لله شركاء ، إذن فالعجبية ليس في أن يكون الجن شركاء ، العجبية في المبدأ نفسه ، وكيف ترد فكرة الشركاء على أذهانهم سواء أكان الشركاء من الجن أم من غير ذلك ، ولهذا قال سبحانه : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ } وساعة تسمعها تقول : أعوذ بالله { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ } !! ولا يهملك من هم الشركاء؛ لأن مطلق محيي شريك لله هو الأمر العجيب ، سواء كان من الجن أم من الملائكة وكيف جعلوا الجن شركاء؟ ألم يقل الحق في كتابه إن إبراهيم قال : { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } [مريم : 44] . وما هي العبادة؟ العبادة هي أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به ، وما داموا يطيعون الشياطين في وسوستهم فكأنهم عبدوهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ } [سبأ : 40] . فقالت الملائكة : { قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } [سبأ : 41] .

وكيف كانوا يعبدون الجن؟ إنهم كانوا يطيعونهم فيما يأمرهم به وينهونهم عنه؛ لأن العبادة هي الطاعة ، وأنت أيها العباد لا تقترح العبادة بل تنظر فيما طلب منك أن تتقرب به إلى المعبود ، إذن « افعل ولا تفعل » هي الأصل .

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ } ولماذا جاءوا لله بشركاء؟ لماذا لم يعبدوهم وحدهم ويستبعدوا الله من العبادة؟ لأن وجود شريك دليل على الاعتراف بالله أيضاً فلماذا جعلوا له شركاء؟ ولماذا لم يلحدوا وينكروا ويكفروا بالله وتنتهي المسألة؟ لا . لم يفعلوا ذلك؛ لأنهم رأوا أن الشركاء ليس لهم مطلوبات تعبدية وحين عبدها - مثلاً - لم تقل لهم « افعلوا » و « لا تفعلوا » وليس هناك منهج لاتباعه ، لكن أحداثاً فوق أسابهم ولا يستطيعون لها دفعاً قد تحدث فلماذا يجأرون؟ ألهة التي يعتقدون كذبها وبهتانها وأنها لا تنفع ولا تضر؟ لذلك احتفظوا باعترافهم بالله ليلجأوا إليه فيما لا يقدر على دفعه لا هم ولا من اتخذوهم شركاء ، ولذلك يقول الحق : { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ } [يونس : 12] .

كأنه يريد عبادة الله للمصلحة فقط .

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ } . ومن العجيب - إذن - أنهم جعلوا لله شركاء ، مع أن الله هو الذي خلق العابد والمعبود ، والتعجب من أمرين اثنين : أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، والعجبية الأخرى أنه { وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ } وما معنى خرقوا له؟ معناها أنهم اختلقوا؛ لأن الخرق إيجاد فجوة في الشيء المستوى على قانون السلامة ، ولذلك قال في السفينة : { أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا } [الكهف : 71] .

وخرقوا له . أي عملوا خرقاً في الشيء السليم الذي تأبى الفطرة أن يكون .

{ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ } [الأنعام : 100] .

أما القسم الذي ادعى أن الله البنين فهم أهل الكتاب؛ إنهم قالوا ذلك : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة : 30] .

أما من جعلوا لله البنات ، فهم بعض العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله . {

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا } [الإسراء : 40] .

وقال سبحانه : { أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [الصافات : 153 -

154] .

وسبحانه القائل : { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى } [النجم : 21-22] .

وهناك من العرب من جعل بين الله وبين الجن صلة نسب مصداقاً لقول الحق : { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا } [الصافات : 158] .

لقد افتروا على الحق وادّعو أن اتصالاً تم بين الله وبين الجنّة فخلقت وولدت الملائكة . { وَجَعَلُوا
لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ } [الأنعام
: 100] .

ولماذا يقول الحق : { بِغَيْرِ عِلْمٍ } لأن العلم يؤدي إلى النقيض ، فالعلم قضية استقرائية معتقدة
واقعة يقام عليها الدليل ، وهذا شيء لا واقع له ، ولا يمكن أن يوجد عليه دليل لذلك فهو قول
بغير علم بل هو بجهل . هي إذن جهالة بأن يصدقوا في حاجة وأنها واقعة وهي ليست واقعة ،
ولا يقام عليها دليل لأنها غير موجودة ، ولو استقام الدليل عندهم بفطرتهم المستقبلية لأدلة البيان
وأدلة الكون لتبرأوا مما اعتقدوا ، ولرفضوا أن يتخذوا الله شركاء .

وقد عرض الحق قضية طرأت على الأفكار المشوشة وقالوا : « شركاء » فقال : « سبحانه » ،
أي تنزيهاً له عن الشرك في الذات وفي الصفات ، وفي الأفعال ؛ لأن ذاته ليست ككل الذوات ،
وأفعاله ليست ككل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات ، ولذلك تأتي « سبحانه » في كل
أمر يناقض نواميس الكون الموجودة . وخذ كل أمر يتعلق بالإله الحق في إطار « سبحانه » .
ولذلك حينما جاء بالإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به
في ليلة واحدة وكان ذلك أمراً عجبياً ، أمرنا الحق أن نتقبلها في إطار قوله الحق : { سُبْحَانَ
الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الإسراء : 1] .

إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يقل : أنا سريت من مكة إلى بيت المقدس ، إنما قال : أُسْرِي
بي » ، وما دام قد أُسْرِي به فالقانون في الإسراء هو قانون الحق سبحانه . فخذها في إطار
سبحانه ، وهو القائل : { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ } [يس : 36] .

ثم يأتي بما هو أوسع من إدراكك فيقول : { وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ } [يس : 36] .
كأننا سوف نعلم فيما بعد أشياء فيها زوجية ، وقد أزاح الكشف العلمي في القرن العشرين
بعضاً من ذلك ، فعرفنا الموجب والسالب في الكهرباء والالكترونات ، وقوله : { وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ
{ يَفْسَحُ الْمَجَالَ لِقَضَايَا الْكَوْنِ الَّتِي تَحْدُثُ بِنَشَاطَاتِ الْعُقُولِ الْمَكْتَشِفَةِ .
{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ }
[الأنعام : 100] .

ف (سبحانه) تنزيهاً له وتقديساً عن أن يقاس بالكائن الموجود . تعالی اسمه ، وتعالى ذاته ،
وتعالى صفاته وأفعاله { عَمَّا يُصِفُونَ } بأوصاف لا تليق بذاته .
وبعد ذلك يقول الحق : { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } .

بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

والحق سبحانه وتعالى قال في آيات أخرى : { لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } [غافر : 57] .

فإن كنت ترى في نفسك عجائب كثيرة ، وكل يوم يعطيك العلم التشريحي أو علم وظائف الأعضاء سرا جديدا فلا تتعجب من هذا الأمر؛ لأن السماء والأرض إيجاد من عدم ، وسبحانه هنا يقول : « بديع » أي أنه - سبحانه - خلقهما على غير مثال سابق ، فمن الناس من يصنع أشياء على ضوء خبرات أو نماذج سابقة ، لكن الحق سبحانه بديع السموات والأرض ، وقد عرفنا بالعلم أن الأرض التي نعيش عليها وهي كوكب تابع من توابع الشمس ، وقديما كانوا يقولون عن توابع الشمس إنها سبعة ، ولذلك خدع كثير من العلماء والمفكرين وقالوا : إن السبعة التوابع هي السموات ، فأراد الحق أن يبطل هذه المسألة بعد أن قالوا سبعة . فقد اكتشف العلماء تابعا ثامنا للشمس ، ثم اكتشفوا التاسع ، ثم صارت التوابع عشرة ، ثم زاد الأمر إلى توابع لا نعرفها . وأين هذه المجموعة الشمسية من السموات؟ وكلها مجرد زينة للسماء الدنيا ، وعندما اكتشفت الجواهر والآلات التي تقرب البعيد رأينا « الطريق اللبني » أو « سكة التبانة » ووجدناها مجرة وفيها مجموعات شمسية لا حصر لها ، وجدنا مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية . هذه مجرة واحدة ، وعندنا ملايين المجرات ، ونجد عالماً في الفلك يقول : لو امتلكتنا آلات جديدة فسنتكشف مجرات جديدة .

ولنسمع قول الله : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [الذاريات : 47] .

إذن يجب أن نأخذ خلق السموات والأرض في مرتبة أهم من مسألة خلق الناس .

{ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [الأنعام : 101] .

وما دام سبحانه بديع السموات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية الفارقة خلق السموات والأرض الأكبر من خلق الناس ، إذن فإن أراد ولداً لطرأ عليه هذا الابن بالميلاد ، ولا يمكن أن يسمى ولداً إلا إذا وُلد ، وسبحانه منزّه عن ذلك ، ثم لماذا يريد ولداً ، وصفات الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يكن الكون ناقصاً قبل ادعاء البعض ان للحق سبحانه ولداً ، إن الكون مخلوق بذات الحق سبحانه وتعالى ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى ، وسبحانه لا يموت؛ مصداقاً لقوله : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } [القصص : 88] .

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوي الذي خلق وهو حي لا يموت؛ لذلك فلا معنى لأن يُدعى عليه ذلك وما كان يصح أن تناقش هذه المسألة عقلا ، ولكن

الله - لطفًا بخلقه - وضح وبين مثل هذه القضايا .

يقول جل وعلا : { وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً } . وماذا يريد الحق من صاحبة؟ إنه لا يريد شيئاً ، فلماذا هذه اللجاجة في أمر الألوهية؟ .

فلا الولد ولا صاحبة يزيدان له قدرة تخلق ، ولا حكمة ترتب ، ولا علما يدبر ، ولا أي شيء ، ومجرد هذا اللون من التصور عبث ، فإذا كان الشركاء ممتنعين ، والقصد من الشركاء أن يعاونوه في الملك؛ إله يأخذ ملك السماء ، وإله آخر يأخذ ملك الأرض . وإله للظلمة ، وإله للنور . مثلما قال الاغريق القدامى حين نصبوا إلهاً للشعر . وإلهاً للخير ، وغير ذلك . والحق واحد أحد ليس له شركاء يعاونونه فما المقصود بالولد والصاحبة؟ أعود بالله! ألا يمتنع ويرتدع هؤلاء من مثل هذا القول :

{ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } فسبحانه هو الخالق للكون والعليم بكل ما فيه ولا يحتاج إلى معاونة من أحد .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { ذَلِكُمْ اللَّهُ . . . }

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

انظر التقديم بكلمة رب ، قبل « لا إله إلا هو » كلمة « رب » هذه هي حيثية « لا إله إلا هو »؛ لأن إلهاً تعني معبوداً ، ومعبوداً يعني مُطاعاً ، ومطاعاً يعني له أوامر ونواهٍ ، ولماذا ولأي سبب؟ . السبب أنه الرب المتولي الإيجاد والتربية . ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه؛ لأنه هو الرب والخالق وهو الذي يرزق ، بدليل أننا حين نسأل أهل الكُفْر في غفلة شهواتهم : من خلق السموات والأرض؟ تنطق فطرتهم ويقولون : الله هو الذي خلق السموات والأرض . أما إن كان السؤال موجهاً في محاجة مسبقة فأنت تجد المكر والكذب .

وحين تريد أن تنزع منهم قضية صدق وتضع وتبطل قضية كذب فلنأخذهم على غفلة ودون تحضير فيقولون إن الذي خلق هو الله .

ورأينا الآلات التي صمموها ليكتشفوا الكذب ، ولبروا العملية العقلية التي تجهد الكذاب ، أما صاحب الحق فلا يُجهد؛ لأن صاحب الحق يستقرئ واقعا ينطق به ولا يصيبه الجهد ، لكن الذي يكذب يجهد نفسه ويتردد بين أمور ويضطرب ولا يدري بأيها يأخذ ويجب بإجابات متناقضة في الشيء الواحد .

{ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [الأنعام :

. [102

وما دام هو خالق لكل شيء وهو الباقي فهو الأحق بالعبادة؛ لأن العبادة - كما قلنا - معناها

طاعة الأمر وطاعة النهي - ومادام سبحانه الذي خلق فهو الذي يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته؛ لذلك هو الأولى بالعبادة . { ذلكم الله ربُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ } .

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أن يخلق كل شيء ، وقبل أن يخلق الملائكة ، وشهدت بها ملائكته ، وشهد بها أولو العلم . { شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ } [آل عمران : 18] .

إذن فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه « المؤمن » ونحن مؤمنين بالله ، وربنا المؤمن بأنه إله واحد ، وهذا الإيمان منه أنه إله واحد ، يخاطب كل شيء يريد به وهو يعلم أن أي شيء لا يقدر أن يخالفه ، إنه يخاطبه بقوله : « كن فيكون » ولأنه إله واحد يعلم أن أحداً أو شيئاً لم يخالفه ، لذلك يباشر ملكه وهو العليم بأن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتخلف عن مراداته ، أو نقول : « المؤمن » لما خلق ولمن خلق ، أي منحهم الأمن والأمان فهو سبحانه القائل : { الذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } [قريش : 4] .
لقد أوضح الحق سبحانه لنا : أنتم خلقي فإن أخذتم منهجي أطعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف .

{ ذلكم الله ربُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } .

إذن فالمنطق يفرض علينا عبادته سبحانه ، والأمر المنسجم مع المقدمة ، أن لا رب ، ولا إله إلا هو ، إنه خالق كل شيء؛ لذلك تكون عبادته ضرورة ، ويتمثل ذلك أن تطيعه فيما أمر ، وفيما نهي .

{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [الأنعام : 102] .

وهذه دقة الأداء البياني في القرآن ، فنحن في أعرافنا فلان وكيل لفلان أي يقوم لصالحه بالأمر التي يريد بها ، وسبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عنك؛ لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك ، مثل الوصي على القاصر هو وكيل عليه ، ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل ، وسبحانه وكيل علينا ، ولذلك نحن نطلب منه وهو الذي يستجيب لدعائنا بالخير ، فلا ينفذ رغباتنا الطائشة ، ونجد الأحمق من يقول : لقد دعوت الله ولم يستجيب لي ، ونقول : إنك تفهم الاستجابة أنها تؤدي لك مطلوبك ، وسبحانه أعلم بما يناسبك لأنه وكيل عليك ويعدل من تصرفاتك ، وساعة تطلب حاجة ، إن كان فيها خير يعطيها لك ، وإن كنت تظن أنها خير ، لكنها ستأتي بالشر لا يعطيها لك .

وعلى من يدعو ألا يتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل

، يقول : قد دعوت فلم يستجب لي . » .

{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } أي سواء أكان هذا الشيء مختاراً أم غير مختار؛ لأن المختار قد يختار شراً ، ولأن الله وكيل عليه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مقهور لإرادة الله مثل النار ، فهي مأمورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيدنا إبراهيم وتبقيه سليماً .
وتأتي الآية التالية لتؤكد دواعي عظمته سبحانه فيقول : { لَأُتَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ . . . } .

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

ولماذا لا تدرکه الأبصار؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئي إلى الرائي ويحدده ، فلو أن الأبصار تدرکه لحدوته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدوراً لكم؛ لأنه دخل في إدراككم . فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدوراً ابداً ، إذن فمن عظمته انه لا يُدْرِكُ : أنت قد ترى الشمس ، ولكن أتدعي أنك أدركتها؟! لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة ، وحين يقال « أدركه » أي لم يفلت منه ، ولذلك عندما سار قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : { إِنَّا لَمُدْرِكُونَ } .
أي لا فائدة؛ لأن البحر أماننا ، إن تقدمنا نغرق ، وإن تأخرنا أهلكونا وقتلونا . إذن « مُدْرِكٌ » يعني محاطاً به . فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادراً ، وصار الله مقدوراً عليه . والقادر بذاته – كما قلنا – لا ينقلب مقدوراً لخلقه أبداً .

{ لَأُتَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام : 103] .

وكل ما عدا الله محتاج إلى الله لبقاء كينونته ، وكيونته سبحانه ليست عند أحد؛ لذلك { لَأُتَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } لأنه إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بذاته ، والباقي مقدور له؛ لأنه مخلوق له ، ومادام مخلوقاً له يكون مقدوراً عليه ولم يطرأ على المخلوقين شيء جديد يجعلهم قادرين بذواتهم { لَأُتَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } .

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا : هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه سواء في الدنيا أم في الآخرة؟ بعضهم قال : لا أحد يرى الله بنص الآية : { لَأُتَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } ونقول : لكن هناك آيات في القرآن تقول : { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [القيامة : 22-23] .

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتفيدها ، وأيضاً فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه؛ لأنه القائل : { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } [المطففين : 15] .

فالكافرون محجوبون عن رؤية الله عقاباً لهم . ولو اشركنا معهم وحجبنا كما حجبوا فما ميزتنا كمؤمنين؟ ، إذن فالعلماء لم ينتبهوا إلى أن هناك فرقا بين الأداء القرآني وما يقولون؟ وحين يحتاج عالم منهم بأن رؤية الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى : { لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } [الأعراف : 143] .

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق : { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } [الأعراف : 143] .

إذن فالله تجلّى لبعض خلقه ، أما أن يراه الخلق في الدنيا فلا؛ لأن تكويننا غير مؤهل لأن يرى الحق ، بدليل أن الأصلب والأقوى منا وهو الجبل حينما تجلّى ربه عليه اندك . فلما اندك الجبل خر موسى صعقا ، فإذا كان موسى قد خر صعقا لرؤية المتجلّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه؟! إن فهو غير معد له .

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية ، وتجلّى خلافهم إلى أبعد حد؛ فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم منكر لها ، وأرى أن خلافهم في غير محل نزاع؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفي الإدراك ، والإدراك إحاطة؛ والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة ، وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك متحدان في المفهوم نقول : لماذا يكون الخلاف في أمر الآخرة؟ لو أن الخلاف في أمر الرؤية في الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً ، ولكن الخلاف جعلتموه في الآخرة .

إن آيات القرآن صريحة في أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين ، وهي زيادة في الحسنى عليهم ، وحجبه سبحانه عن الكفار لون من العقوبة لهم ونقول - أيضاً - : لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد في الآخرة بكيفية ليست موجودة في دنيانا؟ لأننا في هذه الدنيا معدّون إعداد أسباب - وفي الآخرة سنكون معدّين إعداداً لغير أسباب .

أنت هنا إذا أحببت أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب ، وحين تريد أن تأكل الشيء الفلاني ، تقول لأهل البيت : اصنعوا لي كذا أو تشتري ما تريده ، إنما هناك في الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ما تشتهيجه تجده أمامك ، وهذا قانون جديد لا ارتباط له بقانون الدنيا ، فلماذا لا يكون في تكويننا في الآخرة أيضاً قانون يمكن به أن نرى الله وفي إطار ليس كمثله شيء؟

إن في الآخرة قضايا يتفق الجميع على انها تخالف قوانين الدنيا ونواميس العالم المعاصر لنا الآن في الأكل والشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن في الآخرة سنأكل ونشرب ولكن لن توجد فضلات؛ لأنك أنت الآن تطهى وتهضم ، وفي الهضم أنت تأخذ بعض الطعام ويبقى منه فضلات لا بد أن تخرج ، لكن الطهي والهضم في الآخرة ب « كن » وليس له فضلات ، إنه طعام بقدره القادر ، في الجنة كل ما تريده ستناله دون أن ينفد ، وفي الدنيا أي شيء يؤخذ منه ينقص ، أما في الآخرة فلا شيء ينقص لأن له مدداً من القيومية .

ويعقب الحق سبحانه وتعالى بعد القضيتين : { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } ولطيف تناسب { لَأَ تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } و { الْخَبِيرُ } يناسب { وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } ولطيف لها معنى خاص ، فالشيء اللطيف يستعمل في دقيق التكوين - والله المثل الأعلى - إن الميكروب لم نعرفه إلا مؤخراً لأنه

بلغ من اللطف والدقة بحيث لا تدركه العين ، لكن عندما اخترعنا الميكروسكوب رأيناه ، وإن دق الميكروب عن ذلك فلن نراه ، وقد اكتشفنا « الفيروس » ونحاول معرفة المزيد عن خصائصه ، إذن كلما دق الشيء يلطف ولا يمكن أن نراه ، فالشيء إذا لطف شرف وعلا ونقول - والله المثل الأعلى - : فلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف في ذاته ويلطف بعباده .

إنك ساعة ما تسمع « لطف » فهذا اسم فاعل ، مثلها مثل « آكل » ، وحين نقول : « لطيف فهي مبالغة في اللطف ؛ لأنه لطف بكل إنسان وكل كائن وهذا يحتاج إلى مبالغة ، ولذلك نقول : رحيم ، وهي صيغة مبالغة ؛ لأنه يسبغ رحمته على عباده ، وأول مظهر من مظاهر اللطف ، هو تدبير أمورهم الدقيقة تدبيراً يحقق مصالحهم في وجودهم . إننا حين ندير كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده؟

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، والرابع يابس ، لأنه جل وعلا يريد أن يوسع رقعة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعته ، كان البحر فيها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فالبحر يكون على مستوى السطح فقط ، وهنا لا يأتي السحاب بما يكفي الخلق من الماء . لقد سمع الله سبحانه رقعة الماء كي يتبخر الماء ثم ينعقد كسحب في السماء ، ويصادف منطقة باردة لينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها ، وتشرب أعامنا ، ونسقي الزرع ، وكل ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف في الحق نجد أموراً لا توصف ، ولذلك كل واحد من العلماء انفعّل لزواية من زوايا لطف الله على خلقه . فواحد قال : هو « سبوغ النعم » وقال الثاني : « دقة التدبير » وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثير من النعم على خلقه ، فالنعم التي منحها خلقه قليلة لأن خزائنه - سبحانه - ملاءى وعطاياه لا تنفذ ولا يعترتها نقص ، ولذلك قال سبحانه : { لئن شكرتم لأزيدنكم } [إبراهيم : 7] .

أي أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفي المقابل : يستكثر قليل الطاعة من خلقه أي يعترتها - تفضلاً منه - كثيرة؛ لأنه هو الذي يجزي الحسنة بعشر أمثالها .

إذن فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقة اللطف تكون دقة مآتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذي إذا ناديته لبّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذي منحك عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك فهو القائل : « يابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملاء ذكرتك في ملاء خير منهم ، وإن دنوت مئياً شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مئياً ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهول » وكلها مظاهر لطف . وهو المنادى : « توبوا إلى الله » والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله

بأرض فلاة » وإذا قربت من الله هداك .

ويأتي عالم آخر ممن انفعولوا بصفات اللطف ، فيقول : الذي يجازيك إن وفيت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر يضيف إلى معاني اللطف فيقول : من افتخر به وأعزه ، ومن افتقر إليه أغناه ، وعالم ينفع انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : من عطاؤه خير ، ومنعه ذخيرة .

. أي أنه لو منع عبده شيئاً فإنه يدخره له في الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا مناسب لقوله الحق : { لَأُتَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } إن لطفه سبحانه يتغلغل فيما لا نستطيع أن ندركه ، وحين تحلل أنت أي أمر قد لا تصل إلى فهم النعمة ، وإن وصلت فأنت لا تقدر أن تؤدي الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق : { وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } مناسب لكلمة « خبير » ، ونحن في حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أي مشكلة من المشكلات نجد من يقول : نريد أن نسمع رأي الخبير فيها ، وفي القضاء نجد القاضي يستدعي خبيراً ليكتب تقريراً في أمر يحتاج إلى من هو متخصص فيه وعليم به ، إذن فالخبير في مجال ما هو الذي يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذي لا يستعصي عليه شيء في ملكه ، وهو الذي يدرك الأبصار ، فقوله : { لَأُتَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } يناسبها « خبير » ، وهذا ما يسمونه في اللغة « لف ونشر » وهو ان يأتي بأمرين أو ثلاثة ثم يأتي بما يقابلها ، مثال ذلك قوله الحق : { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } [القصص : 73] .

فمن مظاهر رحمته لنا سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال : { لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } [القصص : 73] .

لنسكن في الليل ، ونبتغي فضله في النهار ، وهذا اسمه - كما قلنا - « لف ونشر » .
ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك : { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ . . . } .

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104)

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشراقات التي تأتي في القلوب كالبصر بالنسبة للعين ، و « الكون » يعطيكم أدلة الإبصار ، والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحذره ونهاه عن المعاصي ومنحه النور الذي يجلي له الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول في البصر يأخذه الكافر والمؤمن ، وكلنا شركاء فيه مثله مثل الرزق ، لكن النور الثاني في البصائر يأخذه المؤمن فقط ، ولذلك يقول ربنا : { لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [الحديد : 9] .

وهو نور الهداية في بصائر المعنويات ، فيوضح : أنا خلقتكم خلقاً ووضع لكم قوانين

لصيانتكم . فقانون الصيانة في ماديّات الدنيا للمؤمن والكافر ، وقانون الصيانة في معنويّات الحياة خاصة للمؤمن .

وهو القائل : { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } [النور : 40] .
ونعلم أن البصائر من المعنويّات والمحيّء للأمر الحسّي؛ كقولنا : « جاء زيد » أو « جاء عمرو »
ولك أن تتصور البصائر وهي تأتي ، قال الحق : { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ } [المائدة : 15] .
إنه سبحانه قد أعطانا نورا صحيحا واضحا وهو يأتي إلينا بمشيئته .
{ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ } أي أنها بلغت من تكوينها أنها أصبحت كأنها أشياء محسّة تحيىء ،
ولا يصح أن تقولوا إنها لم تصلكم لأنها تحيىء من الرب الذي خلقنا بقدرته وأمدنا في كل شيء
بقيوميته ، ومن لوازم الربوبية أن يعطي ما يهدي ، وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن
رسوله قد بلّغ؛ فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول ناولنا ، فالحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقي
أن تؤدوا ولا عذر لكم من المشرع الأعلى الذي خلق وهو الرب . ولا من المبلغ المعصوم وهو
الرسول .

ويقول الحق تبارك وتعالى : { فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا } [الأنعام : 104] .
ولله المثل الأعلى ، نجد الولد يدخل البيت فيجد أمه ويقول لها : ماذا أعددت لنا من طعام؟
فتقول : لا شيء . فيقول الابن : لقد بعث أبي اللحم والأرز والخضار ، فكأنه يقول لها : أين
عملك يا أمي؟

وربنا سبحانه يوضح : أنا خلقتكم ، وعملت لكم قانون صيانة ، وأرسلت لكم رسولا ولا
تعرفون عنه أنه صادق في بلاغه ، وأدى هذه الرسالة ، لذلك فالباقي من المسألة عندهم أنتم ،
وكل واحد عليه أن يؤدي ما عليه من عمل ، إن أبصر فلنفسه ، وإن عمى فعليها . فإياكم أن
تفهموا أني كلفتكم بما يعود عليّ في ذاتي ، ولا ما يزيد من سلطاني شيئا؛ لأن خيرها لكم أنتم ،
ولا آمن على التشريع ممن لا يفيد من التشريع؛ لأن من يستفيد منه قدر يشرّع لمصلحته ، أما
الحق فهو مأمون على التشريع لأنه غير منتفع به .
يقول سبحانه : { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا } [الأنعام
: 104] .

ولأن الرسول عليه البلاغ فقط والحق قد حفظه وعصمه من الكفر وهو يبلغكم المنهج ، وقد
خلق الله كل إنسان مختارا وهو بهذا الاختيار يدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من الحكم ،
وسبحانه لم يبعث الرسول جباراً بل بعثه رحيماً؛ لذلك يقول الله في حق رسوله صلى الله عليه
وسلم : « وما أنا عليكم بحفيظ » والحفيظ من أسماء الله ، وهو الحفيظ لأنه شرّع ليحفظ الخلق
ويريد أن يجعلهم على مثال حسن واعٍ . والرسول هو المبلغ والحق يقول : { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِحَبَّارٍ { [ق : 45] .

إذن فكل واحد حر يدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من الحكم . وقد حارب الرسول ليحمي الاختيار بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام تجذب بعضاً من سكانها قد ظلوا على كفرهم ولم يرغمهم أحد على الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك : { وكذلك نُصِرَفُ الْآيَاتِ . . . } .

وَكَذَلِكَ نُصِرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)

« كذلك نصرف » . أي أن يأتي لنا بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد ، وتأتي الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع ، ويرقق قلوبهم ، ويأتي بنماذج من الرسل ، ومواقف أهمهم منهم حتى نصادف في كل حال قلباً مستقبلاً لأنه إن قال مرة واحدة وسكت وكان هناك أناس قلوبهم منصرفة فعندما يكرر الأحداث وينزل فيها التشريع والمواعظ فقد ترق قلوبهم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية .

{ وكذلك نُصِرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ } ما معنى : { وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ } ؟ إننا نعلم أن السماء تتدخل حين يطم الفساد ، لكن إن وجد في الذات الإنسانية نفس لؤامة فهي مَنَاعَةٌ للنفس ووقاية لها . فإن فعل الإنسان ذنباً تلومه نفسه فيرجع ، وإن اختفت النفس اللؤامة وصارت النفس أمارة بالسوء ، امتنع في المجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمعنى ذلك أن الفساد قد طم . وهنا تتدخل السماء وتأتي ببيان جديد ومعجزة جديدة .

إن الفساد لا يتأني إلا من وجود طبقات تطحن في طبقات ، والذين يُطحنون بالفساد هم من يستقبلون المنهج بشوق ، لكن الطاحن المستفيد من الفساد هو الذي يعارض المنهج . ولذلك فإن كل جماعة حاربت الرسل هم من الطاحنين للناس ، لكن المطحونين إنما يريدون من ينقذهم . إذن فكل صاحب دعوة سماوية جعل الله له عدواً من المجرمين؛ لأن السماء لم تتدخل إلى حين صار الإجرام لا مقاوم له . وهكذا يجعل الله لكل نبي ورسول عدواً من المجرمين ، وهذا العدو يفتن به الناس ، ويميل له ضعاف العقائد . والحق يصرف الآيات حالاً بعد حال حتى لا يثبت مع الداعي الحق إلا المؤمنون الصادقون .

ولذلك تجذب أن الإسلام قد جاء وغربل الأمور؛ فمثلاً تأتي حادثة الإسراء فمن كان إيمانه مهتراً ينكر الإسراء ، وذلك من أجل أن يذهب الزيد ويبقى من يحمل الدعوة بمنهج الحق . أما من كان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام لا يرغبه . { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا } [التوبة : 47] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد صرف الآيات لينصر المطحونين ، وحينما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قالوا درست وادعو أنه كان قاعداً في الجبل ، وتعلم من أعجمي . ولذلك نجد

الحق يقول : { وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل : 103] .
ويأتي الرد من الحق : { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } [النحل :
103] .

إن سيدنا عمر رضي الله عنه حينما كان في الطواف جاء عند الحجر الأسود وقال : « والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنت لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » .

فعل سيدنا عمر ذلك حتى يعلمنا إذا ماجاء بعض الناس وقال : ما سبب علة تقبيل الحجر الأسود؟ فيكون الجواب حاضراً : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وهذا تشريع .
ويقول الحق من بعد ذلك : { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ . . . } .

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)

وساعة يتكلم متكلم لمخاطب بأمر هو فيه وقائم عليه مؤد له فلا بد أن نفهم حقيقة المراد ،
مثلما يقول الحق سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا } [النساء : 136] .
وبأي شيء نادى الله خلقه المؤمنين هنا؟ لقد قال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا } ، فكيف يقول : « آمنوا »؟ لقد ناداهم لأنهم آمنوا إيماناً استوجب خطابهم بالتكليف ، والإنسان ابن أختيار .
فيوضح أن الإيمان الذي استقبلتم به التكليف من خطابي داوموا أيضاً عليه ، وجاء الأمر هنا بدوامه ، أي كما آمنتم إيماناً جعلكم أهلاً للتكليف في مخاطبتكم وقلت لكم يا أيها الذين آمنوا :
الزموا هذا وداوموا على إيمانكم . وقوله الحق : { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ } هو قول لرسول متبه ،
إذن فهو يحمل الأمر بالمدائمة على الاتباع ، ولا يحزنك ما يقولون يا محمد؛ لأنك مؤيد من ربك
ويتولى الدفاع عنك ويلقنك الحجة . { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } [
الفرقان : 33] .

ويقول الحق بعد ذلك موجه حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } .

أي أنه لا يوجد إله إلا هو سبحانه ، ولا يمكن أن تغير أنت بالمنهج النازل إليك منه ، وعليك
أن تعرض عن المشركين ، فلا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، ولا تودهم . إنه إعراض الفطنة والإرشاد
والبلاغ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا . . . } .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بَوَكِيلٍ (107)

الحق سبحانه وتعالى يعطينا قضية لا بد أن نستصحبها في تاريخنا الإيماني ، والقضية هي : أن أي كافر لم يكفر قهرا عن الله ، وإنما كفر لأن الله أرخى له الزمام بالاختيار أي خلقه مختارا ، ولذلك فالكافر إنما يفعل كل فعل بما آتاه الله من الاختيار لاغصبا عن ربنا أو قهرا ، بدليل أن الكون الذي نحيا فيه مقهور بالأمر ، لا يمكن أن يختار إلا مراد الله منه ، وكل ما في الكون يسير إلى مراد الله .

إذن فمن كفر لم يكفر قهرا عن الله؛ لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من الله . وحين اختص الله الإنسان بالاختيار وضع المنهج الذي يرتب عليه الثواب والعقاب . ولذلك نزل التكليف ب « افعل » و « لا تفعل » . وسبحانه إن أراد قهرا فقد قهر كل الأجناس في الكون؛ قهرها بطول العمر ، وأنها تؤدي مهمتها كما أراد الله منها ، إنه قهر الشمس ، وقهر القمر ، وقهر النجوم ، وقهر الماء ، وكل حاجة في الكون مقهورة له حتى الملائكة خلقهم : { لَأَيَّعُصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ } [التحریم : 6] .

إذن صفة القهر أخذت متعلقها كاملا . ولكن أيريد الله من خلقه أن يكونوا مقهورين على ما يريد؟ لا ، بل يريد سبحانه أن يكونوا فاعلين لما يحبه ، وإن كانوا مختارين أن يفعلوا ما لا يحبه ، كأن خلق القهر في الأجناس كان لإثبات طلاقة القدرة ، وأنه لا يمكن لمخلوق أن يشذ عن مراد الله منه . وبقي الاختيار في الإنسان ليدل على أن أناسا من خلقه سبحانه يذهبون إليه جل وعلا وهم قادرون ألا يذهبوا إليه ، وهذه تثبت صفة المحبة .

وحين يختار المختار الطاعة ، وهو قادر ألا يطيع ، ويختار الإيمان وهو قادر أن يكفر فقد جاء إلى الله محبة لا قهرا ، ولذلك يقول ربنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 4-3] .

أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحرنا على عدم إيمان قومك بما جئت به من عند ربك ، أتريد يا محمد أن أقهرهم؟ أتريد أعناقاً أو قلوباً؟ إنك يا محمد تعلم أن منهجك النازل إليك من ربك يريد قلوبا ، والقلوب تأتي بالاختيار . فلو شننا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم .

ولذلك إذا خُديش الاختيار بفقد أي عنصر من عناصره يزول التكليف . بدليل أنه لا تكليف على فاقد العقل؛ لأن آلة الاختيار عندنا هي العقل . وكذلك لا تكليف لمن لم ينضج بل يتركه الحق إلى أن ينضج . ويصير قادرا على إنجاب مثله وأن يصل إلى التكوين الكيماوي السليم . ويمنع عنه الإكراه بأي قوة أعلى منه تقهره على أن يفعل شيئا على غير مراده ، وهنا يأتي التكليف .

إذن فالتكليف يحتاج إلى أمور ثلاثة : وجود عقل ، لذلك فلا تكليف لجنون ، وعقل رشيد

ناضح ، فقبل البلوغ لا تكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا؟ تأتي الإجابة من الحق سبحانه : { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } [الأنفال : 42] .
ويقول الحق سبحانه : { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ . . . } {

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)

وتتضمن هذه الآية الكريمة منهجاً ضرورياً من مناهج الدعوة إلى الله ، هذه الدعوة التي حملها الرسل السابقون ، وختمهم الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلها سبحانه ختماً لاتصال السماء بالأرض؛ لذلك كان لابد من أن يستوعب الإسلام كل أفضية تتعلق بالدعوة إلى الله يحملها أميناً عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المحمدية . التي شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها من يحملون أمانة دعوة الله إلى الخلق امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكل مسلم يعلم حكماً من أحكام الله مطلوب منه أن يبلغه لغيره؛ فرب مُبلِّغ أوعى من سامع . حتى وإن كان الله لم يوفقه للعمل بما جاء فيما بلغ . فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، فإذا فاته أن يعمل فالواجب ألا يفوت من يعلم قضية من قضايا دينه ثواب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق ، ولكن عليه أن يعمل ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره حتى لا يقع تحت طائلة قوله تعالى : { كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } .
وإن كان بعض الشعراء يلحون على هذه المسألة . فيقولون :

وخذ بعلمي ولا تركزن إلى عملي ... واجن الثمار واخل العود للنار
إذن فالبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضروري ، وهو امتداد لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بلغ صلى الله عليه وسلم عن الحق مراده من الخلق . وبقي أن يشهد الناس الذين اتبعوا هذا الرسول أنهم بلغوا إلى الناس ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة : 143] .

إذن فكما أن الرسول سيشهد بأنه بلغنا ، فمن صميم المنهج أن يشهد أتباعه أنهم بلغوا الناس ، فإن حدث تقصير في البلاغ إلى الناس ، فستكون المسئولية على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤد أمانة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين . ومنهج الدعوة منهج صعب؛ لأن الدعوة إلى الله تتطلب أن يأخذ الداعي يد الذين ينحرفون عن منهج السماء اتباعاً لشهوات الأرض ، وشهوات الأرض جاذبة دائماً للخلق؛ لأنها تحقق العاجل من متع النفس .
واتباع منهج الدين - كما يقولون - يحقق نفعاً آجلاً ، فهو يحقق - أيضاً - المتعة العاجلة؛ لأن الناس إن تمسكوا بمنهج الله في « افعل ولا تفعل » يعيشون حياة طيبة لا حقد فيها ، ولا

استغلال ، ولا ضغن ولا حسد ولا سيطرة ، ولا جبروت ، فيصبح الناس جميعا في أمان .
إذن فلا تقولوا إن الدين ثمرته في الآخرة بل قولوا ليست مهمة الدين هي الآخرة فحسب بل
مهمة الدين هي الدنيا أيضا ، والآخرة إنما هي ثواب على النجاح في هذه المهمة؛ لأن الله إنما
يجازي في الآخرة من أحسن العمل في الدنيا .

ومن اتبع منهج الله كما قال الله { فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً } ومن أعرض عن منهج الله فإن له
معيشة ضنكا . ويحدث ذلك قبل الآخرة ، ثم يأتي يوم القيامة ليتلقى العقاب من الله : { وَخَشُرُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } [طه : 124] .

فإذا كان الدين يأخذ بالناس من شهواتهم الهابطة إلى منهج الله العالي ، فتكون مهمة الداعي
شاقة على النفس ، ولذلك قالوا : إن الناصح بالخير يجب أن يكون لبقا؛ لأنه يريد أن يخلع
الناس مما أحبوا وألفوا من الشر؛ لذلك يجب على الداعي ألا يجمع عليهم إخراجهم مما ألفوا
بأسلوب يكرهونه بل لا بد أن يثير جنائهم وورغبتهم في اتباع المنهج ، ولذلك جاءت هذه الآية :
{ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام : 108] .

لقد قال الحكماء : النصح ثقيل فلا نرسله جبلاً ولا تجعله جدلاً ، والحقائق مُرّة ، فاستعبروا لها
خفة البيان . والخفة في النصح تؤلف قلب المنصوح ، وحسبك منه أن تخلعه عما ألف وأحب .
إلى ما لم يتعود ، فلا يكون خلعه مما ألف بأسلوب عنيف . ولذلك يعلمنا الحق هذه القضية حين
ندعو الخصوم إلى الإيمان به ، وهؤلاء الخصوم يتخذون من دون الله أندادا؛ أي جعلوا لله ومعه
شركاء .

إنهم إذن إرادوا المتعة العاجلة بالابتعاد عن المنهج ، ثم احتفظوا بالله مع الشركاء؛ لأنه قد تأتي
لهم ظروف عصبية ، لا تقدر أسباب الأرض على دفعها ، ومن مصلحتهم أن يكون لهم إله قادر
على أن ينجيهم مما هم فيه . فهم لا يكذبون أنفسهم . والحق سبحانه هو القائل في مثل هؤلاء
إن أصروا على الشرك : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } [
الأنبياء : 98] .

حصب جهنم إذن هم المشركون ومعهم الأصنام التي كانوا يعبدونها وستكون وقوداً للنار التي
يعذبون بها . وبعض من الناس السطحيين يظن أن هذا عذاب للأحجار ، لا ، بل هي غيرة
ونقمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن منهج الله في توحيد الله . فتقول الأحجار :
لقد كنتم مفتونين بي ولذلك سأكون أنا أداة إحراقكم . إننا نجد المفتونين في الآلهة من البشر أو
الآلهة من الأشجار أو الآلهة من الكواكب أو الآلهة يصيبهم الله بالعذاب ، والأحجار التي
عبدوها تقول كما قال بعضهم فيها شعراً :

عبدونا ونحن أعبد ل ... له من القائمين في الأسحار
واتخذوا صممتنا علينا دليلاً ... وغدونا لهم وقود النار
للمغالي جزاؤه والمغالي فيه ... تنجيه رحمة الغفار
ولذلك يأتي الأمر بالأنا نسبة ما يعبده الذين أشركوا بالله؛ لأن الأصنام لا ذنب لها ، والواقع كان
يقتضي أن تتلطفوا بالأحجار فهي لا ذنب لها في المفتونين بها .

والحق سبحانه وتعالى يعلمنا ويوضح لنا ألا نعلم المتخذ لها؛ لأنه مغدور ، والسب هو ذكر
القيح ، والشتم ، والذم ، والهجاء ، إنك إن سببت وقبحت ما عبدوه من دون الله فإن العابد
لها بغاوته سيسب إلهك فتكون أنت قد سببت إلهاً باطلاً ، وهم سبوا الإله الحق ، وبذلك لم
نكسب شيئاً؛ فانتبهوا .

ويحذرنا القرآن من الوقوع في ذلك في قول الله تبارك وتعالى : { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعام : 108] .

وهم سيفعلون ذلك عدواً وعدواناً وطغياناً بغير علم بقيمة الحق وقدسيتها سبحانه وتعالى؛ لذلك
يجب أن نصون الألسنة عن سب آلهتهم حتى لا نجري الألسنة التي لا تؤمن بالله على سب الله .
إن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا اللطف في منهج الدعوة؛ لأنك تريد أن تحن قلوبهم لتستميلهم
إلى الإيمان ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب .

صحيح أن المؤمنين معذورون في حماسهم حين يدخلون في مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر
المؤمن القيمة النهائية وهي الخير للدعوة . وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين ، ويعلمنا
الحق كيف نسير في منهج الدعوة ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحاً عليه السلام الذي لبث
في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . وظل يدعو ويتحنن في الدعوة ، إلى أن قالوا له في آخر
المطاف : أنت تفتري هذا الكلام من عندك ، فعلمه الله سبحانه وتعالى أن يقول : { قُلْ إِنْ
افْتَرَيْتَهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ } [هود : 35] .

ويقول الحق سبحانه معلماً رسول الله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ } [سبأ : 24] .

أي من الذي يعطيكم قوام الحياة؟ وأنت حين تسألهم سؤالاً يناقض ما هم عليه . فيتلجلجون ،
فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم : { قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [سبأ : 24] .

و « إنا » أي رسول الله ومن معه . « أو إياكم » المقصود بها الكافرون بالله ، ولم يقل لهم أنا
وحدى على هدى وأنتم على ضلال ، بل قال : منهجنا ومنهجكم لا يتفقان ، ولا بد أن يكون
هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال ، ولن أقول من هو الذي على هدى ، ومن هو الذي

على ضلال؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم : فلن يجدوا جواباً إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال . فتركهم هم ليقولوها .

ولنتأمل أيضاً قول الحق سبحانه : { قُلْ لَأَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] .

لم يقل الحق إنهم هم الذين يجرمون ، بل جعل الجرم - إن صح - على المؤمنين ، وجعل العمل - وإن فسد - مع الكافرين .

وعلى الأقل كانت المساواة تقتضي ولا نسأل عما تجرمون ولكنه لم يقل ذلك . وهذا هو الأدب العالي واللطف؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد ألا يترك الرسول لغرائزهم مكاناً للإباء عليه ، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة . ولهذا يعلمنا هذا الأسلوب فيقول : { وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعام : 108] .
وبذلك نحقق لطف الجدل . ويقول سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ } [الأعراف : 194] .

وإن كنتم تريدون كشف حقيقة تلك الأصنام فهي أيضاً مخلوقة لله وهي تعبه ، واسألوهم ولن يجيبوا ، وهم لا أرجل لهم يمشون عليها ، ولا لهم أيد يبطشون بها ، ولا لهم أعين يبصرون بها ، ولا لهم آذان يسمعون بها . وفوق ذلك : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَا يُجْتَمِعُوا لَهُ } [الحج : 73] .
وهل هناك ما هو أقل من الذباب في عرفكم؟ نعم ، يقول الحق : { وَإِنْ يَسْأَلُكَ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ } [الحج : 73] .

فإن جاءت ذبابة وحطت على ما تأكل ، أتستطيع أن تسترجع منها شيئاً؟ لن تستطيع ، وإن كنت جباراً وفتوة فامسك الذبابة وخذ منها الطعام الذي أخذته ، لن تستطيع ، ولذلك يقول الحق سبحانه : { ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ } [الحج : 73] .
وهذا هو الجدل الذي يجعل المجادل ينجل من نفسه ، لكن إذا ثرت في وجهه وتعصبت فأنت تجعل له عذراً في الحفيظة عليك والغضب منك والهجوم عليك ، وفي الانصراف عن منهج الله ، ونسأل الله أن يعطينا طول البال وسعة الحلم والأناة على الجدل اللطيف .
{ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ } [الأنعام : 108] .

وحين يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة فهذا تزيين للدعوة ، والدعوة في ذاتها جميلة؛ لذلك لا بد أن يكون عرضها جميلاً .

والمثال من حياتنا : أنت تذهب إلى التاجر وعنده بضاعة قد تكون متميزة جداً لكنه لا يرتبها ولا يحسن عرضها؛ لذلك قد تنفر منه وتذهب إلى تاجر آخر قد تكون بضاعته أقل جودة لكنه يحسن عرضها ، وهذا هو التزيين أي تصعيد الحسن ، ولذلك سُمِّي الحلبي وما تتجمل به المرأة زينة والمرأة قد تمتلك أنوثة جميلة ، وهي مع جمالها تقوم بتزيين نفسها بالحلي ، وبالجوهر والملبس الراقي ، وكان العربي حين يمتدح امرأة بقمة جمالية يقول : هذه غانية ، أي استغنت بجمالها عن أن تزين؛ لأن ما سوف تداريه بالعقد أجمل من العقد .

والتزيين إذن جمال العرض للاستمالة والانجذاب ، ونحن حين نزين أمراً فإننا نعطيه وقاراً وحسناً ونزيده جمالاً : { كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } والأمة : هي الجماعة التي لها انتماء يجمع أفرادها ، مثل أمة العرب . . أي أن المنتمين إليها هم العرب والأمة الإنجليزية أي أن المنتمين إليها إنجليز ، أما أمة الإسلام فيدخل فيها العرب ، والعجم ، والأسود والأبيض ، والأصفر ، وهي أوسع رقعة ، فإن كانت الأمم السابقة زينت لتناسب عصرًا محدوداً وزمنًا محدوداً ، ومكاناً محدوداً فنحن نزينكم تزييناً يناسب كل أذواق الدنيا؛ لأنكم ستواجهون كل هذه الأمم ، فلا بد أن يكون في دعوتكم استمالة لهذا ولهذا ولهذا .

وفي بدء الدعوة - وكانت حينئذ ضعيفة نجد - رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الأمة ، فيكون بلال الحبشي هو من يؤذن ، ونجده يقول عن - سليمان وهو فارسي - : سلمان منا آل البيت ويأتي سيدنا عمر يقول عن صهيب - وهو رومي - : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، أي أن عدم عصيانه لله طبيعة فيه حتى وإن لم يكن يخاف عقاب الله . فإذا كنا قد زينا لكل أمة من الأمم الماضية عملهم فتزيين أمتكم يجب أن يكون مناسباً لمهمتها زماناً ومكاناً وأجناساً ، وألواناً ، ولغات ، ولا بد أن نزينكم أيضاً بحسن أسلوب العرض لمنهج الدعوة . ويجب أن يتناسب مع جمالها ، وأنتم أولى بالتزيين؛ لأنكم مستوعبون لكل حضارات الدنيا ، وانتماءات الدنيا ، فيجب أن يكون تزيينكم مناسباً لمهمتكم .

{ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ } [الأنعام : 108] .

أي أننا وضحنا لهم منهج نقل الدعوة إلى الغير ، وما ينال المحسن والمطيع من ثواب في الآخرة ، والمؤمنون حينما ينعمون بنعيم الآخرة فهذا نعيم بغير حدود؛ لأنه على قدر طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى ، وهم حين يتنعمون بكل هذه النعم يستشرقون إلى لقاء المنعم به ، ويتجلى الله عليهم .

وكما زينا للأمم السابقة أعمالهم قد زيناكم لأنكم أمة الإجابة ، وهذا التزيين الخاص يربي الدعوة إلى منهج الله ، ولو فطن غيركم إلى ما في منهجكم من زينة لبحثوا في هذا المنهج ولقام كل منهم باستقراء الوجود الذي بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ولوجد أن لكل كائن مهمة ،

ولانضم إلى المنهج التعبدي . { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56] .
و « ليعبدون » تعني أن يطيعوا في « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » وإذا قال الحق : { كَذَلِكَ
زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ } فمعنى ذلك أنه سبحانه قد بين العمل بفوائده .
وأنت حين تتأمل ظواهر الوجود حولك تجد أن من تميز عليك بموهبة إنما أرادته الحق على هذا
التميز لينفعك أنت ، ويتجلى هذا الأمر في كل المهنة : فالنجار الحاذق والمتقن تعود صنعته
عليك ، ومصمم الملابس الذي يتقن عمله سيعود خير صنعته عليك ، ومن مصلحة كل إنسان
أن يكون غيره متفوقاً؛ وأن يكون هو أيضاً متفوقاً في عمله ، وأن يحمد ربنا لأن خير سيعود على
غيره أيضاً ، وبذلك نحيا في مجتمع راق يتكون من أمم وطوائف مثالية ، إذن فالمتفوق في شيء
يجب ألا يحقد على غيره من أبناء المجتمع؛ لأن خير تفوقه سيعود على كل فرد فيه ومن المصلحة
أن يصبر الكل إلى التفوق .

فإذا قال الله : { كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ } أي جعل الله لكل منا عملاً في الحياة ، ولا بد
أن ينتفع به في الدنيا ، وينتفع به في الآخرة أيضاً ويأخذ كل منا ثواب الله عليه ، فالذي يأخذ
التزيين يقبل على العمل ، والذي لا يأخذ التزيين فعليه الذنب ، وكل واحد إنما يزين عمله على
مقدار الطموح الذي يطلبه لنفسه ، ونحن نرى أمثلة لذلك في الحياة ، ونلتفت لنجد إنساناً له
دخل محدود ، لكنه يفتح على نفسه أبواباً من الترف أكثر من اللازم ، ولا يدخر شيئاً ويحقق
لنفسه المتعة العاجلة ، ونجد إنساناً آخر يعيش على قدر الضروريات ويدخر لنجده من بعد ذلك
قد طور من أسلوب حياته بالسكن اللائق وتمتع الحياة . إن الأول زين له عمله الترف العاجل ،
والثاني زين له عمله الترف المقنن ، فإياك أن تنظر إلى شهوة العاجلة ، ولكن انظر إلى الجدوى
التي تأتي منها : { ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام : 108] .
وما دام المرجع لمن أوجد العمل منهجاً في « افعل » و « لا تفعل » والمرجع لمن وضع التزيين في
العمل لتأخذ المنهج الكريم منه ، وعلى مقدار ما أخذت من منهجه تأخذ من كرامته .
ويقول الحق من بعد ذلك : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . . . }

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109)

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ } ، هنا قَسَمَ : ومُقَسِّمٌ به ، ومُقَسِّمٌ ، ومُقَسِّمٌ عليه . . فالمُقَسِّمُ به هو الله :
والمقسِّم هم الجماعة المخالفون لرسول الله ، ولماذا يقسمون؟ لقد أقسموا حين أخذهم الجدل
بمنطق الحق فغلبهم . . هم أقسموا بالله وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادته ، و {
جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } تعرف منها الجهد وهو المشقة أي أنهم بالغوا في القسم مبالغة تجهدهم ليبينوا لمن

يقسمون لهم أنهم حريصون على أن يبروا بالقسم ، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم في القسم ، وهذا معناه أنهم أعلنوا أنهم يقسمون قسماً محبوباً لهم ، والمحجوب لهم أكثر أن ينفذوا هذا القسم ، وهذا يدل في ظاهره على إخلاصهم في القسم .

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا } [الأنعام : 109] .

ألم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم بآية واضحة؟ لقد جاءهم بأعظم آية وهي القرآن ، وعدم عرفانهم بذلك هو أول مصيبة منهم ، ألم يقل لكم : إني رسول بعد أن أعلن الآية وهي نزول القرآن وأنتم تعرفون أنه صادق في التبليغ عن الله . . وكان ذلك هو قمة المماحكة منهم ، وساروا على ذلك حين اقترحوا هم الآيات على الله ، ألم يقولوا : { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً } [الإسراء : 90-92] .

وأراد الحق بذلك أن يبين لنا أنّ القسم الذي أقسموه هو قسم مدخول فقد قالوا : « كما زعمت علينا » والزعم - كما نعلم - مطية الكذب وهذا أول خلل في القسم . ويقول الحق : { إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ } [سبأ : 9] . هم إذن غير مؤمنين بالآية الأصلية وهي القرآن ، فيتحدونه في أنه ينزل بالوحي ، فيحذرنا الحق أن نصدق زعمهم ، فهو القائل : { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [الأنعام : 7] .

وحتى إن نزلت الآية فلن يصدقوا؛ فالحق هو القائل : { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ } [الحجر : 14-15] ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحرهم . . فلماذا لم يسحرهم ليؤمنوا بالله؟ وهكذا نرى أن الحق قد ذكرنا لنا في كتابه أن كل ما يقولونه في هذه المسألة هو مروق وهروب من الاستجابة للدعوة؛ لأنه لا توجد آية أعظم من الآية التي نزلت عليهم وهي القرآن ، وكل الآيات التي اقترحوها لا تسمو على هذه الآية؛ لأنهم أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، فجاء لهم بالمعجزة التي تفرقوا فيها . وهم لم يتفوقوا في الأشياء التي ذكروها واقترحوها .

إننا نأتي لهم بمعجزة من جنس ما تفوقوا فيه؛ لأن المعجزات دائماً تأتي على هذا الأساس؛ فكل قوم تفوقوا في مجال يأتي الله لهم بشيء يتفوق عليهم في مجال تفوقهم ليشبث صدق الرسول في البلاغ عنه .

ولقد قلنا : إن المعجزات تأتي خرقاً لنواميس الكون الثابتة لأن نواميس الكون لها قوانين عرفها البشر ، وأصبحت متواترة أمامهم؛ فإذا ما جاء أمر يخرق الناموس السائد المعترف به بينهم

يلتفتون متسائلين كيف خرق الناموس وذلك ليعرف كل واحد منهم أن الذي خلق الناموس هو الذي خرق الناموس؛ لكي يثبت صدق هذا البلاغ عنه . وقد جاء تكلم المعجزة من جنس ما نبغتم به ، والذي يدل على ذلك أنهم لا يتكلمون في المعجزة بل في المنهج وفي شخص من جاء بالمنهج ، تجدهم يقولون : { لولا أنزلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [الأنعام : 8] .

فيوضح القرآن أن الملك بطبيعة تكوينه لا يُرى منكم؛ هو يراكم وأنتم لا ترونه ، وإذا أرسلنا ملكاً فكيف تعرفونه؟ إذن سيتطلب إرسال ملك أن نخلع عليه وضع البشر ، وإن ينزله الحق في صورة بشر ، وإن نزل في صورة بشر فستقولون : إنه ليس بشراً ولسنا ملزمين بما جاء به : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ } [الأنعام : 9] .

وكان سيدنا جبريل - على سبيل المثال - ينزل إلى رسول الله أحياناً في صورة رجل قادم من السفر ويقعد ويتكلم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يأت جبريل عليه السلام - إذن - بطبيعة تكوينه بل جاء بطبيعة البشر . وهناك خلق آخر مثل الجن ، ونحن لا نقدر أن نرى الجن ، ولا نستطيع بقوانيننا وقوانين الجن أن نراه ، لكن إذا أراد الجن أن يرينا نفسه فهو يتشكل بشكل مادي يرى؛ يتشكل بشكل حيوان ، يتشكل بشكل قطة ، يتشكل بشكل جمل ، يتشكل بشكل رجل ، وهكذا ، ولو كانت هذه المسألة غير مقيدة بتقنين يحفظ توازن الأمر بين الجنسين - الإنس والجن - لتعب الناس؛ لأنه ساعة يظهر جن للإنسان ويقف أمامه ثم يختفي يسود الرعب بين البشر على الرغم من أن الجن تخاف من الإنسان أكثر مما نخاف نحن منهم؛ لأن الجن يعرف أن قانونه يسمح له أن يتشكل بشكل إنس أو أي شكل مادي ، وحينئذ يحكمه قانون الإنس وإن التقى بشخص معه مسدس - مثلاً - فقد يضربه بالرصاص ويقتله ، ولذلك يخاف الجن أن يظهر للإنسان مدة طويلة ، وإنما يظهر كموضة البرق ويختفي؛ لأنه يخاف كما قلنا - من الإنسان . إذن فالتوازن موجود بين الجن والإنس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن عفريتاً من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع عليّ الصلاة وإن الله أمكنني منه فدَعْتُهُ ، فلقد هممتُ أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أوكلكم ثم ذكرت قول أخي سليمان : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » فردّه الله خاسئاً ، وفي رواية : « والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » .

وهكذا نعلم أن القوم إذا اقترحوا آية ، ثم جاء الله بالآية ، فإن كذبوا بها أخذهم أخذ عزيز مقتدر ولا يؤجل ذلك للآخرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال : 33] .

إذن فحتى الكفار به ناهم شيء من رحمته .
{ وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 109] .

هنا يبلغ الحق رسوله أن يقول لهم : أنا لا آتي بالآيات من عندي ولا آتي بقانون قدرتي؛ لأن قانون قدرتي مساو لكم . ولست متفوقا عنكم غير أنه يوحي إليّ وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . إن الله هو الذي يناولني آيات القرآن ، ولا يوجد خلق يقترح على الله الآية؛ لأن ما سبق في الرسالات السابقة يؤكد أن الحق إذا ما استجاب لآية طلبها الخلق ولم يؤمنوا فسبحانه يهلكهم ويستأصلهم أو يغرقهم أو يرسل عليهم ريحا صرصرا أو يخسف بهم الأرض ، والحق هو القائل :
{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ } [الإسراء : 59] .
إذن فبعض أهل الرسالات السابقة اقترحوا الآيات وحققها الله لهم ثم كذبوا بها . إذن فالتكذيب هو الأصل عندهم .

والمفروض أن تأتي الآية كما يريد الله لا أن يقترحها أحد عليه . ولذلك يأمر الحق رسوله أن يبلغهم : { قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ } ثم يأتي خطاب جديد لأناس يختلفون عن المشركين هم المؤمنون ، فيقول الحق لهم : { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } فكأنهم حينما قال أهل الشرك ذلك أراد المؤمنون أن يخففوا عنهم مع رسول الله فقالوا له : يارسول الله ، اسأل الله أن ينزل لهم آية حتى نرتاح من لجاجتهم ، فيتجه الله بالرد على من قرظ هذا السؤال موضحا : أنتم مؤمنون ووطنكم حسن ، وفكرتكم طيبة في أنكم تريدون أن تكسروا حدة العنت ، لكن ما يشعركم : أي ما يعلمكم أن الآية التي اقترحوها إن جئت بها لا يؤمنون . فكأن المؤمنين أيدوا قول هؤلاء المشركين في طلب الآية منعا للججاج .

والنص القرآني جاء بقوله الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا؛ لأنها أفهام تنصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذي يجعل الأسلوب يجيء بها الشكل؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش في القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب في قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم .

وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أي أساس بنيتم شعوركم هذا؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويبطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك . وأنتم تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .
وبعض من المفسرين قال : إن (لا) زائدة ومنهم من كان أكثر تأدبا فقال : (لا) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : (لا) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا

الأدب؛ لأن الذي يتكلم هو الإله وليس في كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفت شيئاً فالكلام يفسد ولا يؤدي المراد منه؛ لأن الله مرادات في كلامه ، وهذه المرادات لا بد أن يحققها أسلوبه . والمثال في حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندي مال » أو ما عندي من مال؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أي من عندي من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندي مال » أي ليس عنده ما يعتد به من المال الذي له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يثال له : مال . إن في جيبه القليل من القروش .

و « لا » في هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أنني إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تطفئ الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم في التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حبا في الكفار ، بل حبا في النبي والمنهج ، وكان الحق يقول لهم : أنا أعذرکم لأنکم تأخذون بظاهر جهد اليمين { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قوهم؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، ومكا أدراكم أنني إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعبون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب ب { لَا يُؤْمِنُونَ } ف « لا » حقيقة وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم يقول : { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ . . . } .

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

و حين تقول : أنا أقلب السلعة فهذا يعني أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر الفؤاد ، بل بلطفي وعظيم خبرتي أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكمي هو الحكم الحق الناتج من تقليب لطيف خبير . وقد يكون هنا معنى آخر ، أي أن يكون التقليل لونا من التغيير؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا في هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فأنى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت آية؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجيء الآية أیظل أمره أم يتغير؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا تستحسنه ثانيا . حين { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ } أي أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ } .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان في فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع؟ أو هي رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرة منهم على الاستنباط؟

وهل أفندتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة؟
{ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الأنعام :

[110

إذن فهم لا يؤمنون ويسيروا إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفي هذا عذر للمؤمنين في أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .
لماذا؟ لأن الحق قال : { كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ } ، أي أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم { وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } والطغيان هو تجاوز الحد ، وهم قد تجاوزوا الحد هنا في استقبال الآيات ، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها ، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة ، وكان يجب ألا يطغوا ، وألا يتجاوزوا الحد في طلب الاقتناع بصدق الرسول .

{ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } و « العمه » هو التردد والحيرة ، وهم في طغيانهم يترددون ، لأن فيهم فطرة تستيقظ ، وكفرا يلح؛ يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن؟ والفطرة التي تستيقظ فيهم تلمع كومضات البرق ، وكان يجب ألا يترددوا : أو { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ } في النار؛ لأن البصر لم يؤد مهمته في الاعتبار ، والقلب لم يؤد في الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم في النار .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ . . . }

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون ، بل قال : { وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ } مثلما اقترحوا ، أو حتى لو كلمهم الموتى ، كما قالوا من قبل : { فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [سورة الدخان : 36]

ويأتي القول : { وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ } و « الحشر » يدل على سوق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب في صندوق من الورق ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له ، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط ، وهنا يوضح الحق : لو أنني أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتي صالحة أن آتي بالآيات التي طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تضن بالإيمان .
{ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا } و « قبلا » هي جمع « قبيل » ، مثل سرير وسرر .
{ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا } . وهذا يعني أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات ، وكان كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية ، وهكذا . فلن يؤمنوا ، أو « قبلا » تعني معاينة أي أنهم يرونها بأعينهم ، لأن في كل شيء دبرا وقبلا؛ والقبل هو الذي أمام عينيك ،

والدبر هو من خلفك . فإن حشرنا عليهم كل شيء مقابلا . ومعاينا لهم فلن يؤمنوا . وإن اخذتها على المعنى الأول أي أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المعطي أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجهة ، أي أنهم لو رأوا بعيونهم مواجهة من أمامهم فلن يؤمنوا .

{ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الأنعام : 111]

وجاء الحق هنا بمشيتته لأن له طلاقة القدرة التي إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك ، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطي الاختيار في التكليف ولذلك قال سبحانه : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4]

والله لا يريد أعناقاً تخضع ، وإنما يريد قلوباً تخضع . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : { ولكن أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ } . والجهل يختلف عن عدم العلم ، بل الجهل هو علم المخالف ، أي أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها ، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفي أن نقولها حتى يفهمها فوراً . لكن مع الجاهل هناك مسألتان : الأولى أن نزيل من ادراكه هذا الجهل الكاذب ، والأخرى أن نضع في إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعني أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ . . . } .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)

{ وَكَذَلِكَ } إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطي الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له في موكب الرسالات ، فلست بدعا - يا محمد - في أنك رسول يُوجَّه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقويل بهؤلاء الأعداء . وهل فت أعداء الرسل في عضد من أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثنوهم عن دعوتهم؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين؟ . . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلا بد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسبين للمهمة التي تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد في هذه العداوة أننا تركناهم أعداء مجرد العداوة ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة؛ لأن الإنسان إذا ما كان في منهج خير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا تجد الصحوة الإيمانية قد

استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولو لم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أي لون من ألوانهم من يتحدى أي قضية من قضايا الدين . في هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يغار على الدين . إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن أي مظهر في الوجود يُغلب الله على مراداته في كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذي يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندي من جنود الحق : لأن الباطل حين يعرض ويعرِد في الناس يتساءل الناس متى يأتي الحق لينقذنا ، وأنتك ساعة ترى مريضاً يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندي من جنود الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطبا في هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هي الأمراض التي تأتي بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا أن يستعصي شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندي من جنود العافية .

وحيث يكون لك عدو في الحارة أو في البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هنة وعيب حتى لا يشنع عليك؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنصره على نفسك .

والشاعر القديم ، الذي أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداي لهم فضل عليّ ومنة ... فعندي لهم شكر على نفعهم ليا

فهم كدواء والشفاء بمرّه ... فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

همم بختوا عن زلّتي فاجتنبتها ... فأصبحت ممّا دنس العرض خاليا

وهم أججوا جهدي ولكن ببغضهم ... وهم نافسوني فاكنتسبت المعاليا

لذلك لا بد أن تنظر إلى كل شيء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ

غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ } [الأنعام : 112]

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيجين ومثيرين للنبي ولأتباعه؛ لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أوجب في نفس المقابل قوة حتى لا يهزم أمامه ولا يغلب أمام منطقته . ولذلك قال الحق : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا } .

وكيف يجعل الله لكل نبي عدوا؟ إنه يفعل ذلك بما أودع في الناس من الاختيار ، وما داموا

مختارين فالذي اختار الهدى يكون نصيراً للنبي ، والذي اختار الضلال يكون عدواً للنبي .

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم ، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار .
وإذا كان الله هو الذي أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته في قوله : { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن
بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . } [الأنفال : 42]

ولو شاء الله الا يكون للنبوة أعداء لفعل ذلك؛ لأن له طلاقة القدرة ، ولكن ذلك سيكون
بالقهر ، والله لا يريد قهراً للعقلاء ، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم؛ اي وهم قادرون
على الا يذهبوا . وكلمة « عدو » في ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تطلق على الواحد ، وتطلق
على الاثنى ، وتطلق على الجماعة ، فتقول : « هذا عدو لي »؛ و « هذه عدو لي »؛ ولا تقل
« عدوة » ، وتقول : وهذان عدو لي ، وهاتان عدو لي ، لأن كلمة « عدو » تطلق على الذكر
والأنثى وتقال للمفرد وللمثنى ، وللجمع .

اقرأ قول الحق : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 77]
واقروا قول الحق : { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ
اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [طه : 123]

ولم يقل أعداء ، إذن فكلمة « عدو » تطلق على المفرد والمفردة ، والمثنى والمثناة ، وعلى جمع
المذكر والجمع المؤنث . لكن بعض الذين يجنون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول
الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لي » ، أو « اهبطو بعضكم لبعض عدو »؟! ويقول
سبحانه وتعالى : { أَلَمْ أَنهْكُمْ عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ . . }
[الأعراف : 22]

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { واذكروا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً . . } [آل عمران : 103]
ونقول له : أنت قد فاتك أن الذي يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو
، وجماعته مصلحة واحدة في معاداة المعادي يكونون وحدة في العداوة فهم عدو واحد
لاجتماعهم على سبب واحد في العداوة .

لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ،
وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد
منهم عدواً برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة . { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ . . } [سورة الأنعام : 112]
وشياطين الإنس والجن كما يقول النجاة بدل من عدو و « شياطين » جمع شيطان وهو اللعين
المطروود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

{ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } والوحي - كما نعرف - هم إعلام بخفاء ،

ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض؟ لن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس الخقين في قضية يتحركون في علانية . ولا يستخفون من الناس .
{ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ } ومن الذي يوحى؟ ومن الذي يوحى إليه؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحي : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً في النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحي الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحي من شياطين الجن فهل يوحون إلا بشر؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشر . مصداقاً لقوله الحق : { يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ } وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، ونعلم أن المعاني حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسية ، والوسوسة هي صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن للفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغري بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

{ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ } وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى للإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجي يوحى لحيي؛ لأن الجن مكلف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس .

{ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ } الزخرف . هو الشيء لمزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل : { وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . } [الزخرف : 35] أي أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

{ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . } [الأنعام : 112]

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقترفوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية في ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر : اشرب الخمر لتصاب بتليف الكبد مثلاً!! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليذهب همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

{ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } أي ليغروهم؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرة هذا الشيء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } إنَّ الحق سبحانه وتعالى هو الذي أعطى خلقه اختياراً في أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، في نور أو في ظلمة . ويأتي الوقت الذي يثيب فيه سبحانه أو يعاقب؛ لذلك فهو - جل شأنه - لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شيء في الكون يقع

على غير مشيئة الله؟ ونقول : نعم كل شيء من فعل الله؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذي خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا أن شاء الله لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً في أن يفعل أو لا يفعل في بعض الأمور ، فالذي ينظر إلى أن كل فعل من الله أي ليس بطاقة من عبد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتي من الله ، فأنت - على سبيل المثال - لم تخلق القوة التي لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هي العضلات التي تتحرك لتفعل الانقباض؟ أنت لا تعرف . إنك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذي خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها في قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التي في اليد ، ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } أي لو شاء عدم فعله لفعل؛ لأن له طلاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان؟ خذ المثال من نفسك . أنت فيك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، واختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض؟ . لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت تمشي؟ . لا .

ألك اختيار في أن يصيبك سائق سكران؟ . لا .

ألك اختيار في أن تموت او لا تموت؟ . لا . لقد جعل الله فيك الأمرين الأثنين :

قهرك في أمور . والقهرية تثبت له - سبحانه - القدرة وطلاقتها ، وجعلك مختاراً في أشياء ، والاختيار يثبت صحة التكليف .

ويتابع الحق مذيلاً الآية : { فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، وهم يرون أن افتراءهم يعوق الدعوة ، لا ، فقد صار افتراءهم وكيدهم وعداوتهم للنبي وقوداً مهيجاً للدعوة؛ لأن يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملاهم بخلال الخير .

{ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ . . } [الرعد : 17]

ولو لم يكن هناك مهيجات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاطل والباطل ولاندرس فينا من لا يعرف قيمة الإيمان؛ لذلك يحص الله بالأعداء وبالقوم الذين يقفون أمامها حتى لا يكون في حملة الدعوة احد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان ، وهم الذين يخرجون هرباً من مسئوليات الإيمان

ولا يبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصدق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء .

ولذلك قال : { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا } [التوبة : 47]

فمن الحكمة أنه - سبحانه - ثبط عزيمتهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والخروج معكم . { وَلَوْ
أَزَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } [

التوبة : 46]

وهنا يقول الحق : { يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ } وزخرف القول هو لون من الأداء
له سُمَاع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر في قلوبهم ولا في نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعونه ويكون
عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس : { وَلَتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . . } {

وَلَتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرِضُوهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

كأن من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن زُينت له معصية فإنه
يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً؛ وماذا أفعل يوم القيامة الذي
يكون فيه الإنسان إما إلى دخول الجنة وإما إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تتقبل
أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا
الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع في الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضرت كل مؤمن العقوبة على
المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا في هذه
الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا في العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القاهرة
في العقوبة؟! ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبالهم إذا عرضت لهم أي
معصية ، يقارنونها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . { وَلَتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلَيَرِضُوهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم؛ لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير
الإنسان منا في الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تقف
الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هو
الإصغاء . ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : من تسمع غانية - أي امرأة تغني بخلاعة
- ولم يقل : « من سمع » ، والإنسان منا قد يسير ويذهب إلى أي مكان والمدياع يذيع الأغاني
، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك السمع منطقة وليست مفتوحة؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك
الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين؛ فالعين لا ترى وهي مغمضة ، إنها ترى وهي مفتوحة ، والعين
تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعي هذه ، وهذه اسمعها .
إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذي له فيه اختيار .

{ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْنِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [الأنعام : 113]

كأن فيه شيئاً ينبع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أي يوافق ما في الأعماق ، وشيئاً آخر يمر عليه الإنسان مر الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هي القلوب ، صحيح أن الأذان هي التي تصغي ، لكن القلوب قد تتسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندما استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون التفات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

{ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْنِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ . . } [الأنعام : 113]

ثم تأتي المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

{ وَلَيَرِضُوهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [الأنعام : 113]

وقد يصغي إنسان ، ثم تنتبه نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة .

لكن هناك من يصغي ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم ينزع للعمل ليقترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هي : { ولتصغى إِلَيْهِ أَفْنِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } . ثم المرحلة الثانية : { وَلَيَرِضُوهُ } ، ثم المرحلة الأخيرة : { وَلَيَقْتَرِفُوا } أي يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التي درسها علماء النفس فالإدراك؛ « لتصغى » ، والوجدان؛ « ليرضوه » ، والنزوع؛ « ليقترفوا » .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، ونزوع والشرع لا يتدخل عند أي مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند النزوع إلا في حالة واحدة حيث لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان وعن الإدراك؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون في عملية نظر الرجل إلى المرأة؛ لأنك حين تنظر تجد نفسك : تحبها وتعشقها تفتن بها ، ومحرم عليك النزوع ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات؛ لأنه إن أدرك وجد ، وإن وجد نزوع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر : { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . } [النور :

30] { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ . . } [النور : 31]

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى النزوع ، لماذا؟ لأن الإدراك الجمالي في كل شيء يختلف عن الإدراك الجمالي في المرأة . الإدراك الجمالي في المرأة يحدث عملية كيميائية في الجسم تسبب النزوع ، ولا يمكن فصلها أبداً . { ولتصغى إِلَيْهِ أَفْنِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرِضُوهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } .

وساعة ما نقول : « ما » ويأتي الإبهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جداً .

ولذلك يقول الحق : { . . فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْبِيمِ مَا غَشِيَهُمْ } [طه : 78]
أي أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : { وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } .
أي أن كل واحد يقترف ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يميل إليه؛ فهناك من يغتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التي لا تحدد؛ لذلك جاء لها باللفظ الذي يعطي على العموم .

وما دامت المسألة في نبوة واتباع نبوة ، وفي أعداء شياطين من الإنس والجن ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لا بد من حاكم يحكم .
فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبدلون قصارى جهدهم في إيدائك ومن اتبعك ، فإياك أن تتبغي حكماً غيري؛ لأني أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذي سوف أجازي .

لماذا؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتي من يقول مراد المقنن كذا ، أو المفسر الفرنسي قال كذا ، والمفسر الإنجليزي قال كذا ، لا ، إن الذي يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بما ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي فليحط بعضهم من بعض فإقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها . »
أي إياك أن يقول واحد : إن النبي قد حكم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوي الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذي قنن ، ومادام هو الذي قنن وهو الذي يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .
ولذلك يقول الحق سبحانه : { أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَنْتَعِي . . . } .

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَنْتَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ
أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)

فسبحانه هو من يحكم وهو من قنن ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع القانون ، ومن يخالف القانون . وساعة تقول : { أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَنْتَعِي حَكَمًا } . فهذا دليل على أنك واثق أن مجيبك لن يقول لك إلا : لا تتبغي حكماً إلا الله ، ولذلك يطرح المسألة في صيغة استفهام ، ويقول صلى الله عليه وسلم : مبلغاً عن ربه : { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا } ، ولم يقل رسول الله : وهو الذي أنزل علي الكتاب ، بل قال مبلغاً عن رب العزة : { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ

الكتاب { كأن العداوة ليست لمحمد وحده ، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها ، والحكم لأمة الإيمان كلها . ومع أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس والغاية منه للمؤمنين كلهم ، وهكذا تكون العداوة للنبي عداوة للمؤمنين كلهم ، ولذلك أنزل عليه الحق هذا التساؤل : { أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتِغِي حَكْمًا } كما أنزل عليه من قبل القول الحق : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ } [الأنعام : 112]
إذن فعُدو النبي هو عدو المؤمنين به والمتبعين له ، لكن قمة العداوة تكون للنبي المرسل من الحق :

{ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [الأنعام : 114]

وكلمة { مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } فيها إغراء للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالفائدة؛ لأن غاية إنزال الكتاب لكم أنتم ، والكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يزيد في صفات الله صفة ، ولن يزيد في ملك الله ملكا . بل الغاية أنتم .

{ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتِغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ } [الأنعام : 114]

وسبحانه لم ينزل الكتاب إلا بتفصيل لا تلتبس فيه مسألة بأخرى :

{ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [الأنعام : 114]

والمقصود هنا بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم اعتنقوا دينين : دينا يعلن يبدونه ويظهرونه ، ودينا يُسَرُّ به ، فما يسر به لا يعلنونه ويُحَرِّمُونَ السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذي جعلهم يلتون هكذا؟ لأن لهم حالين اثنتين : حال أيام أن كانوا يعاديهم من لا يؤمن بالسماء ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق : { وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا } [البقرة : 89]

لقد كانوا من قبل أعداء للذين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشاغل أن ينتصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظل زمان نبي تتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحيثما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم : { اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . . . } .

[التوبة : 9]

وكان الثمن هو بقاء السلطة في أيديهم ، وعندما تأتي النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس في

الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشتراوا بآيات الله
ثمنا قليلا .

{ والذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [الأنعام :

[114

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذي يشيعونه هو باطل . إذن فهناك
علم بينهم وبين نفوسهم؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق : { فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ }
أي الشاكين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب للنبي
صلى الله عليه وسلم ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المتداومة عليه
والزيادة؛ لأن هناك أمورا قد تزلزل الإيمان؛ لذلك يأتي الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو
تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا . . } .

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)

وكلمة « تمت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التي تمت؟ . أهي
كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :
اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . . } [المائدة : 3
[

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه؟ . ونرى أن معنى « تمت » استوعبت كل أفضية الحياة إلى
أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء في كتاب الله حكماً من الأحكام؛ لأن
الأحكام غطت كل الأفضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطي معنى الجمع . وأنت تسمع في
الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة قوبلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال
كلمات لكن التعبير عنها جاء ب « كلمة » إذن { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } المقصود بها المنهج
الذي يشمل كل الحياة ، وقرأ قوله الحق : { كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . } [الكهف :

[5

أهي كلمة أو كلمات؟ أمها كلمة ولكن فيها كلمات . إذن لفظ « كلمة » تطلق ويراد بها اللفظ
المفرد ، وتطلق ويراد بها الكلام . والكلمة في الأصل لفظ مفرد ، أي لا يكون معها لفظ آخر ،
ولكنها تدل على معنى ، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم؛ ويحتاج إلى ضميمة شيء إليه
لفهمه فهذا حرف ، وأنت تقول : « في » وهو لفظ يدل على الظرفية ، إلا أنه غير مستقل
بالفهم؛ لأن الظرف يقتضي مظلوماً ومظروفاً فيه ، فتقول : « الماء في الكوب » لتؤدي المعنى
المستقل بالفهم . وكذلك ساعة تسمع كلمة « من » تفهم أن هناك ابتداء ، وساعة تسمع كلمة

« إلى » تعلم أن هناك انتهاء . وإن كان يدل على معنى في نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الاسم . وإن كان الزمن جزءاً منه فهو « الفعل » . أما « الكلام » فهو الألفاظ المفيدة .
 وحين تسمع « سماء » تفهم المعنى ، وكذلك حين تسمع كلمة « أرض » وهو معنى مستقل بالفهم . وحين تسمع كلمة « كتب » فهي تدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزء من الفعل ، فكتب تدل على الزمن الماضي و « يكتب » تدل على الحاضر و « سيكتب » تدل على الكتابة في المستقبل . إذن ف « الكلمة » لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف . و « الكلمة » قد يقصد بها الكلام .
 وقوله الحق : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } تعني الكثير . فإن أردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله . وكلام الله نسميه « كلمة » لأن مدلوله كلمة واحدة . انتهت وليس فيها تضارب ، هذا إن أردنا بها القرآن ، ولنفهم أن القرآن قد استوعب كل شيء ، وكل قضية في الوجود وأيضاً لم ينس أو بدّل فيه حرف؛ بل بقي وسيبقى كما أنزل؛ لأن الآفة في الكتب التي نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها ، وحرفوا بعضها ، وكان حفظها موكولاً إلى المكلفين ، ومن طبيعة الأمر التكليفي أنه يطاع مرة ، ويعصى مرة أخرى .

وإن أطاعوا حافظوا على الكتب ، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله تعالى الحق : { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ . . } [المائدة : 44]

و « استحفظوا » : أي طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفي عرضة أن يطاع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر يختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9]

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } المقصود بها أن تطمئن على أن القرآن الذي بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب في بعض نصوص القرآن ، فتجد نصاً مساوياً لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق : { كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ } [المدثر : 54-55]

ومرة أخرى يقول سبحانه : { كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ } [عبس : 11-12]

ومرة أخرى يقول : { إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } [الإنسان : 29]

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق : { فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } [القيامة :

والحق يقول : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللِّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [المؤمنون : 1-9]
 وفي آية أخرى يقول : { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [المعارج : 34]
 وكل ذلك يدل على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك قد تمت . أو قول الله : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } ليدل على أن كلمة الله هي العليا ، ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هي العليا » لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ، وسبحانه القائل : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ . . } [التوبة : 40]

هذا السياق الإعرابي حصل فيه كسر مقصود ، والسياق في غير القرآن أن يقول : وجعل كلمة الله هي العليا ، ولكنه سبحانه يقول : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا } وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هي العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا دليل على أن كلمته قد تمت .
 ونلاحظ أن قول الحق : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } تأتي بعد { أَفَعَيَّرَ اللَّهُ ابْتِغْيَا حَكَمًا } ، واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين والحقين ، وبين المهتدين والضالين : إنه الحق القائل :

{ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا } [العنكبوت : 40]
 والحاصب هو الريح التي تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد . { وَمِنْهُمْ مَن أَخَذْتَهُ الصَّيْحَةَ } [العنكبوت : 40]
 وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية : { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ } [الحاقة : 5]

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ } وكذلك : { وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا } .
 وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق - من قبلهم - المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التي أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء : 15] وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال : 33]

إذن { تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } ، وهي الفصل النهائي : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * }

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ { [الصفات : 171-173]

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والنصر للمنهج الغالب يقتضي الإخلاص ،
فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل : { لِأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . } [
المجادلة : 21]

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام . { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً
وَعَدْلاً . . } [الأنعام : 115]

أي وافق الواقع الكوني ما قال الله به وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً في آن واحد؟ لنفرض أنك
أحضرت مدرساً خصوصياً لولدك ، وصادف أنه هو الذي يدرس في المدرسة وهو الذي يدرس
لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد في الامتحان . ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان
ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل؟ قد يكون المدرس هو
واضع الأسئلة ولّمح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذٍ غير عادل ، لكن كلمة الله تجيء
مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهي كذلك عدل؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب
: { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه
فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علم الله عباده احتياط الصدق في كلامهم؛ فأوصاهم : { وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . . } [الكهف : 23-24]

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذي لا نتحكم فيه ، فاحم
نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ ربنا حدوث ما وعدت
به ، وبذلك يحمي الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلا على
وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل؛ لأنه عندما تقول : « أفعل ذلك غداً » . ماذا
ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك؟! لكن الله إذا قال : « سأفعل » فله
طلاقة القدرة .

{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الأنعام : 115]

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه في
عدواتهم ، وعليهم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل : { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى
أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . } [الأنعام : 121]

أي ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ . . } [

وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ
(116)

و { مَنْ فِي الْأَرْضِ } المقصود بهم المكلفون؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار وهم أوامر ونواه ،
فما دون الإنسان لا أمر له ، و « أكثر » لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، وما
دام القول هو : « أكثر » . فقد يكون الباقيون كثيراً أيضاً ، وأما كثير فإنها ، تعطي له كميته في
ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على
« المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل مصر منك كثير ، أي إن كنت رجلاً طيباً فستجد
مثلك الكثير ، وإن كنت شريراً فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنَّجْمُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ . . } [الحج : 18]

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسام الأمر؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة
وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس . بل قال « وكثير من الناس » ، ولم يقل الحق :
وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ،
وإن نظرت إليهم في ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول
الحق : { وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ؟

« الطاعة » - كما نعرف - استجابة للأمر في « افعِل » ، والنهي في « لا تفعل » إذا قال الحق
للإنسان افعِل كذا؛ فالإنسان صالح لأن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شيء لا تقدر
عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو يُنهي إنما يؤمر وينهي لمصلحته ، فإن
لم يوجد أمام مصلحة معارض من منهج إلهي فهذا من مصلحته أيضاً؛ لأن الله أجاز له حرية
الفعل والتَّرك . ويوضح الحق : من رحمتي أن جعلت لكم تشريعاً؛ لأننا لو تركنا الناس إلى
أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهي كل واحد
من الناس بما يخالف هواه؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس
هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول
للجميع « افعِلوا كذا » و « لا تفعلوا كذا » وبذلك يأتي الاستطراق لنفعهم جميعاً . ولذلك
يقول الحق : { وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . . } [الأنعام : 116]
فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم؛ لأن الخير هو الفطرة في الإنسان ،
وقد جاء التشريع لينمي في صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكد لها ، ويعدل في صاحب
النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .